في بلاد المسلمين المنسيين

بخارى وما وراء النهر

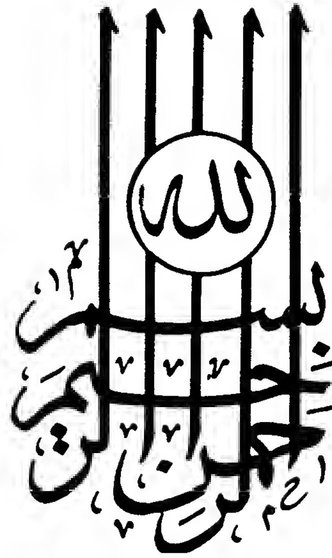
بقلم

محمد بن ناصر العبودي

الطبعة الأولى

١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م

رقم فسح وزارة الاعلام
٢٢١٨/م
التاريخ: ١٤١١/٤/١٠هـ


بسم الله الرحمن الرحيم

تقديــم

للأستاذ بابكر درويش مدير مكتب

رابطة العالم الإسلامي في أديس ابابا

إنـه دعـوة إلى المزيد من الإهتمام بأحوال المسلمين الموجودين في الكتلة الـشيوعية. لاسيما في هذه الأيام التي تتهاوى فيها صروح الشيوعية صرحاً بعد صرح ، وحصناً بعد حصن.

وإنه أول محاولة ميدانية تستشف أوضاعهم.

مـسـلمو الاتحاد السوفيتي عالم مجهول.. وكل ماكتب عنهم حدده الإطار الماركسى.

فـالمـسلـمـون في داخـل الـستـار الحـديـدى يغطون ثلث مساحة الاتحاد الـسـوفـيـتي.. و يتحدثون أكثر من خمسين لغة محلية و يشكلون ٤٣ قومية متعددة الأصـول، والـطائرة السوفيتية في مطار عمان كانت أول مصدر ناطق أعطت الكاتب واقعاً ملموساً للحياة في الاتحاد السوفيتي.

شـيء صـعـب أن يـرسـم الإنـسـان صـورة حـقيقية لأوضاع المسلمين في الإتحـاد الـسوفيتي ليس فقط بسبب القهر وأجواء الإرهاب التي كان يعيشها الـنـاس داخل هذا السجن الكبير والتي عاشها المسلمون على وجه الخصوص مـنـذ عصر الـقياصرة وحتى عصر الانفتاح الحالي.. بل هي بقدر كبير تتركز في الإمـتداد الشاسع لأرض الإتحاد السوفيتي الذي يحتل سدس اليابس من الـكـرة الأرضـيـة واقـعـاً واكثر من سدسها بشكل نظرى..وهذه مسألة تحدث عنها عـلماء الجـغرافيا كثيراً..ومن هذه المساحة ــ الواقعية والنظرية ــ يحتل

المسلمون ثلثها و يشكلون حوالي خمس السكان.. ويجعلون بالتالي من الإتحاد السوفيتي الدولة الإسلامية الخامسة من حيث تعداد السكان..!

وتأتي الصعوبة أيضاً من أن المسلمين في الإتحاد السوفيتي يصعب الإتصال حتى مع بعضهم البعض .. وهم يتكلمون خمس عشرة لغة تركية وعدة لغات فارسية وثلاثين لغة قفقاسية إضافة إلى الصينية والمنغولية وشكل غريب من العربية. واللغة المشتركة الوحيدة هي الروسية رغم إنخفاض شعبيتها.

كذلك فإن الأصول الثقافية والاجتماعية للمسلمين السوفييت مختلفة: ينحدر التاجيك مثلا من شعب حضرى..أما القازاق فقد كانوا بدوا رحلا حتى عهد ليس ببعيد عن الذاكرة..ومازال الباميريون يعيشون منعزلين في وديانهم الجبلية اما التتار فقدموا إلى الفولقا في عصور قديمة ومازالوا هناك..و ينحدر القفقاسيون من السلالات الأصلية التي سكنت القفقاس منذ القدم و يشكل المسلمون في مجموعهم حوالي ٤٣ قومية!!

وحتى الذين ابعدوا حديثا إلى سيبريا..فهم يعيشون في مسطح ضخم يجمع الواناً متعددة من التضاريس تضم السهول والجبال والهضاب وتزيد مساحتها على المليونين ونصف المليون كيلو متر مربع وهى اكبر صحراء جليدية في العالم، وتشكل وحدها في المساحة اكبر من أى قطر عربي ..! والمعلوم ان سيبريا خضعت للإسلام منذ عام ٩٧٨هـ.

وأخيراً.. فإن كل المصادر التي اصدرتها الأكاديميات السوفيتية حول المسلمين الذين يشكلون خمس جمهوريات من جمهوريات الاتحاد السوفيتي لايعتمد عليها...فكل شئ فيها يحدده الإطار الماركسي..

وفي خلاصة هذه التقدمة يمكننا أن نقول: إنَّ أصح مايمكن أن يقال عن مسلمى الإتحاد السوفيتي أنهم لم يكونوا دوماً قادرين على الجهرية علناً.. ومع هذه الظروف بقى الإسلام..وهو أمر مثير للعجب كما تقول

كاتبة انجليزية متخصصة في شؤون المسلمين بالإتحاد السوفيتي.

ورغم كل الذي ذكرناه.. استطاع الأديب الرحالة الشيخ محمد بن ناصر العبودي الذي كتب اكثر من ستين كتاباً في أدب الرحلات وقد طاف معظم أنحاء العالم وعلى وجه الخصوص جزره ومجاهله..استطاع أن يرسم بقلمه الرشيق صورة حية ودقيقة لهذا الواقع الغريب..بل إستطاع أن يقدم للقارئ وهو في مطار عمان بالأردن قبل أن ينطلق إلى داخل حدود الإتحاد السوفيتي أن يعطي من خلال وصفه للطائرة ووضعها الداخلي من قدرات بشرية وامكانيات مادية إنعكاساً حقيقياً لجغرافية الإتحاد السوفيتي بكل معطياتها التضاريسية وواقعها الإجتماعي وكنتورها السياسي وخارطتها الإقتصادية.

ومن أجل هذا حرصنا على قراءة كل شئ وصفه كاتب المذكرات..حتى مواعيد الإقلاع والهبوط للطائرات..وخشونة ملمس المناشف في الطائرة..وحركة المضيفات في داخلها..فالمشهود به أن كل من سافر إلى منطقة من مناطق العالم المعروفة أو المجهولة وبيده كتاب من كتب الرحلات التي خطها الأديب الشيخ العبودي استغنى عن أي شيء غيره..!

مكة المكرمة : بابكر درويش

تصدير

الحمد لله رب العالمين الذي إذا أراد شيئاً كان، ولو ظن الإنسان أنه ليس بالإمكان والصلاة والسلام على نبي الهدى المصطفى المجتبى محمد عليه السلام وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه الأبرار المتقين.

أما بعد، فإن كلمة (بخارى) وما وراء النهر كانت تقرع سمعي منذ نعومة آذاني عند ماكنت مبتدأ في قراءة كتب الثقافة العربية الأصيلة وكانت حببت إليّ قراءة كتب التاريخ والرجال فكنت اسمع كثيراً بأن إماماً من أئمة الحديث الكبار رحل إلى بخارى وما وراء النهر فسمع بسمرقند وترمذ و بلاد الشاش مثلا.

بل لقد قرأت سير العلماء الأعلام وأئمة الاسلام الذين انجبتهم تلك البلاد وكيف كان باعهم طويلاً وصبرهم جميلاً على ما لاقوه من العناء والتعب في الرحلة لطلب العلم والسهر على التحصيل ثم إفادة الطلاب عندما يتم التحصيل و يعجز البدن عن الرحيل، فكانت تلك البلاد في ذهني كما هي في الواقع في ذلك الحين مراكز للعلوم الإسلامية وجامعات حافلة بكبار الأساتذة في سائر العلوم والجهابذة — خاصة في علوم الحديث والأثر. وحتى الأدباء المناطيق والشعراء المفاليق الذين أغنوا العربية بأشعارهم وآثارهم كان لها منهم النصيب الكبير بل الخطير، وناهيك بما نقله عنهم الثعالبي وحده في يتيمة الدهر وفي غيرها من كتبه، فكنت اشتاق إلى رؤ يتها حتى في الاحلام، ولقد تحققت هذه الرغبة في المنام.

ولكنها كانت خيوطاً من خيوط الأوهام بين ضباب الرغبة الداخلية والحقيقة المنامية إن صح ان لرؤى المنام حقيقة في الأحلام.

إستمر ازدهار تلك الديار على مدى الأدهار حتى جاء التتار ففعلوا بأهلها الأفاعيل ولم يتركوا في مدنها ظل مقيل حتى قال ابن الأثير قولته فيما سمعه من أفعالهم: ياليت أمي لم تلدني قبل الإطلاع على أحوالهم.

ثم تراكمت عليها النكبات حتى نبغ تيمور لنك في سمرقند وتوجه إلى الشام فسفك الدماء واستباح الأموال واختلف الناس فيه وفي حقيقة معتقده مابين مادح له من أهله، وبين مستنكر من غيرهم لقبيح فعله إلى أن أخنى الدهر على تلك الديار فكادت تعقم عن ميلاد الأذكار، أو هي لم تفعل ذلك ولكن المسلمين في حواضرهم وبخاصة في البلدان العربية قد تقاصرت هممهم وتدانت عزائمهم فأصبحوا لايحبون الإبتكار ولايتابعون الأفكار إلى أن أصبحت تلك البلاد قد استولى عليها الأعداء الألداء من الروس قياصرتهم الكبار ثم فراعنة الشيوعيين الأشرار فخمل ذكرها ونيسي أمرها.

وان كان الصحيح أن المسلمين أنفسهم قد نسوا أمجادهم في بلادهم حتى كادوا لايعرفون عن انفسهم الا ما كتبه أعداؤهم، بل خشينا أن يكونوا قد نسوا الله فأنساهم أنفسهم وان لم يكونوا كذلك كلهم فإن هذه هي حال بعضهم.

واستمر نسيان المسلمين في بلاد بخارى وما وراء النهر فكان اعداء الإسلام بل الأديان طغاة الشيوعية واساتذة الدعوات الإلحادية يفعلون بهم مايشاؤون وماشاؤه لهم أن يقطعوا الصلة ما بينهم وبين اخوة لهم في الإسلام في ديار الإسلام فحرموا عليهم الحج ثم سمحوا لعدد نزر من الرسميين المنتفعين بأن يكونوا تحلة القسم مع أن وجودهم سواء هو والعدم فعددهم محدود فيما فوق العشرة بقليل ونشاطهم مشهود للشيوعيين بما يحيطونهم به من العيون وأذكر أنني قابلت في مكتبي في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة عندما كنت أميناً عاما لها الوفد الذى اسموه وفد الحجاج السوفييت وكان عدده ثلاثة عشر رجلاً فسألت رئيسهم عن عدد الحجاج من مسلمي الإتحاد السوفيتي فقال: ثلاثة عشر وكلهم حاضر معنا الآن.

فسألته عن أحوال المسلمين هناك فأطنب في ذكر مايتمتعون به من حرية في أمور دينهم وعمارة مساجدهم بل حتى في إخراج زكاة أموالهم وقد أتى على ذكر الزكاة حينما سألته عمن يعمر المساجد التي ذكر أنها تقام فقال إنها من زكاة أموال المسلمين.

وقد نسي أو تناسى أن العالم كله يعرف ان الدخول هناك محدودة لايكاد يفضل منها شيء عن طعام الرجل وعياله وشرابهم بحيث لا تكاد توجد اموال تجب فيها الزكاة يحول عليها الحول وهي عند صاحبها زائدة عن حاجته وحاجة عياله الا ماكان من ذلك قليلاً جداً عند عدد قليل من الناس يكون ذلك مما ادخره من قوته وما انتزعه من ضروريات حياته وليس هذا بالمهم وإنما المهم أنني سألته عن عدد المسلمين في الإتحاد السوفيتي؟ فأجاب بأنهم ثلاثون مليوناً.

وهذا هو الاحصاء الرسمي الحكومي آنذاك وهو إحصاء لايذكر إلا المناطق التي كل سكانها من المسلمين لأنه يحصى الناس على أساس بلدانهم وليس على حسب أديانهم لأنه لايعترف بالدين أي دين.

وإلا فان الصحيح الذي يكاد يجمع عليه المنصفون المتابعون لأحوال المسلمين في ذلك الحين قبل اكثر من عشر سنين بقليل يذكر أن عدد المسلمين يزيد على الستين من الملايين.

ولم يكن كلامه مما يستطاع السكوت عليه لاسيما وقد استمع إليه عدد من ممثلى المسلمين في انحاء العالم ممن كانوا في مكتبى ذلك الحين.

فقلت له وأنا أعرف أن في الوفد الذي لايزيد أعضاؤه على ثلاثة عشر من هم آذان وعيون يبلغون مايسمعون أو يستنتجون، كيف يكون ثلاثون مليوناً من المسلمين احراراً في دينهم وفي أداء عباداتهم ولايحج منهم الا ثلاثة عشر رجلاً ونحن نرى مسلمين في أقطار فقيرة لايبلغ عددهم المليون الواحد يحج منهم الفان؟

فسكت ولم يحر جوابا، لأنه كان يعلم في حقيقة أمره أنه لم يقل صوابا.

ثم تتالت السنون، وتوالت معها عناية المملكة العربية السعودية بالإخوة المسلمين في أنحاء العالم تلك العناية التي تمثلت في إرسال الوفود إليهم

لمعرفة أحوالهم ومساعدتهم على أمور دينهم بعمارة مساجدهم واستمرار الدراسة في مدارسهم الاسلامية وارسال من يرشدهم إلى ماينفعهم في دينهم ومن يعلم صغارهم و يفيد كبارهم مع تقديم المنح الدراسية لعدد من أبنائهم إلى غير ذلك من المساعدات.

وكان لي بفضل الله تعالى نصيب كبير إن لم أقل نصيب أكبر من هذا الحظ العظيم الذي شمل زيارة المسلمين في سائر أقطار المعمورة.

فكان من آخرها حتى كتابة هذه السطور زيارة المسلمين في الاتحاد السوفيتي.

وقد تمت الزيارة بدعوة رسمية تلقتها رابطة العالم الإسلامي من مدير العلاقات الخارجية للإدارات الدينية في الإتحاد السوفيتي ورئيس الادارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان الدكتور شمس الدين بن ضياء الدين بابا خان وان شئنا التلفظ باللفظ الرسمي لاسمه كما تقضي بذلك قواعد اللغة الروسية قلنا شمس الدين بن ضياء الدين بابا خانوف لأن (أوف) تعني (ابن) مثلما تعني كلمة (اوغلو) في اللغة التركية.

هذا ما كان في الأوراق الرسمية وأما ماوراء السطور فإن الرجل كان قد قال لي كما قال غيره من رؤساء الادارات الدينية هناك الذين قابلتهم اثناء الحج: إن اخوتكم المسلمين في الاتحادِ السوفيتي ينتظرون بشوق قدوم وفد رسمي من رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة وسيكون وفد الرابطة الذي نرجو ان يكون برئاستكم أول وفد رسمي من المملكة العربية السعودية يأتي لغرض زيارة المسلمين.

ولقد فهمت ان السلطات الرسمية السوفيتية، وإن شئنا العبارة الدقيقة في الحقيقة، قلنا إنها السلطات الروسية تلك السلطات تسر بوصول وفد رسمي من رابطة العالم الإسلامي لكى تستعمل ذلك لغرض الدعاية الإسلامية الداخلية عند المسلمين كما أنها ترحب بأي اتصال على أي

مستوى مابينها وبين المملكة العربية السعودية على رجاء أن يكون مقدمة لاتصال أوثق تجنى منه مكاسب تحقق من وراءها مطالب لم يتيسر لها أن تحققها حتى الآن ومن ذلك إعادة العلاقات السياسية بين المملكة العربية السعودية وروسيا التي كانت قائمة من قبل وأوقفت ولم تقطع رسميا بين البلدين بمعنى أنه لم يعلن أحد البلدين قطع تلك العلاقات.

ومع ذلك فإن رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة هي منظمة شعبية عالمية والادارات الدينية في الاتحاد السوفيتي هي في تمويلها واغراضها منظمات شعبية وإن كانت تعمل داخل نطاق محدود الأركان من إرادة الإدارة السوفيتية الا أننا من جانبنا راينا أن الغاية النبيلة تبرر الوسيلة المشروعة وأنه إذا كان رجال الإدارة في الإتحاد السوفيتي قد يستغلون زيارتنا لاغراض سياسية فإننا سوف نوظفها لأغراض إسلامية نبيلة. وهكذا كان.

فقد تألف وفد رابطة العالم الاسلامي لزيارة الاتحاد السوفيتي من ستة أشخاص هم :

محمد بن ناصر العبودي الأمين العام المساعد لرابطة العالم الإسلامي (كاتب هذه السطور)	**رئيساً**
الدكتور سعيد محمد باديب	**عضواً**
الأستاذ سالم بن عبد الله السالم الأمين العام المساعد للدعوة الإسلامية	**عضواً**
الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن بن بار	**عضواً**
الاستاذ عبدالرحمن بن رشيد بن عوين	**عضواً**
الأستاذ رحمة الله بن عناية الله	**أمين سر الوفد**

وغادر الوفد إلى عمان عاصمة الأردن من اجل الحصول على سمات الدخول إلى الاتحاد السوفيتي من سفارته هناك حيث لا توجد له سفارة في بلادنا وكذلك من اجل الحصول على سمات الدخول إلى بولندا التى سنزورها بعد الاتحاد السوفيتي.

ووصلنا موسكو في يوم الثلاثاء السادس من رجب عام ١٤٠٦هـ المصادف للخامس عشر من ابريل ١٩٨٦م.

وتجولنا في عدة مناطق من جمهورياته وفي مدن عديدة منها فكتبت عن ذلك يوميات كنت قد اعتدت كتابتها عندما أزور بلاداً من بلدان المسلمين لاتتوافر عنها المعلومات الكافية في بلادنا العربية وهي عادة أخذت بها نفسي منذ أكثر من عشرين سنة فكانت ثمرتها تسعة وأربعين كتاباً من كتب الرحلات وهذا الكتاب هو الموفي للخمسين أرجو أن ينال من القبول مانالته الكتب التي قدمتها قبله أو أكثر من ذلك لكونه يتحدث عن بلاد مجهولة بل بلاد منسية من بلدان المسلمين وهي بخارى وما وراء النهر الذي يراد به نهر جيحون وهو المسمى الآن بنهر آمودار يا الذي يكون الحدود مابين بلاد بخارى وبلاد الأفغان.

أما بقية الجمهوريات والمدن التي يقطنها المسلمون داخل الاتحاد السوفيتي وهي خارجة عن تلك البلاد فإن لها حديثاً آخر بل أحاديث أخر في كتاب عنوانه «زيارة للمسلمين في الاتحاد السوفيتي» وفي غيره.

لقد كنا طلبنا في السابق أن تشمل زيارتنا مدنا اكبر وعدداً اكثر من الاماكن في بلاد بخارى وما وراء النهر. ومن ذلك مدينة بخارى بلدة الإمام البخاري وترمذ بلدة الإمام الترمذي وخوارزم التي هي خيوه في الوقت الحاضر. وبلاد فرغانة التي كانت منتهى أرض الإسلام جهة الشمال الشرقي كما كانت (غانة) هي منتهى أرض الإسلام فيما يقابل ذلك في الجنوب الغربي.

ولقد تيسرت لي زيارة غانة فيما زرته من أقطار القارة الإفريقية، وكتبت عنها فيما كتبته عن تلك الأقطار.

مع التنويه الذي هو من التحدث بنعمة الله علينا نحن المسلمين أن الإسلام لم تقف حدوده عند هذين الحدين الواردين في عبارات بديع الزمان

الهمذاني في القرن الرابع الهجري بل تعدته إلى مملكة (سيبير) الإسلامية في سيبيريا التي قضى عليها الروس في عام ١٥٨٠م وإلى ما وراء غانة المذكورة جهة الجنوب من القارة الافريقية ومن أهم ذلك غينيا كونكري المسلمة فضلاً عن (سيراليون) التي تقع عنها ايضاً إلى الجنوب وهى بلد صارت وطنا إسلامياً لكون الأكثر من أهلها قد اصبحوا من المسلمين ولله الحمد.

مع التنبه إلى أن غانة القديمة ليست واقعة ــ جغرافيا ــ في اراضي جمهورية غانة الحديثة التي عاصمتها (اكرا) وكان اسمها قبل الاستقلال (ساحل الذهب) فقد سماها زعماء الاستقلال فيها وهم الدكتور قوامي نكروما ومن معه (غانة) تيمنا بمملكة غانة القديمة التي كانت قائمة مزدهرة وقت ان كانت القارة الأوروبية تتقاسمها إمارات لاتحسن الادارة.

وكانوا يردون بذلك على مزاعم بعض الأوروبيين الذين يجردون الافريقيين من أي ماضٍ حضاري حتى فيما غبر من السنين.

وتقع عاصمة (غانة) القديمة على ضفتي نهر السنغال الذي كان اسلافنا العرب يسمونه «نيل غانة».

ولم نتمكن إلا من زيارة (طشقند) التي هي بلاد الشاش في كتبنا الجغرافية القديمة وسمرقند بلاد الأحداث العظيمة بل بلاد النبغاء من المحدثين والشعراء البلغاء وأماكن قريبة من هاتين المدينتين مثل بلدة خرتنك التي دفن فيها الإمام البخاري رحمه الله. ولكنني وجدت الحديث عن ذلك قد ألف كتابا صغيرا ربما أخرجه عن صغره ثرثرة في طبيعة كاتبه أو فضول في كتابه فصول عن أمور قد يعتبرها بعض القراء من نافلة القول. أو مما لايستحق التحدث عنه. وإن كان غيرهم من جمهرة القراء لايوافقون على ذلك.

وهي طبيعة لاينفك عنها الكاتب وان حاول ذلك ــ والطبع يغلب اتطبع ــ كما قال أسلافنا الأقدمون.

وارجو معذرة القارىء الكريم عما يلاحظه من كون الكتاب ليس دراسة شاملة مستفيضة عن أحوال تلك البلاد (بخارى وما وراء النهر) التي هي بلاد واسعة واقعة تحت نظام شيوعي إلحادي

ولكوننا في زيارة رسمية مرسومة السير، محددة الوقت بل حتى المعلومات التي نحصل عليها بالاطلاع الشخصى أيضاً محدودة النوع.

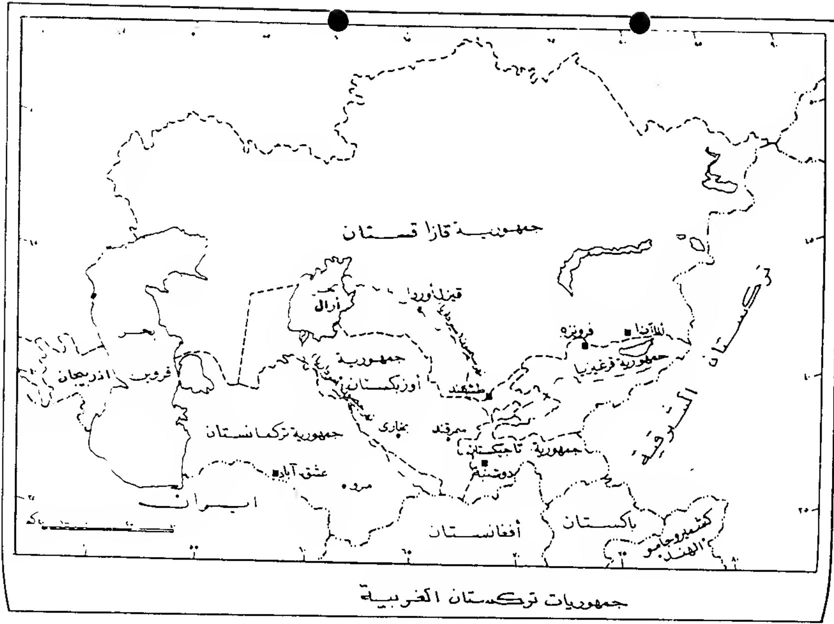
لذلك اجتهدنا في الاستخبار عما لم نشاهده وقسناه على ماشاهدناه فجاء الكتاب في رأيي كتابا حاويا لمعلومات جديدة قد تكون مفيدة لأنها معلومات ميدانية تشمل نواحي عديدة من نواحي الحياة ولو كان لنا من الوقت والقدرة على التصرف في الأمر لرأيت في هذا الكتاب مالم تره في غيره فهو اذاً جهد المقل، والبضاعة المزجاة، ولكن مالا يدرك كله لايترك كله، والله المستعان وعليه التكلان[١].

مكة المكرمـــــة

محمد ناصر العبودي

---

(١) كتب هذا الكتاب قبل تطبيق سياسة اعادة البناء (البروستريكا) والمصارحة (جلاسنوست) التي نادى بها الرئيس جورباتشوف ثم طبقها في الاتحاد السوفيتي أثمر تغيراً واضحاً إلى الأحسن بالنسبة للمسلمين وغيرهم وقد ذكرت أثر ذلك على المسلمين في كتب لي كتبها في عام ١٤١٠هـ (انظر الدراسة في آخر هذا الكتاب).



جمهوريات تركستان الغربية

يوم الثلاثاء ٦ رجب ١٤٠٦هـ ١٥ ابريل ١٩٨٦م

من عمان إلى موسكو

غادرنا مطار عمان في الساعة الثالثة الا عشر دقائق ظهرا بتوقيت الأردن على طائرة تابعة لشركة (ايروفلوت) السوفييتية و يسمونها هنا الروسية. وكان في الوداع عدد من الإخوة الكرام منهم الشيخ عبدالله حسن جبر مدير مكتب رابطة العالم الإسلامي والاستاذ سعد الحصين الملحق الديني بالسفارة السعودية في عمان.

والطائرة من طراز ليوشن ١٥٤ ذات محركات ثلاثة كلها في مؤخرتها، وتشبه في مظهرها الطائرة الأمريكية د س٩ أو بوينج ٧٢٧.

وفي هذه الطائرة درجة أولى تتألف من صفين فيهما ثمانية مقاعد والباقي من مقاعد الطائرة مقسم إلى قسمين أحدهما قبل الآخر ولا أدري بم يسمونها.

وقد شغلنا ونحن ستة مقاعد الدرجة الاولى وبقي اثنان شغل أحدهما رجل روسي والآخر شغله أخ عراقي كبير القدر لذلك كان الكلام كله في هذه الدرجة الأولى المتجهة إلى موسكو عربيًّا ولاتسمع فيه غير العربية شيئاً لأن الشخص الروسي الموجود فيها لم يتكلم مع احد.

وكانت هذه أول مرة ارى فيها ركاباً مميزين بالدرجة في الطائرات السوفيتية ومن اهل البلاد ثم رأيت القطار الجيد من قطاراتهم فيما بين (لينين قراد) وموسكو فيه اربع درجات وقد ذكرت ذلك في كتاب «زيارة المسلمين في الاتحاد السوفيتي».

الروس والسوفييت :

حديثنا في هذا الكتاب عن منطقة واقعة في الاتحاد السوفيتي وقد اختلفت طرائق المتحدثين عنها في بلادنا فمن الكتاب من يسميها بلاد الروس ويسمى أهلها بالروس ومنهم من يسميها بلاد السوفييت وعلى ذلك يسمى أهلها بالسوفييت أو السوفيتية وبعض الناس لايفرقون بين التسميتين وقد يستعملون واحدة منها آنا وأخرى آنا آخر في كلام لهم واحد مع ان الفرق بينهما كبير في المعنى وإن لم يكن كذلك حقيقة.

فالبلاد الروسية تعني بلاد الجنس الروسي اي الشعب الذي ينتمي إلى العنصر الروسي وهو شعب تقع بلاده الأصيلة في الشمال الغربي من المنطقة التي نتحدث عنها وهي كذلك واقعة في الدولة نفسها: دولة الاتحاد السوفيتي.

وكانت بلاد الشعب الروسي منطقة محدودة بالنسبة إلى ما عليه الإتحاد السوفيتي في الوقت الحاضر. وكانت تخضع لنفوذ المسلمين البلغاريين الذين أسماهم الروس بالتتار لكون بعضهم جاؤا مع حفيد جنكيز خان ولحقتهم هذه التسمية حتى الآن وعاصمة بلادهم في الوقت الحاضر هي

(قازان) و يسمون بلادهم بجمهورية (تتار ستان) وكان أوائلهم موجودين في المنطقة قبل جنكيز خان وهولاكو بقرون.

ولكنهم لاينحصرون في هذه الجمهورية بل هم موجودون في مناطق متعددة من الاتحاد السوفييتي كان لهم اكثر نهر (الفولجا) الذي يسمونه بلغتهم نهر (ايدل) ـ بالدال وهو في كتبنا العربية القديمة التي لانقرا أكثرها مع الأسف نهر (إيتل) ـ بالتاء ـ ولو كنا نقرأها لأسميناه بايتل ولم نسمه بنهر الفولجا.

وعلى أية حال فان الكلام عن هذا الشعب البلغاري العظيم الذي اختار الدين الاسلامي دينا طواعية من دون حرب أو غزو وبقى متشبثا باسلامه حتى الآن رغم المحن والكوارث التي حلت به ليس هذا محله.

والمقصود هنا هو بيان المصطلح الذي سنسير عليه عند ذكر بلاد الاتحاد السوفيتي.

وكانت روسيا التي هي بلاد الروس خلال حكم القياصرة قبل قيام الثورة الشيوعية تجهر بصراحة وعلى رؤس الملأ بأنها دولة قيصرية تسيطر على بلاد شاسعة واسعة من بلدان أقوام أخرى ومنها شعوب تقطن بلاداً مترامية الأطراف مثل بلاد بخارى وماوراء النهر وتخضعها لحكمها بالقوة.

وعند ماقامت الدولة الشيوعية أرادت التقرب من الشعوب التي كان يحكمها القياصرة فأظهرت لهم ان الشعب الروسي نفسه كان مقهوراً مغلوباً على أمره من القياصرة وأنهم إنما ثاروا عليهم من أجل الشعوب التي تقيم في القيصيرية الروسية كلها.

ولكي يبرهنوا على ذلك من ناحية الشكل قسموا البلاد إلى جمهوريات صغيرة نوعا ما حسب قوميات السكان أولغاتهم أسموا بعضها بجمهوريات مستقلة داخل الاتحاد السوفيتي أو جمهوريات اتحادية.

وأسموا بعضها جمهوريات متمتعة بالحكم الذاتي داخل احدى الجمهوريات المذكورة التي أسموها اتحادية ونعتوها بالمستقلة.

وما هي بجمهوريات مستقلة ولكنها أقاليم محكومة من قبل الشيوعيين كما كانت قد استعمرت من قبل القياصرة من الروسيين.

وخلعوا عليها كما خلعوا على بلادهم كلها اسما عاما هو الاتحاد السوفيتي الذي يعني بالترجمة الحرفية الاتحاد الشورى فالسوفييت معناها الحرفي الاستشاريون والجمهورية السوفييتية من هذه الجمهوريات هي جمهورية سوفيتية أي شورية بمعنى أن الأمر فيها هو شورى بين أهلها وهو شورى فيما بينها وبين الجمهوريات الأخرى داخل الاتحاد السوفيتي.

هذا هو المدلول اللفظي للكلمة وان كان في الحقيقة من باب تسمية الشئ بنقيضه، إلا إذا كانوا يريدون بالشورى الشورى بين الحاكمين الشيوعيين بغض النظر عن المحكومين من سائر الناس الذين يمثلون الاكثرية فان هذا قد يكون له نصيب من الحقيقة.

حكم الأقلية :

لا أدل على بطلان كلمة الشورى التي يدل عليها لفظ (سوفييت) من كون الشيوعيين حسب احصاءاتهم الرسمية أي الاحصاءات التي تصدر عن الشيوعيين أنفسهم هم أقلية قليلة ان لم نقل ضئيلة نسبياً ومع ذلك يحكمون، بل يتحكمون بالأغلبية الساحقة من سكان البلاد من غير الشيوعيين.

فقد كان الشيوعيون يعلنون أن عدد أعضاء الحزب الشيوعي يبلغ خمسة عشر مليونا من مجموع سكان الاتحاد السوفييتي الذي كان يبلغ ٢٥٠مليوناً وعندما ارتفع عدد السكان في البلاد حتى بلغ في آخر احصاء مائتين واثنين وسبعين مليوناً أعلن الحزب الشيوعي ــ ابان انعقاد المؤتمر السابع والعشرين له الذي انعقد قبل أشهر وهو آخر مؤتمر له انعقد حتى الآن أن

عدد اعضائه بلغ تسعة عشر مليوناً ومائة الف شخص.

فاذا نسبنا هذا العدد وحتى لو أوصلناه ــ مبالغة ــ إلى عشرين مليوناً تكون نسبة الشيوعيين إلى سكان البلاد حوالي ٧٪.

فأي شورى في أن تحكم هذه الأقلية الضيئلة الكثرة الكاثرة من الشعب؟

وكيف ترضى الأكثرية عن ذلك لو أن الحكم كان في حقيقته حكما شوريا أو بالمعنى الحديث المفهوم ديمقراطيا.

وهذا امر واضح في ميدان المقارنة بالأكثرية والأقلية. ولكن حتى داخل الأقلية الشيوعية هذه فإن الأمر فيها هو أبعد مايكون عن الشورى فاللجنة المركزية هي التي تقرر كل شئ في الحزب ومن عداها من الاشخاص واللجان لايستطيعون ان يقرروا شيئاً في أي موضوع مهم كما هو معروف للجميع.

ولو نظرنا إلى هذه الاقلية الشيوعية ووزناها بميزان القياس والمنطق لقلنا إن اكثر من النصف فيها ليسوا شيوعيين عقائدين بمعنى أنهم أنضموا للحزب الشيوعي من اجل الحصول على المناصب ومن اجل الوصول إلى الامتيازات التي لايصل إليها إلا من انضم إلى الحزب الشيوعي وعلى هذا يكون عدد الشيوعيين الملتزمين أقل من ذلك بكثير وهو ينزل بأقليتهم هذه إلى أقل من الأقلية أو يزيدها قلة على قلة حتى الوظائف المهمة لايشغلها الا أعضاء الحزب.

وعلى اية حال فاننا نأخذ الأمر على ظاهره ونقول: إن عدد اعضاء الحزب الشيوعي هو كما اعلنوه تسعة عشر مليونا ونيف فأين هو من مجموع عدد السكان الذي يبلغ مائتين واثنين وسبعين مليونا من النفوس؟

واما الشورى التي تدل عليها كلمة (السوفيت) فإنها لم تطبق مطلقاً. ولم يحدث ان استفتى الشعب استفتاء في أية مسألة هامة فضلاً عن أن يستفتى في كيفية نظام الحكم او في المسائل الاساسية في الدولة ولابد أن يكون المراد بالاستفتاء هو الاستفتاء الحر النزيه.

ونعود إلى العنوان الذي قصدنا منه التعريف الذي سرنا عليه وهو أن نقول البلاد السوفيتية أو الشعب السوفيتي أو الأمر السوفيتي لأن ذلك يدخل تحته جميع الشعوب التي تقطن في دولة الاتحاد السوفيتي على حد اصطلاحهم وهو اصطلاح فيه كثير من الحقيقة الواقعة التي تتمثل في أن الشعوب التي تقطن الاتحاد السوفيتي هي متعددة الأصول ومتباينة العناصر واللغات بل حتى الألوان.

ولتوضيح الأمر نقول: إنك لو قلت لأحد الأشخاص من سكان جنوب الاتحاد السوفيتي أو وسطه: ياروسي لاستنكر ذلك وإذا كان مسلماً فإنه يستفظعه لأن معنى ذلك كمعنى من يقول له ياكافر ثم ان الجميع من الشعوب التي تقطن الاتحاد السوفيتي هي تكره سيطرة العنصر الروسي التامة عليهم في الوقت الحاضر حتى المسيحيون من غير العنصر الروسي يكرهون ذلك، ولكن الجميع مجبرون حتى على عدم الشكوى لأن الحكم الشيوعي للاتحاد السوفيتي هو صارم بل عات والعقاب أشد صرامة وعتوا.

ولذلك يقبل سائر الشعوب التي تقطن الاتحاد السوفيتي أن يقال لهم سوفيت رغم كونهم يكرهون ذلك و يعرفون أنه ذو معنى فارغ من حقيقة الشورى غير أنه أهون وقعا في نفوسهم من نعتهم بأنهم من الروس.

ذلك لأن هذا يخالف الحقيقة ولأنهم يكرهون سيطرة الروس ولهذا سوف نسير على تسمية البلاد بالسوفيتية الا اذا كان الأمر يتعلق بالاخوة المسلمين خاصة فاننا ننسبهم إلى نسبتهم الحقيقية.

وخير تسمية للاخوة المسلمين في المنطقة التي سنتحدث عنها في هذا الكتاب هي (البخاريون) فقد عرفناهم في بلادنا بهذه التسمية وان كان بعضهم يرى ان كلمة (تركستانيين) أصدق منها فانها أوسع منها بكثير فهى تشمل سكان تركستان الشرقية التي يحكمها الصينيون في الوقت الحاضر وسبق أن زرتها وكتبت عنها كتاب (في مهد الترك).

نعود إلى الكلام على الطائرة السوفيتية فنقول :

إن الدرجة الأولى في هذه الطائرة السوفيتية هي أقل من مستوى درجة (رجال الأعمال) التي توجد في الطائرات العالمية والخدمة فيها اقل من ذلك بكثير.

ولم يكن في جيوب المقاعد في الطائرة شيئ من الايضاح عن نوع الطائرة أو من الأوراق المتعلقة بالسلامة في حالة الطوارئ كما يكون في شركات الطيران في العالم الحر من المنشورات فاننا لم نجد الانشرة صغيرة باللغة الروسية لاندري محتواها ثم وزعت المضيفة علينا نشرة اسمها (اخبار موسكو) وفيها طبعة عربية تضمنت أخباراً سياسية مختصرة وتعليقات على بعض الامور التي حصلت في موسكو.

وقد توجهت الطائرة إلى مطار لارنكا في قبرص واعلنوا ان الطيران إليه سيستغرق ساعة وخمس دقائق اخبرني بذلك الأخ العراقي لأن اعلان المضيفة كان بالروسية ثم بالالمانية وهو يعرف الالمانية لأنه درس هناك.

أما الانكليزية فلم يبدأ الاعلان بها الا بعد مغادرة مطار لارنكا إلى موسكو حيث تغير ملاحو الطائرة.

وكانت المضيفة وهي روسية أصيلة يبين ذلك من استدارة في وجهها وحمرة في لونها وغلظ في تقاسيم خلقها قد قدمت الشراب في أكواب صغيرة قبل الإقلاع وكان فيه خمر لم يقربها من ركاب الطائرة احد إلا الراكب الروسي الوحيد في الأولى وفيها ماء معدني قليل وعصير ليمون قليل ايضاً.

ثم كانت الضيافة بعد الاقلاع فنجانا من الشاي أو القهوة وقليلا من (البسكويت) وحبة من الحلوى (الشيكولاته) عندما عفتها أصرت المضيفة على أن آخذها قائلة: إنها (قود قود) اي جيدة فأخذتها.

في مطار لارنكا :

بعد زهاء ساعة من الطيران كانت الطائرة تحوم فوق ساحل البحر في قبرص وقد يقال: إن التعبير عن الساحل أو الشاطئ في قبرص لامعنى له لأن الجزيرة صغيرة بحيث ان الطائرة اذا كانت محلقة في الجو فإنها ترى سواحلها كلها وأذكر بهذه المناسبة أنني كنت قادماً من جنيف إلى بيروت في عام ١٣٩٢هـ اي منذ اربع عشرة سنة وعندما مرقنا فوق قبرص أعلن الطيار ذلك للركاب وكان الوقت ظهراً فبانت الجزيرة تحتنا وكأنها البساط الممدود فوق مياه البحر.

وذلك كله قبل أن تنقسم قبرص الى يونانية وتركية فيزيدها ذلك صغراً إلى صغر وان لم يغير من منظرها من الطائرة.

وقد ظهر لنا الشاطئ من الطائرة صخريا لاجمال فيه وحتى الخضرة البرية فيه ليست شاملة رغم كون الفصل الآن هو فصل الربيع.

والزراعة هنا شاملة حتى غير الأراضي المستوية.

ثم هبطت الطائرة في الساعة الرابعة الا خمس دقائق بتوقيت عمان التي اقلعنا منها وهو مساو لتوقيت المملكة لأن هذا هو الوقت الصيفي عندهم وبقينا في قاعة العابرين في المطار وهي حافلة بالركاب لأن مطار لارنكا هو المطار الرئيسي لقبرص التي تعتبر نفسها جزيرة سياحية وتسهل لذلك ما استطاعت.

وقد تجولت في الحوانيت الموجودة فيها والتي تعلن أن بضائعها معفاة من الرسوم ولكنا وجدنا أسعارها أغلى منها في أسواق المملكة.

وذلك حين اشترينا فيها شرائط للمصورات.

من لارنكا إلى موسكو :

قامت الطائرة من مطار (لارنكا) قاصدة موسكو في الساعة الخامسة والنصف عصراً واعلنت مضيفة جديدة فيها ان المسافة إلى موسكو هي الفان وتسعمائة كيلو متر ستقطعها الطائرة في ثلاث ساعات ونصف.

وكان الإعلان هذه المرة بالروسية بعدها الانكليزية.

أما الضيافة فكانت صحنا صغيراً من السلطة وآخر فيه بعض الخضرات المطبوخة وقليل من البطارخ وهو الكافيار الروسي الشهير الذي هو بيض سمك خاص يوجد في بحر قزوين وصحن آخر فيه لحم بقري غير طازج وقليل من الأرز ثم الجبن والفاكهة التي اخذوها من قبرص.

واما الشراب فإنه الماء المعدني وعصير الليمون وليس عندهم عصير برتقال كما أخبرونا.

وكانت الطائرة قد ارتفعت حتى لم نعد نميز وجه الأرض تمييزا واضحاً الا أننا مررنا بجبال تجلل هاماتها الثلوج.

ودخلت حمام الطائرة الذي هو خاص للدرجة الأولى فوجدته في مستوى الحمام في بيت الفلاح الجيد او الحضري الفقير فالحوض من المعدن غير اللامع والمرحاض خشن نوعا ما والورق قاسي الملمس، وهناك فوطه معلقة، بجانب الحوض ليمسح فيها الركاب أيديهم بصورة جماعية اي كل من دخل الحمام مسح يده فيها، وليست هناك مناديل ورقية منفردة كما يكون عليه الأمر في الطائرات العالمية التي تكون فيها تلك المناديل حتى في حمامات الدرجة السياحية.

كما أن المضيفة لم تقدم لركاب الدرجة الأولى المناديل المعطرة الحارة التي صارت تقدم لركاب الدرجة الأولى وفي بعض البلدان مثل البرازيل

تقدم حتى لركاب الدرجة السياحية ثم قدمت المضيفة هدية ركاب الدرجة الأولى وهي تحفة من الفخار في حجم البيضة ولم تكن قدمت شيئاً فيما بين عمان وقبرص.

ثم أعلنت المضيفة أن درجة الحرارة في موسكو الآن هي صفر مئوى وأعادت ذلك لأجل أن يأخذ الركاب أهبتهم للبرد.

كما أعلنت أن الوصول إلى موسكو سيكون في التاسعة والدقيقة الخامسة والثلاثين بتوقيت موسكو الصيفي الذي بدأ في شهر ابريل الحالي وهو يتقدم ساعة واحدة عن توقيت المملكة الذي هو التوقيت الصيفي في الأردن.

في مطار موسكو:

كان قد خيم ظلام دامس على الأرض لسبب حلول الظلام وبسبب آخر وهو كثافة السحب فقد اعلنت المضيفة ان الجو في موسكو غائم وماطر.

ولذلك لم نتبين قبل الوصول إل المنطقة من معالمها شيئاً ماعدا انواراً يظهر أنها تجمعات سكنية او قرى وهى لا تدل بمجموعها على الرفاه أو السخاء في الإنارة وهى خارج المدينة.

ثم هبطت الطائرة في المطار واسمه مطار شرميتوفو الثاني وذلك في الساعة الثامنة والدقيقة الثانية والثلاثين بتوقيت الأردن و يوافق التاسعة والدقيقة الثانية والثلاثين بالتوقيت الصيفي لمدينة موسكو بعد طيران استمر ثلاث ساعات و بضع دقائق.

وأعلنت المضيفة أيضاً بعد النزول أن درجة الحرارة في موسكو هى صفر مئوى وهي درجة متدنية بالنسبة لما اعتدنا عليه في الأردن التي كان الجو فيها ربيعيا معتدلا و بالنسبة إلى المملكة التي كان الجو فيها حاراً.

ولم يكن يبين من المطار في هذه الساعة من الليل الا مايبعده عن الفخامة وماقد يتنافى مع ما في ذهن القادم الذي يعرف انه قادم إلى عاصمة دولة عظمى ويظن أن مطارها يكون في مستوى الدولة من العظمة والقوة فحتى الأنوار تبدو متواضعة في أي إتجاه وجه الناظر نظره إليه.

ومن المريح ان الطائرة قد ألقمت باب دهليز متحرك او لنقل كمًّا متحركاً فاعفانا ذلك من التعرض لهذه الدرجة الشديدة من البرودة.

وعند باب الدهليز ممايلي المطار وجدنا عدداً من المستقبلين المرحبين منهم الدكتور شمس الدين ضياءالدين بابا خانوف مدير الادارة الدينية لآسيا الوسطى وقزاقستان ورئيس مكتب العلاقات الخارجية للادارات الدينية والشيخ طلعت تاج الدين مدير الادارة الدينية للقسم الأوروبي وسيبيريا والحاج عبدالغني عبدالله نائب رئيس الادارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان والحاج محمد صادق محمد يوسف نائب مدير معهد الامام البخارى والحاج عبدالعزيز فتاح نائب رئيس مكتب العلاقات الخارجية للادارات الدينية الإسلامية والسيد شامل قادر غول المستشار الأول في مكتب العلاقات الخارجية للادارات الدينية ورجل روسي يعرف العربية كان اكثر مايتحرك من جسمه عيناه فهو صامت. قدمه لنا الدكتور شمس الدين على أنه السيد فلان أناتولي دوب كوف مدير قسم العلاقات الخارجية في مجلس الأديان التابع لمجلس الوزراء السوفيتي.

وقد انتقلنا إلى داخل المطار عبر سلم معتاد يكون في العادة في امثال هذا المطار كهربائياً متحركاً.

ثم قادنا إلى قاعة كبار الزوار في المطار وهى كبيرة تتناسب مع حجم هذا المطار الدولي وجدنا فيها غيرنا وكنا نتحدث العربية مع مستقبلينا الذين كلهم يفهم العربية. فنقلونا إلى غرفة خاصة من غرف كبار الزوار.

وعند مدخل الغرفة كان هناك عدد من الاخوة المسلمين العاملين في

الادارات الدينية فجلسنا معهم جلسة طيبة بينما كان الموظفون يسعون في تخليص الجوازات والأمتعة وهي كثيرة تضمنت غير الأمتعة الشخصية طروداً بلغ عددها ثمانية وعشرين طرداً دفعنا لحملها على الطائرة السوفيتية في عمان أربعة الآف دولار أمريكي بمثابة الأمتعة الزائدة وتتضمن مصاحف مذهبة فاخرة الطباعة طبعت في المدينة المنورة وسجاجيد للصلاة وساعات للهدايا وتمراً من تمر المدينة المنورة للاهداء منه ايضا. وكذلك عباءات عربية خفيفة (مشالح) مقصبة.

وجاءت مضيفة أرضية بالقهوة ثم الشاي.



الاستراحة في مطار موسكو عقب الوصول مباشرة

ولم نشعر بالبرد في المطار لأنه مدفأ وكان المطر ينزل والبرق يلمع وقال لنا إخواننا من باب المجاملة لقد اتيتم بالربيع معكم: فقلنا لهم: أين الربيع ودرجة الحرارة هي صفر؟ فأجابوا إنها كانت قبل ذلك أدنى من الصفر ولكن ذلك ليس بالمهم وإنما المهم أن المطر الذي يأتي مع البرق والرعد هو مبشر بقدوم الربيع لأن المطر في الشتاء ينزل ثلجاً في أكثر الأحيان وإذا نزل مطراً فإنه لايكون معه برق ورعد الا إذا دخل فصل الربيع أو قرب حلوله.

في مدينة موسكو :

بعد قضاء فترة في قاعة كبار الزوار جاء من أخبرنا بأن كل شئ قد انتهى وان أمتعتنا الكثيرة قد جرى شحنها إلى الفندق غادرنا القاعة نازلين على سلم آخر مرتفع وليس آلياً أيضاً.

وجدنا السيارات أمامنا وقد خصصوا لي سيارة رسمية سوداء اللون طويلة تخصص عادة لرؤساء الجمهوريات عندهم وتقدم للضيوف الكبار من الوزراء ومن في حكمهم في العادة كما اخبرني اخواني به.

كما خصصوا للاخوة أعضاء الوفد سيارة معتادة لكل اثنين منهم ومعهم واحد من المرافقين وركب معي الشيخان شمس الدين بابا خانوف وطلعت تاج الدين.

و يبعد المطار عن الفندق الذي نقصده مسافة ثلاثين كيلو متراً وهو مطار واحد من ثلاثة مطارات في موسكو بعضها مخصص للطيران الداخلي وهذا الذي هبطنا فيه هو المطار الدولي.

وصل موكب السيارات إلى شوارع موسكو بسرعة لأن العمارة تكاد تلحق بالمطار وليس بينها وبينه كبير فراغ.

ورأيت في الشوارع أعداداً من السيارات لم أكن أظن وجودها في هذه الساعة من الليل وان كانت قليلة بل أقل من القليلة في مقياس العواصم الكبرى غير أنها في دولة شيوعية لا تتيح لشعبها التمتع بالكماليات بل كثير من الضروريات في سبيل أن توفر ذلك لما يكسبها القوة والمتعة أو لمجرد أن نظامها الشيوعي لايسمح بذلك هى كثيرة لاسيما إذا قارنتها في ذهني بالسيارات التي تكون عادة قليلة في مدن الصين الشيوعية.

ومررنا بمناقع من ماء المطر في بعض الشوارع ومنها واحد تجنبه الموكب ليتفاداه وكان المطر لازال ينزل رذاذاً متقطعاً.

أنزلونا في فندق (سوفيتيكايا) ومعناها السوفيتي فكايا هى كياء النسبة في العربية و يقع في شارع (لينين قراد) على بعد كيلو متر واحد من الساحة الحمراء الشهيرة.

وهو اشبه بالقصر العظيم من قصور الأمراء القدماء إذ هو عالي الأسقف واسع الممرات رحب الأبهاء كبير الغرف وقد ظننت انه كان قصراً من قصور النبلاء في القديم غير أنني عرفت بعد ذلك انه كان قد بني قبل الشيوعية بزمن ليكون فندقاً فخماً ينزل فيه الوجهاء والأثرياء وأصبح بعد الثورة أحسن فندق في موسكو واخبروني ان (ستالين) طاغية روسيا السابق كان ينزل فيه ضيوفه. وانزلوني في جناح تألف من غرفة للنوم وغرفة للطعام تفصله عنها قاعة للجلوس وفيه حمامان وعدد من الخزائن.

ولما قلت لهم : ان هذا الجناح هو أكبر مما احتاجه وكان في ذهني مالم أقله لهم عن ضيق المساكن في موسكو قال لي الاخوة في الادارات الدينية: أنت رئيس الوفد ولن تقيم فيه أكثر من ليلة واحد.

كما انزلوا الاخوة كل واحد في غرفة واسعة.

ووجدتهم وضعوا على مائدة الأكل بعض المأكولات الخفيفة التي لم نكن بحاجة إليها لأننا كنا قد تعشينا في الطائرة فيها اللبن المخيض المنزوع الزبدة وزجاجة من شراب البرتقال وماء معدنى وفاكهة أهم مافيها التفاح الذي تنتجه بلادهم وبرتقال مستورد وجبن وخبز. وقالوا: وضعنا هذا لأن المطعم قد أغلق. وكنا وصلنا الفندق في الحادية عشرة.

وقد ودعنا الاخوة المستقبلون على موعد اللقاء غداً في التاسعة من أجل تناول الفطور والبحث في برنامج الزيارة وسيكون ذلك ــ كما قالواــ في مكتب العلاقات الخارجية للادارات الدينية.

وقد تجولت في هذا الجناح بعد خروجهم فاسترعى انتباهي ان التلفاز الذي فيه وهو كبير الحجم كان خالياً من أي برنامج وذلك بعد الساعة

الثانية عشرة بقليل كما كان فيه جهاز للاستقبال (راديو) كبير من الذي كنا نعرفه قبل ربع قرن ونسيناه.

وفي احد الحمامين الموجودين فيها مرآة على الباب في الداخل إذا اغلقت الباب انعكست صورتك على المرآة المعتادة الموجودة فوق مغسلة الأيدي فرأيت فيها قفاك بسهولة وأما الأثاث فان كل شئ فيه ينطق بالقدم والمحافظة على التقاليد ولكنه لاينطق بالذوق المترف الذي يتسم به الأثاث القديم في فرنسا مثلاً.

وشئ آخر وهو عدم الإسراف او لنقل الاقتصاد في كل شئ فمثلاً يوجد في الغرفة سريران ولكن كل واحد منهما ضيق اي لاعراض له كافيا وما أذكر أنني رأيت مثله في الضيق في فندق من فنادق الدرجة الثانية في بلدان الحرية الاقتصادية ولقد اشفقت من ضيقه بي وعجبت من وجوده هكذا مع أن القوم تغلب الضخامة والعرض على اجسامهم بالنسبة إلى جسمي.

وأما الغطاء فإنه بطانية صوفية غليظة قد وضعوها في غلاف من القماش الأبيض النظيف وجعلوا فيما يلي جسم النائم منه فتحة يطل منها وسط البطانية يدخل منها النائم رجليه حتى يثبت عليه غطاؤه الذي هو ضيق أيضاً وثقيل بحيث اذا لم يفعل ذلك فإنه يتزلق عنه مع ضيق السرير وإذا حدث ذلك في شتاء هذه البلاد الباردة كان الضرر مؤكداً واما أرض الغرفة فإنها مفروشة بشيء رديء من السجاد الموحد (الموكيت) فوق أرض خشبية كاملة وقد وضعوا في غرفة الجلوس وفيما بين السريرين سجادا صغيراً.

وتقع الغرفة في الطابق الثاني وفيه كما في كل طابق امرأة جالسة مسئولة عنه عندما احضرنا لها ورقة النزول من موظفة الاستقبال في الفندق طبعتها بختم عندها واعطتنا المفتاح.

وهي لاتعرف الانكليزية بل لاتعرف منها شيئاً وهذا أمر شائع بل هو القاعدة عندهم ان يكون الموظفون في هذه الفنادق التي ينزلها الاجانب

لايعرفون الانكليزية كما تكرر ذلك فيما بعد.

وقد وضعت المرأة وهي الوحيدة من العاملات في الفندق اللاتي رأيتهن في هذه الليلة في سن الشباب اما الأخريات فكلهن من الشيخات الشقيلات وضعت هذه المرأة أرقام الغرف في لوحة صغيرة على مكتبها فإذا جاءها النزيل أشارت إلى هذه اللوحة طالبة بالاشارة ايضاً أن يضع أصبعه على رقم غرفته فتعطيه مفتاحها.

يوم الأربعاء ٧ رجب ١٤٠٦هـ ١٦ ابريل ١٩٨٦م

صحوت مبكراً ورأيت الأفق مسفراً قبل ان تطلع الشمس بوقت طويل وذلك شأن البلدان الشمالية في الربيع والصيف.

وأزحت ستارة النافذة في السابعة والنصف على جو غائم فكان المشهد لأرصفة الشارع غير البهيجة، ولطائفة من الناس يسيرون مسرعين إلى اعمالهم يحملهم على السرعة شدة البرد وأحمال الثياب التي يرتدونها ويريدون التخلص منها عندما يدخلون الأبنية ولم استطع أن أتبين وجوههم لأن كل واحد منهم يضع على رأسه غطاء كثيفا ويلف حول رقبته (لفاعاً) وهو المنديل الصوفي غير العريض الذي يلف حول العنق للوقاية من البرد.

وأمام النافذة ميدان صغير تقف فيه عدة سيارات مطلية بألوان متعددة ليس منها اللون الأحمر الذي هو اللون المفضل للشيوعية بل بعضها صفراء وخضراء وكلها صغيرة تشبه الفيات الايطالية.

بل هي الفيات في الأصل صنعها الروس في بلادهم.

وأما الاسفلت في هذا الميدان وفي الشارع فانه معتاد بمعنى أنه غير جيد ولا رديء والأرصفة عريضة وفيها الأشجار المتصلة غير أنها كلها هامدة فلا ترى فيها ورقة خضراء بل هي لم تستيقظ بعد سبات الشتاء العميق الطويل.

وقد قال لي الأخوة من اهل طشقند هذا الصباح ان هذه الأشجار سوف تورق بعد أسبوعين وهذا بالضبط ماكان قد قاله إخوان لهم في أرض شقيقة لهم تركستان الشرقية عندما كنت فيها في منتصف أبريل قبل سنتين اى في مثل هذا الوقت بالضبط وكنت رأيت الأشجار التي في عاصمتها (اورمسي) كلها هامدة كهذه كأنها لاترجو نشوراً: إن هذه الأشجار سوف تورق بعد اسبوعين اي في آخر أيام ابريل. وحدث ذلك بالضبط وان كانت عاقته عن الاسراع في الاخضرار عاصفة ثلجية هبت على المدينة ونحن فيها من تلقاء سيبيريا.

ومن بين الأشياء الملفتة للنظر من النافذة منظر جندي حاد النظرات منتظم الخطوات لايفتأ يتردد في الشارع أمام باب الفندق ولايقف أو يكف عن الحركة مطلقا.

مقر مكتب العلاقات الخارجية :

والمراد به هنا مقر العلاقات الخارجية للادارات الدينية الأربع في الاتحاد السوفيتي وليس مقر العلاقات الخارجية للدولة.

والادارات الدينية في الاتحاد السوفيتي تمول نفسها من تبرعات المسلمين، ولاتساعدها الحكومة السوفيتية بل العكس هو الصحيح فهى تساعد المجلس السوفيتي للسلام والصداقة بما يفيض لديها من نقود لابد من ان تودعها في حسابها في المصارف وكل ذلك من تبرعات المسلمين وصدقائهم حتى نفقات استقبال الضيوف الأجانب مثلنا كلها تكون بنفقة المسلمين.

عندما نزلنا إلى قاعة الاستقبال الواسعة في الفندق استرعى انتباهي في هذا الصباح ما كنت لاحظته بالأمس وهو ان الفراشات اللآئي يعملن في الفندق هى من الروسيات الثقيلات الأجسام حتى لاحظت أن واحدة منهن

مسنة كانت لا تكاد تحمل نفسها ولا تستيطع ان تقف وقوفا منتظما وهي تجاهد في أن تؤدي عملها في التنظيف.

ذهب الموكب إلى مكتب العلاقات الخارجية فاستقبلنا فيه الدكتور شمس الدين بابا خانوف وكانت مائدة الافطار جاهزة وقد ملئت بمالذ وطاب من الأكل وكان فيه نوعان من البطارخ وهو الكافيار الروسي الشهير الأسود اللون الذي يبيضه سمك موجود في بحر قزوين ونوع آخر أحمر من بيض سمك السلمون وفيها من المآكل الباردة المقدمات للمائدة لسان البقر وسمك صغار كالسردين ثم ماشئت بعده من إفطار جيد مرجعه الى انه من مال المنظمات الاسلامية التي تجمعها الإدارات الدينية الأربع حيث يوجد في هذا المكتب ممثل لكل ادارة من الادارات الدينية الأربع، ورئاسة هذا المكتب دورية بين الإدارات الدينية المذكورة.



طعام الإفطار في مكتب العلاقات الخارجية للادارات الدينية في موسكو

وحتى القاعة التي جرى فيها الإفطار قد زخرفت وزينت باشكال هندسية اسلامية عريقة مستوحاة من النقش والزخرفة العريقة في البلدان الإسلامية في تركستان الغربية التي لا تكاد تسمع من يذكر لك عن اسمها

هذا شيئاً فهم اما ان يسموها وسط آسيا السوفيتية أو يسمونها بأسماء الجمهوريات التي قسموهم اليها حسب أعراق القوم اولغاتهم.

وحتى الذين هم من اصول واحدة ولغاتهم ترجع إلى لغة واحدة كالتركستانيين الذين هم من الاتراك جاؤا إلى تلك البلاد في منطقة بخارى وما والاها شمالاً وغرباً واختلطوا بأبناء عمومة لهم كانوا قدموا إليها قبلهم فان الحاكمين قسموهم إلى أقسام من أجل تفتيت روح الوحدة لديهم ولابقاء الانقسام بل ترسيخه وتعميقه في نفوسهم.

وفي هذه القاعة ركن من الفسيفساء الجميلة المعروفة في منطقة بخارى وسجاد فاخر كتبت عليه آيات قرانية كريمة ونسج من أجل تعليقه هنا. وحتى سقف القاعة زين بالنقوش المعروفة عند المسلمين في تلك البلاد اي منطقة بخارى من أيام مجدها وعزها ويقع المقر المذكور في وسط مدينة موسكو وقد بني في زمن الغزو الفرنسي لروسيا الذي قام به نابليون وقد استأجروه من الدولة.

وخلال تناول الطعام وكانت الساعة قد بلغت التاسعة والنصف جرى النقاش في برنامج الزيارة فوجدنا القوم قد وضعوه قبل وصولنا وقالوا لنا بأدب: إن هذا هو ما وضعناه ويمكنكم أن تراجعوه اذا أردتم.

وقد حمدنا لهم كونهم أجلوا البقاء في العاصمة موسكو إلى آخر الزيارة كلها لأن ذلك سوف يعفينا من البقاء في هذا الجو الشديد البرد وقرروا السفر إلى طشقند عاصمة جمهورية أوزبكستان بعد قليل.

ووجدناهم قد حملوا امتعتنا الثقيلة معنا الاّ شيئاً قليلا كنا خصصناه للمسلمين في بولندا من المصاحف والهدايا الأخرى.

وقد أبدينا لهم تخوفنا من أن تطلب الشركة نقوداً باهظة على حمله فأجابوا ان ذلك غير مشكل لأن كل شئ مرتب ومهيأ لتتحمله الادارات

الدينية حتى تذاكر سفر الوفد في جولته داخل الإتحاد السوفيتي.

ثم غادر الموكب مكتب العلاقات الخارجية قاصداً مطاراً آخر من مطارات موسكو داخلياً غير المطار الدولي الذي هبطنا فيه البارحة واسمه (مطار داما يتوفو) وهو مخصص للرحلات الداخلية واخترق شوارع من مدينة موسكو تغلب عليها السعة والاقتصاد في المظهر وتسير فيها عربات الترمواي بكثرة كما تسير فيها سيارات رسمية سود وأخرى خاصة لسائر الناس مختلفة الألوان وهي أكثر من السيارات التي رأيتها في مدن الصين الشيوعية ولكنها اقل من السيارات التي تسير في شوارع مدينة بريدة مركز منطقة القصيم في المملكة بمعنى انك إذا رأيت شارعا من شوارع موسكو طوله نصف ميل مثلاً فإن عدد السيارات فيه تقل بكثير عن عدد السيارات التي توجد في شارع مماثل له في الطول في مدينة بريدة في مثل هذا الوقت.

ولا شك في أن السبب في ذلك هو الحرية الاقتصادية غير المحدودة التي تتمتع بها بلادنا والحرية المفقودة هنا.

إلا ان الذي يجيب على تساؤلات المرء عن العدد الضخم من الملايين الذين تكتظ بهم موسكو وتبلغ ثمانية ملايين كيف يتنقلون داخلها. هو انهم يحرصون على ان يكون مكان عمل المرء قرب منزله لأن المساكن في المدن مملوكة للدولة ثم إن هناك وسائل النقل العامة من قطارات كهربائية تسير تحت الأرض وسيارات كهربائية (ترولي باص) تسير فوقها والحافلات الكثيرة التي تجوب الشوارع.

ومع أن مطار موسكو الدولي ليس من الفخامة بالمكانة المنتظرة لمطار دولي في دولة عظمى بل هى أعظم دولة في الدنيا بعد الولايات الأمريكية او هي معها كذلك وليست بعدها فإن هذا المطار دونه في مرافقه وأبنيته بكثير بل إنه لايكاد يختلف في ذلك عن مطارات الدول المتخلفة فالأثاث فيه من المقاعد هو خشبي عتيق والأرض خشنة غير مفروشة اي أرض قاعة الترحيل فيه وحتى الآلات والمعدات فيه كأثاث المكاتب هي قديمة أيضاً.

وأما الركاب فيه فإنهم الأوروبيون الأصلاء لم يختلف عن الأوروبيين منهم الا القليل الذين هم من اصل اوزيكى او بخاري كما نعبر عنه في بلادنا.

ذلك بأن المسافرين في هذا المكان هم من السياح الأوروبيين الذين يذهبون بكثرة لزيارة مواطن المسلمين في الاتحاد السوفيتي لأنها التي يجدون فيها مايشد انتباههم وما يختلف عما الفوه في بلادهم ومع السياح بعض الروس والاكرانيين والروس البيض من السوفيت الذين يعيشون في القسم الأوربى من البلاد و يعملون في مناطق المسلمين في وظائف مختلفة.

وأما نحن فإننا كلنا نلبس الثياب العربية الكاملة وذلك لكون زيارتنا رسمية.

المرافقون :

وأذكر أن عدد المرافقين لنا في طول الرحلة وكان يزيد على العشرة منهم خمسة من العاملين في وسائل الاعلام مابين تلفزة وصحافة واذاعة كما أخبرونا وكلهم من الروس غير المسلمين.

ومعنا أيضاً جماعة من الاخوة المسلمين العاملين في الادارات الدينية في البلاد على رأسهم الشيخ المفتي طلعت تاج الدين رئيس الادارة الدينية للقسم الأوروبي وسيبريا وهو من البلغار الذين أسماهم بالتتار ولايعرفون الآن الا بهذا الاسم والجزء الأساسي من بلادهم في الاتحاد السوفيتي يسمى (تتارستان) اي : بلاد التتار عاصمته مدينة قازان.

وكانت صحبته مفيدة لنا في طول الرحلة داخل الاتحاد السوفيتي لما يتمتع به من رحابة صدر واطلاع على شئون المسلمين وعدم الضيق بأسئلتنا الفضولية واستفساراتنا الكثيرة كما كان معنا في الرحلة إلى بخارى وبلاد ماوراء النهر الشيخ الدكتور/ شمس الدين ضياء الدين بابا خانوف وتوقف عن مرافقتنا عند ماغادرنا مدينة سمرقند.

ومعنا أيضاً ممن أكملوا الرحلة الشيخ محمد صادق بن محمد يوسف وقد نفعنا كثيرا في الترجمة من الازبكية إلى العربية وبالعكس كلما احتجنا إلى ذلك وهو نائب مدير معهد الامام البخاري في طشقند ويعرف العربية جيداً والشيخ عبدالعزيز فتاح وهو نائب رئيس العلاقات الخارجية للادارات الدينية أي نائب الدكتور شمس الدين بابا خانوف أيضا ولكنه لايعرف العربية والشيخ عبدالغنى عبدالله نائب رئيس الادارة الدينية في وسط آسيا وقازاقستان وقد تخلف عنا في هذه الرحلة لكونه لم يجد مكانا في الطائرة وغيرهم.

من موسكو إلى طشقند :

حان موعد الصعود إلى الطائرة بسرعة اذْ كان الاخوة واثقين من ان الطائرة ستنتظرنا لكوننا ضيوفاً رسميين ولذلك جئنا قبل موعد إقلاعها بوقت قصير.

وعند اجتياز تفتيش الحقائب اليدوية من أجل الأمن وكان يقوم به كله نساء من الروسيات عليهن ضابطة كبيرة جرت مراجعة بين مرافقينا وبينها فأبت الا فتح حقائبنا للتفتيش غير أنهم راجعوا ضابطاً كبيراً استمر وهو يحاول اقناعها فترة حتى سمحت بعدم التفتيش وأمرت المفتشات لديها بعدم فتح الحقائب مع العلم بأن هناك جهازاً للكشف الكهربائي ولكنهن لم يكتفين به.

ولاحظنا ان السفر من جمهورية إلى اخرى داخل الاتحاد السوفيتي لابد فيه من حمل الجوازات او بطاقات تحقيق الشخصية وكأنه السفر من بلد صديق إلى صديق آخر لامن جزء من بلاد إلى جزء آخر منها، وذلك كله من أجل المحافظة على الأمن، وضبط الأمور داخل البلاد وهو الأمر الذي يسير بصرامة تامة في الاتحاد السوفيتي كما هو معروف.

وعندنا وصلنا الطائرة كان الركاب قد صعدوا إليها كلهم وهي ضخمة

كأنها القلعة وهى جاثمة على الأرض وتفوق ضخامة البوينج ٧٤٧ (الجامبو) وكنا نرتدي الملابس الرسمية وقد حجزوا مقاعدنا في وسط الطائرة والبابان المفتوحان أحدهما في الأمام والآخر في الخلف لذلك فتحوا لنا بابا خاصا في وسط الطائرة فيه سلم صغير ينزل إلى الأرض كهربائياً.

فصعدنا إلى الطائرة حيث كنا في المنطقة المخصصة لنا في الطائرة التي ليس فيها درجة أولى بل كلها درجة واحدة ولا اقول سياحية فهى لا تصل إلى الدرجة السياحية في الطائرات الحديثة من حيث التنجيد والخدمة وان كان ذلك لايصل إلى درجة الرداءة مثلا وجلس في الطائرة عن يميني الشيخ طلعت تاج الدين وعن يساري الدكتور شمس الدين بابا خانوف وتوزع الرفاق على مقاعد ومعهم المرافقون الذين جلهم يعرف العربية و يتحدث بها معنا.

الطائرة من طراز ليوشن٨٦ وتحمل ثلثمائة وخمسين راكباً والذي استرعى انتباهي فيها ارتفاع سقف القاعة الرئيسية التي فيها المقاعد فيها حتى يساوى ارتفاع قصر من قصور النبلاء القدماء مع مايكلفه ذلك من نفقة في الوقود نتيجة لزيادة احتكاك الطائرة بالهواء ومقاومته لانسيابها الا بزيادة في المحركات واستهلاك الوقود فلو قلت ان ارتفاعها يصل إلى تسعة أمتار أو ثمانية كما رأيناه من الداخل لما أبعدت عن الحقيقة.

وقد شغلت جميع مقاعدها البالغ عددها ثلثمائة وخمسين بالركاب مع أنها ليست الرحلة الأولى إلى طشقند ولن تكون الأخيرة في هذا اليوم.

وذلك لبعد المنطقة وصعوبة الانتقال إليها بالقطار أو بالسيارات وإن كانت القطارات موجودة فإنها تستغرق يومين وثلاث ليال إضافة إلى رخص أجور السفر بالطائرات داخل الاتحاد السوفيتي بالنسبة إلى مستوى الرواتب ولذلك يقبل عليها الناس بخلاف ما رأيت الحال عليه في الصين الشعبية حيث الدخول متدنية وأجور الطائرات عالية بالنسبة إلى مستوى الرواتب فيها

وان لم تكن أغلى منها في البلدان المتمتعة بالحرية الاقتصادية.

اين أنتم أيها المقلدون؟

اول ما لفت نظري في الطائرة علامة منع التدخين فيها كلها ولما استغربت ذلك وسألت الاخوة المرافقين وهم من المشايخ عن ذلك اجابوا بأن التدخين ممنوع في جميع الطائرات السوفيتية في الرحلات الداخلية ولايسمح بالتدخين بأية حال من الأحوال على الطائرات التي تسافر من مكان إلى آخر داخل البلاد حتى في الرحلات التي تستغرق ست ساعات من اقصى الجنوب الشرقي إلى اقصى الشمال الغربي للبلاد، هذه واحدة.

والثانية ان الطائرة عند ما استقرت في الجو جاءت المضيفات بأكواب صغيرة من اللدائن تشبه الأكواب الفخارية في بعضها ماء وفي بعضها عصير من عصير العنب شككت فيه فسألت الشيخين اللذين بجانبي عما إذا كان خالياً من الكحول فضحكا وقالا ان الخمرة محرمة أيضاً في جميع الرحلات الداخلية ولايسمح بتناولها حتى ولو احضرها الراكب بنفسه.

واذا حدث وتجاسر أحد على حملها إلى الطائرة وشربها فيها فإنه يعاقب وقد يحرم من ركوب الطائرات فترة من الوقت.

هذا مع العلم بأن الرحلة طويلة تبلغ مسافتها الفين وتسعمائة وثلاثين كيلو مترا وتستغرق من الوقت ثلاث ساعات واربعين دقيقة كما اعلنت المضيفة ذلك بالروسية وفسره لنا الاخوان المرافقون مع العلم بأن الاعلان هو بالروسية وحدها وليس معها مثلا لغة المنطقة التي تتجه إليها الطائرة وهي الأزبكية وفي الركاب من المواطنين من هم من أهلها. ولا بالانكليزية التي يفهمها اكثر السياح الذين يشغلون حيزاً لابأس به من مقاعد الطائرة.

وبعد الا تظن بل تتيقن انه لو منع التدخين والخمر على طائرات بعض الدول التي يقطنها المسلمون ولاتستطيع ان تقول انها دول إسلامية فإن

الأصوات سوف ترتفع بالاحتجاج والنكير، بل ربما ترمي من قرر المنع بأنه من المتزمتين الذين حملهم الهوس الديني على اتخاذ هذا القرار؟

مع العلم بأنه قرار في مصلحة الجميع لأن التدخين مضر من الناحية الصحية حتى لمن يكونون قرب المدخن واما الخمر فيكفي فيه انه محرم في الإسلام وان تحريمه معروف من الدين بالضرورة. ولاشك في أنهم إذا سمعوا هذا أو عرفوه فإنهم سيخففون من رمي من يقرر منع ذلك في الطائرات بالتشدد الديني ان لم يقولوا بالهوس الديني مع أن الذين حرموها هنا هم قوم ملحدون لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولكنهم حرموها في الطائرات بدافع المصلحة العامة للوطن والمواطنين.

وذلك جزء من محاربة السوفيت لتناول الخمر لما لاحظوه من ضررها البالغ على الانسان وجلب الأمراض، وتعطيل المصالح والنقص في أداء الأعمال.

وقد يأتي الكلام في اجراءاتهم الأخرى التي حاولوا بها محاربة تفشي الإكثار من شرب الخمر والادمان عليها في بلادهم وهى إجراءات عديدة.

ومثل ذلك محاولة الحد بل منع شرب الدخان في المحلات العامة ومنها القطارات والدوائر الحكومية والمحلات العامة. وبهذه المناسبة سألت الشيخ طلعت تاج الدين عن التدخين إذا مارسه رجل الدين هنا فقال: ان أهل العلم أو رجال الدين لايستساغ منهم التدخين واذا عرف ان إماما من ائمة المساجد أو مفتيا من المفتين شرب الدخان علنا كان ذلك مما ينقص من قدره.

كان قيام الطائرة في الساعة الثانية عشرة والنصف بالتوقيت الصيفي لموسكو وهو يتقدم ساعة واحدة عن توقيت المملكة العربية السعودية كما يتقدم ثلاث ساعات عن توقيت طشقند التي سنسافر إليها وعلى هذا يكون فرق التوقيت مابين بلادنا وطشقند أربع ساعات.

وقد امتلأت جميع مقاعدها بالركاب حتى ان احد المشايخ كان من المقرر أن يسافر معنا وهو الشيخ عبدالغني عبدالله نائب رئيس الادارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان لم يجد مقعداً في الطائرة وتخلف عنا للسفر مع الرحلة التالية بعد هذه.

من الملفت للنظر في هذه الطائرة السوفيتية الضخمة التي تعادل طائرة الجامبو العملاقة بوينج ٧٤٧ من حيث عدد الركاب انها عالية السقف جدًّا.

ولذلك يشعر من يكون راكباً فيها وكأنه يجلس بالفعل في قاعة ضخمة للاجتماعات إضافة إلى وجود طابق سفلي صغير فيها.

لقد ركبت بين الشيخين الفاضلين الدكتور شمس الدين بابا خانوف والشيخ طلعت تاج الدين مما أتاح لي الحصول على ثروة ضخمة من المعلومات التي أثارتها استفساراتي من الأخوين العالمين وان كانت بعض الأسئلة محرجة جداً لهما بحكم وجودهما في بلاد ذات نظام طبيعته القهر والكبت أو لنقل اذا أردنا التلطيف في العبارة ان طبيعته هي عدم قبول الاختلاف في النظر مع الحكومة حتى في الناحية النظرية وهي مجرد الكلام فلا يسيغ ان ينتقد مواطن من مواطني الاتحاد السوفيتي سياسة حكومته امام رجل أجنبي ولذلك لايحدث ذلك الا اذا كان سراً وبعد أن يشعر المواطن السوفيتي أن ذلك الأجنبي ممن يحتفظون بالسر في بيان مشاعر المواطن السوفيت سواء في خلال إقامته في الاتحاد السوفيتي او بعد مغادرته.

مع انني لم أكن أطلب من الأخوين أن ينتقدا حكومتها عندي وإن كانت الاجابة في بعض الاحيان تتحاشى ذلك وقد تتحاشى معها الخوض في الحقيقة منعا لذلك.

بعد أربعين دقيقة من الطيران جاء المضيفات وبعضهن واضح من مظهرهن أنهن من بنات المسلمين فلسن بدوات المظهر الروسي المتميز وهى

يحملن اقداحاً صغيرة من اللدائن (البلاستك) في بعضها ماء معدني وفي الأخرى عصير عنب.

عندما سألت الشيخين عما اذا كان هذا العصير لايخشى ان يكون فيه كحول قالوا: إنه لامجال لذلك لأن الحكومة قد حرمت تناول المسكرات في الطائرات كما تقدم.

ثم أعلنوا من مكبر الطائرة انه سيقدمون الغداء للركاب وهو أمر يستحق التنويه في هذه الرحلة لطولها ولأن أغلب الرحلات الداخلية في الطائرات السوفيتية لايقدم فيها طعام اصلاً ثم جئن بالأكل في صحن من اللدائن فوقه صحن رئيسي فيه فخذ دجاجة وقطعة من الخبز وآخر فيه جبن اصفر وخبز اسمر و بعد ذلك شاي والختام كان كوبا صغيراً من الشراب الذي يخيرونك فيه من الماء المعدني أو عصير عنب.

وقد دخلت حمام الطائرة فوجدته لايبعد كثيراً عن حمام الدرجة الأولى في الطائرة السوفيتية التي قدمنا عليها من عمان إلى موسكو والمظهر العام فيه البعد عن الترف او الكماليات حتى الأحواض من المعدن غير اللامع وليس هناك مناديل من الورق تمسح بها الايدى او الوجوه.

أوف تعني ابن :

كثيرا مايعجب الغريب عند ماتقرع سمعه الاسماء هنا في هذه البلاد سواء كانت روسية خالصة مثل اسم رئيس الاتحاد السوفيتي الحالي ميخائيل جورباتشوف وقبله خروتشوف ومالنكوف لأول وهلة أو حتى اسماء إسلامية فإنهم يضيفون إليها في الآخر لفظة (اف) مثل اسم جارى الدكتور شمس الدين ضياء الدين بابا خانوف واسم احد المرافقين وهو الأخ عبدالعزيز فتاحوف ومساعد الطائرة التي نركبها الآن ذكروا ان اسمه نازاروف.

ولقد سألت عن ذلك في أول وصولي إلى موسكو فأخبروني ان معنى (أوف) هذه هو ابن فمثلاً رئيس الاتحاد السوفيتي او لنقل كما يقولون في وظيفته (الامين العام) للحزب الشيوعي السوفيتي، وهو أهم من رئيس الدولة ورئيس مجلس الوزراء واسمه جورباتشوف معناه ابن (غرباتش) ولقد تبادرت إلى ذهني الكلمة العامية المصرية التي تسمى السوط (كرباج) فقلت: اهو ابن كرباتشوف وهل يصل سلطان الكرباج او السوط في الاتحاد السوفيتي حتى الى أسماء الزعماء؟

واسم الدكتور شمس الدين ضياء الدين باباخانوف اي ابن بابا خان وهكذا.

وعلى ذكر اسم مساعد الطيار ذكروا أن قائد هذه الطائرة الضخمة ومساعده كلاهما من أبناء المسلمين الأزبكيين أحدهما وهو القائد اسمه (نازاروف) أي ابن نازار وربما كانت هي (نزار) العربية الصميمة وقائده (ذاكروف) وهي (ذاكر) العربية الفصيحة من الذكر وان كان بعضهم يبدل ذالها زايا في النطق فتصبح على لسانه: (زاكروف) فهذا موجود حتى في عامية بعض الأقطار العربية.

في مطار طشقند :

قبل الوصول بقليل اعلنت المضيفة ان درجة الحرارة في طشقند ثمان وعشرون درجة مئوية وقالت وهى تعلن ذلك للركاب: فرحباً بكم في طشقند المشمسة.

لاشك في أن للتنويه في درجة الحرارة المعتدلة هذه وبالتنويه بالشمس المشرقة في طشقند مايبرره بالنسبة لهؤلاء الراكبين الذين قدموا من موسكو حيث الجو مظلم ودرجة الحرارة صفر مئوي.

كما نوهت المضيفة بحالة الجو هنا فإنها نوهت أيضا بعراقة المنطقة التاريخية فقالت إنه يمكنكم من طشقند أن تواصلوا سفركم إلى بخارى

وسمرقند ان شئتم.

ان لعبارتها هذه اهمية خاصة بالنسبة لي ربما كان ذلك اكثر من الركاب الآخرين الذين اكتظت بهم هذه الطائرة العملاقة ذلك بأن بخارى وسمرقند كانتا من مراكز الثقافة الإسلامية في العصور القديمة ولقد قرع سمعي اسم كل واحدة منها ووقع نظري أيضاً عليه في الكتب الآف المرات كما كنت قد قرأت الوقائع التي كانتا مسرحاً لها. وتراجم الرجال العظام الذين كانوا قد عاشوا فيها في زمن ازدهار الحضارة العربية الإسلامية في تلك الربوع وهذا ما أضاف شعوراً غريباً في نفسي عند النزول في طشقند إلى الشعور العام الذي هو مزيج من الفرح والأسف والأسف هو لكون هذه المنطقة التي كانت منطقة عامرة بالحضارة الإسلامية قد أجدبت منها بل ان الحضارة الإسلامية قد أسيء إليها حتى أصبحت في عرف بعض المثقفين من أبنائها تدل على التخلف والجمود العقلي محتجين بما كانت وصلت إليه أذهان بعض المسلمين من فهم خاطئ للإسلام حتى أصبحوا يظهرونه بمظهر المقدس للأولياء المتعلق بالقبور والمشاهد.

حطت الطائرة في مطار طشقند في الثالثة الا خمس دقائق بعد الظهر بتوقيت موسكو الصيفي و يوافق السابعة الا خمس دقائق بتوقيت طشقند.



استقبال الوفد في مطار طشقند عند الوصول من موسكو

وقد لزم الركاب مقاعدهم حتى نزلنا نحن الضيوف ومرافقينا من السلم الخاص في وسط الطائرة. ووجدنا في الاستقبال عدداً من الاخوة العاملين في الادارات الدينية منهم الشيخ يوسف شاكر النائب الثاني لرئيس الادارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان.

وعند مدخل بناء المطار كان صفان من الاخوة أئمة المساجد في طشقند وربما في غيرها وبعض المدرسين في معهد الامام البخارى وكلهم يعرف العربية وبعضهم تخرج في البلدان العربية فكان سلام وكانت بعد ذلك جلسة في قاعة كبار الزوار في المطار كان الحديث كله يدور خلالها بالعربية وكأنا الآن في احد البلدان العربية.

وكانت جلسة مفيدة لم يكدرها الاكون القوم يحجمون عن الاجابة على بعض الأسئلة التي كنا نطرحها عفوا عن بعض الأمور المتعلقة بالدين هنا مثل عدد المساجد في طشقند وعما إذا كانت لاتزال توجد مساجد لم تعدها الدولة إلى المسلمين بعد أن كانت قد صادرتها منهم في اول العهد الشيوعي فكنا نكتفي بالاجابة المتيسرة وكان الأخوة المستقبلون يرحبون مبتهجين بقدوم اخوانهم بل زملائهم من طلبة العلم.

بعد الوصول إلى مطار طشقند (مبنى المطار)



وكان رجال التلفزة والصحافة يسجلون كل الحركات والسكنات بالصورة والصوت وقد انضم إلى المرافقين لنا عدد من أهل المهنة المحليين من أهل البلاد.

وتناولنا الاشربة الباردة والساخنة ومنها القهوة والشاي بينما كان بعض الاخوة المرافقين يهيئون لانزال امتعتنا الكبيرة من الطائرة وحملها في سيارة شحن صغيرة وذلك لكثرتها لأنها تحتوى على مصاحف وكتب وهدايا لم يتعرض لها المسئولون عن الجمرك في موسكو.

في مدينة طشقند :

وجدناهم أعدوا موكبا من السيارات للوفد في أوله سيارة رئيس الوفد وهى سوداء رسمية طويلة كالتي ركبت فيها في موسكو وهى التي يركبها الوفود من درجة رئيس وزارة او وزير وتتبعها سيارات أخرى لبقية الأخوة أعضاء الوفد وللمرافقين الآخرين.

سار الموكب وسط جو ربيعي شعرنا بأنه حار لأن قدومنا كان من موسكو الثالجة.

ولم أكد أجد فرقاً بين الجو هنا وبين الجو في مدينة الرياض عندما تركتها قبل اسبوع وهذا خلاف ماكنا توقعناه إذ خشينا من البرد هنا غير أن خشيتنا منه لم تكن في محلها.

فقد كان فصل الربيع قد حل قبل قدومنا بأيام ولذلك رأينا أشجار الطريق التي اخترقها الموكب كلها خضرة بل نضرة حتى الزهور رأيناها في الشوارع والميادين متفتحة كأنما كانت تشارك مستقبلينا من الاخوة المسلمين الكرام واخوانهم الذين سمعوا بقدومنا فرحهم بهذه المناسبة.

بل انها تبدو أنها تشاركنا نحن أعضاء الوفد فرحنا وسرورنا بوصولنا إلى بلاد المسلمين العريقة في الإسلام هذه.

وكانت هناك ريح ربيعية تداعب أوراق الأشجار فتتطاير هذه نشوى كأنما تشارك في الاستقبال.

ولم يطل بنا السير حتى وصلنا فندقا ضخماً اسمه (فندق ازبكستان) وهو مؤلف من ١٦ طابقاً توقف الموكب عنده بعد أن سار خمسة كيلات من المطار.

وكان ما لفت انظارنا في مداخل هذا الفندق الضخم افواجاً من السائحين الأجانب الذين فيهم طائفة من الغربيين من اوروبا وامريكا وطائفة من الشرقيين من اليابان بل أن أمراة منهم سألتني عن بلادنا وقد أعجبها لباسنا العربي الكامل الذي كنا متمسكين به حتى العباءة فاخبرناها أننا من المملكة العربية السعودية فقالت: انها من فنزويلا في امريكا الجنوبية. ولما اخبرتها انني أعرف فنزويلا حق المعرفة وقد زرتها ثلاث مرات وكتبت كتاباً خاصاً بمشاهداتي فيها تملكها العجب وبخاصة عند ماتذكرت أنها الآن في نهاية البعد عنها إلى جهة الشرق.

لقد كان زينا العربي الكامل ملفتا للأنظار حقا حتى لأنظار اهل الفندق الذين يفترض أنهم كانوا قد تعودوا على رؤية الضيوف الأجانب



أمام فندق اوزبكستان في طشقند

من بلاد كثيرة مختلفة الأزياء وبخاصة من البلدان العربية غير ان معظم اهل البلدان العربية يكونون قد ارتدوا الزي العالمي المسمى بالافرنجي عندما يزورون هذه المنطقة وقد صار هذا الزي المألوف في أكثر أنحاء العالم حتى داخل الاتحاد السوفيتي في المناطق الإسلامية الداخلية يكون هو لباس الموظفين والمثقفين.

وقد حرصنا على الالتزام به لأنه إحدى الوسائل التي بأيدينا لإلفات نظر إخواننا المسلمين في هذه البلاد إلى وجودنا لأنه ليس بإمكاننا أن نخاطبهم مباشرة بذلك إذ اتصالاتنا مقصورة بالمرافقين ومن نصادفهم في الأماكن العامة الذين لم يتعودوا على الإسراع إلى ضيوف البلاد وسؤالهم عن جهتهم ومقصدهم لأن الاتصال بالاجانب يكون مقتصراً في العرف والعادة هنا على الموظفين الرسميين ومن في حكمهم من المأذون لهم وعددهم يكون قليلاً في المعتاد.

وكان عجب السياح الأجانب من ملابسنا مثل عجب المواطنين أو اكثر من ذلك فيما يظهرونه لنا لأنهم قد اعتادوا على حرية الاتصال بالأجانب ومخاطبتهم في بلادهم فكانوا يسألون عن بلادنا ويستأذنون في التصوير من الآت التصوير التي يحملونها وتكون جاهزة عندهم كما تكون لدى السياح في العادة.

وبعضهم كان يخشى ان تفوته المناسبة فيسرع بالتقاط الصور قبل الاستئذان.

اما المواطنون فلا أذكر أن واحداً منهم اتجه الينا وسألنا عن بلادنا وعن أي شيء يتعلق بنا كما اننا لانتذكر أن واحداً التقط لنا صورة واحدة وان كانوا ينظرون إلينا من طرف خفي ويتعجبون من دون ان يجرؤا على التقدم إلى هؤلاء الضيوف الاجانب وسؤالهم مباشرة عن انفسهم.

انزلونا في غرف الفندق الذي هو فندق سياحي حيث يكون في العادة ذا غرف صغيرة فكان نصيبي غرفة صغيرة امامها غرفة جلوس صغيرة أيضاً.

ووجدتهم وضعوا على المائدة فيها ماكان يضعه اخوتهم في تركستان الشرقية التي زرتها قبل سنتين وكتبت عنها كتاب (في مهد الترك) وهي المكسرات والاشربة ماعدا الشاي فإنه كان لازماً في تركستان الشرقية للضيوف اما في تركستان الغربية هذه التي حولوا اسمها العام إلى (آسيا الوسطى السوفيتية) وقسموها إلى عدد من الجمهوريات الآسيوية فإنهم وضعوا على المائدة زبيباً جيداً مما اشتهرت بلادهم بانتاجه ومعه لوز وماء معدني وزجاجات من البيبسي كولا التي تصنع في هذه البلاد وفاكهة اقتصرت على الفاكهة المتوفرة التي تنتجها هذه البلاد وهى التفاح الذي هو أقل جودة من التفاح الأحمر اللبناني وان كان يشبهه في اللون ومع التفاح كمثرى جيدة.

أما الخدمة في هذا الفندق فإنها رديئة اذ خصصوا لكل طبقة من طبقاته الكثيرة عدداً من الروسيات الغليظات حسا ومعنى واكثرهن في منتصف العمر أو هى على حد قول الشاعر:

وان أتوك وقالوا: إنها نصف فإن اطيب نصفيها الذي ذهبا

الا انني اعتقد انه حتى النصف الذاهب من أمثال هؤلاء الروسيات الثقيلات الأجسام وربما الأرواح أيضاً. فانهن لايعرفن من الانكليزية حرفا حتى نستطيع ان نحكم عليهن من كلامهن وتصرفاتهن بأنهن ثقيلات الأرواح أو خفيفات.

وإنما الكلام معهن بالاشارة في نطاق ماتحتاجه الغرف كما كان الكلام كذلك مع العاملات في فندق (سوفييتكا) في موسكو.

ولقد حاولت أن اجد مفتاحاً أفتح به زجاجات الشراب فلم استطع إفهام الروسية المسئولة عن ذلك حتى جاء احد الأخوة المرافقين الذين يعرفون اللغة الروسية فسألها عن ذلك وهو من الاخوة المسلمين من أهل البلاد ولكنه لم يعتد ولم يجرؤ على ان ينتقد وجودها هنا بدلاً من أمرأة أو رجل

من المسلمين من أهل البلاد نستأنس بوجوده ونحييه بتحية الاسلام وربما يشعر وجودهم بأننا في بلاد إسلامية.

ولاشك في أن اختيار العاملات من الروسيات الغليظات اللآتى لايعرفن الانكليزية فضلاً عن اللغات الأوروبية الأخرى أمر له معناه فهو يقطع الطريق أمام الحصول على اية معلومات إو إنشاء اية علاقات غير مرغوب فيها من قبل الدولة مابين النزيل السائح وبين المواطنين السوفييت.

وغرفتي في الطابق السابع تطل على ميدان جيد متوسط السعة في وسطه حديقة غناء قد أزهرت من اشجار مختلفة الألوان والأشكال في منظر بهيج.

عشاء طشقند :

بعد استراحة قصيرة في الغرفة حان موعد العشاء الذي كانوا قد حددوه الساعة التاسعة وهو بعد غروب الشمس مباشرة اذ تغرب الآن في التاسعة الا ثلثا. وذكروا لنا أنها كانت لا تغرب في رمضان الماضي الا في العاشرة فكان افطارهم يتأخر لهذا السبب.

ولاشك في ان من اسبابه موقع بلادهم الموغل في جهة الشمال بالنسبة إلى بلادنا العربية غير الشمالية.

ونزلت في التاسعة إلى المطعم وكان مزدحماً جداً بالرواد الذين كلهم من السياح سكان الفندق فسألني رجل يظهر انه روسي قائلا: مسلمان؟ قلت: نعم.

فاشار إلى جهة معينة من المطعم كانت فيها مائدة منصوبة طويلة تتسع لحوالي اربعين شخصاً وقد وضعت عليها مقدمات الطعام بسخاء كنت قد اعتدت على رؤيته أثناء زيارتي لتركستان الشرقية.

إلا أن الشئ الظاهر هنا الذي لم يكن هناك هو وجود البطارخ أي (الكافيار) وهو بيض السمك الشهير الذي هو بيض نوع من السمك موجود في بحر قزوين من دون غيره من بحار الدنيا وهو المشهور بالكافيار الروسي مع انه ليس من بلاد الروس الأصلية ولا بقريب منها وإنما يراد بذلك الاتحاد السوفيتي.

وهذا (الكافيار) الأسود اللون كما هو معروف وهناك نوع من بيض السمك ايضاً أحمر اللون وقد اعتدنا بعد ذلك على رؤيته في جميع الموائد في هذه البلاد السوفيتية ويأكلون (البطارخ) بالزبد يضعونه عليه ويضعون الجميع على قطعة الخبز وهناك انواع من اللبن مابين رائب وحليب وانواع من الجبن واللحم ايضاً في المقدمة أنواع وهو بارد بمقادير قليلة اضافة إلى النقل الذي هو المكسرات.

وقد حضر مأدبة العشاء عدد كبير من الاخوة الذين يتكلمون العربية من العاملين في الحقول الدينية ويبلغ عددهم عليها ثمانية واربعين شخصاً على رأسهم الدكتور/ شمس الدين بن ضياء الدين بابا خانوف.

ثم كانت اول ليلة في طشقند عامرة بسماع الاذاعات العربية التي كانت واضحة على الموجات القصيرة ومنها اذاعات المملكة وإذاعة الكويت.

وكنا قد اطلعنا اثناء العشاء على برنامج الزيارة فوجدنا انه لايلبي رغباتنا اذْ يدع بعض المدن الهامة لنا مثل بخارى دون زيارة ولم يقدموا لذلك سبباً واضحاً اما مدينة (ترمذ) التي ينسب إليها الإمام الترمذي صاحب السنن فانهم قالوا انها تقع مباشرة على الحدود مع افغانستان وانتم تعلمون الوضع هناك لذلك لاتتيسر زيارتها فاقتنعنا من ذلك.

يوم الخميس ١٤٠٦/٨/٨هـ — ١٩٨٦/٤/١٧م

صباح طشقند :

كان هذا اليوم شامسا كيوم أمس ومع ذلك لم استطع التقاط صورة للميدان والحديقة التي تطل عليها غرفتي في الفندق وذلك لوجود تزيينات اسمنتية تمر بالنافذتين وترتفع مع ارتفاع الفندق وهى لذلك تمنع وضوح الصورة.

وقد تناولنا طعام الفطور مع الإخوة الكرام الذين تبين أنهم كانوا يسكنون هنا في الفندق نفسه حتى الذين هم من اهل طشقند.

وكان المطعم مزدحماً كالعادة الا أن مائدتنا كانت منفردة في ركن منه والعجيب في أمر الخدمة فيه إذ كانت بطيئة غير ميسرة فقد يطلب الآكل شيئاً فيبطئ العمال في احضاره بطأ شديداً قد يعتقد أنه مقصود وليس الأمر كذلك ولكن العمال هم يعتقدون أو هكذا يوحي الشيوعيون اليهم بأنهم أهل السلطة في البلاد لذلك لايبالون كثيراً برضا الزبائن عن الخدمة مع ان المسئولين كانوا يجتهدون في ارضائنا ولذلك كنا نجد اكثر الأكل على المائدة جاهزاً قبل وصولنا ولايبقى الا مالا مكان له فيها، الا بعد إبعاد الأطباق التي تسبقه أو ما يؤكل أو يشرب حاراً.

إلى مجلس السوفييت الأعلى :

وكانت أولى فقرات العمل هذا اليوم الاجتماع في مجلس السوفيت الأعلى لجمهورية ازبكستان مع رئيس الجمهورية و يسمونه رئيس مجلس السوفيت الأعلى في الجمهورية فمنصبه فيها أعلى من منصب رئيس الوزراء وهو الذي يعين الوزراء في حكومة الجمهورية وهذا بطبيعة الحال من الناحية النظرية والا فإن الأمر كله بيد المسئولين الشيوعيين الذين يحركون هؤلاء الوزراء وغيرهم.

وهذا الرجل كغيره من المسئولين ينتخب انتخابا غير حر فالحزب الشيوعي وحده هو الذي يقدم مرشحيه من الشيوعيين و يطلب من الناس أن يختاروا منهم من يريدون مع انهم كلهم من لون واحد وهو اللون الشيوعي ومن اتجاه سياسي واحد هو الاتجاه الذي يرضى عنه الحزب الشيوعي الروسي او لنقل على وجه الدقة المسئولون الشيوعيون من الروس لكنهم يظهرون للناس أنهم اشتراكيون وان هؤلاء الشيوعيين المحليين هم مثل الشيوعيين في موسكو لهم القوة نفسها التي للشيوعيين الروس في تصريف شئون الدولة.

سألت الاخوة المرافقين عن هذا الرجل أهو مسلم وأنا أريد بذلك معرفة كونه من اهل البلاد الأصلاء ام من الروس؟ فلم يستطيعوا أن يقولوا إنه مسلم حتى الذين من عادتهم عدم التحفظ في التعبير لم يقولوا انه مسلم.

فقلت لهم: أهو من أبناء المسلمين؟ فقالوا: نعم.

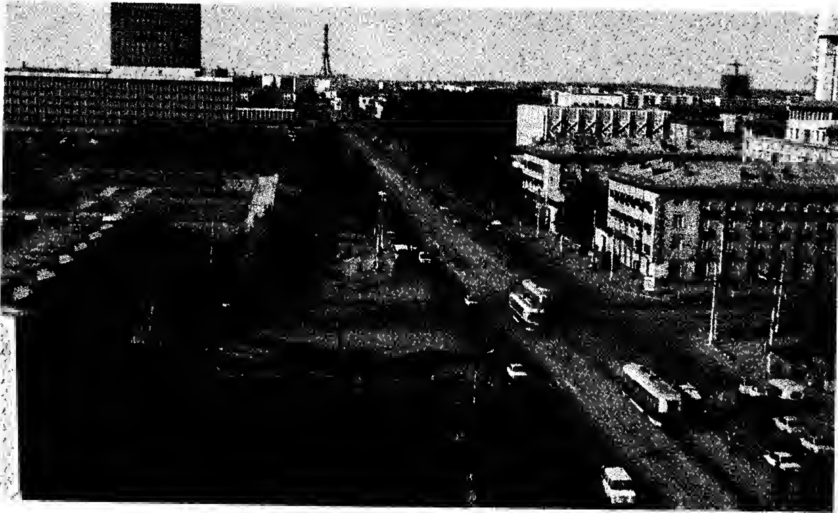
والسبب في ذلك أن الموظف الكبير في الإدارة السوفيتية لايستطيع أن يقول: إنه مسلم ولو بمجرد القول لأنه لو فعل ذلك كان قد فعل ما يتناقض مع دستور البلاد ومع مبادئ الحزب الشيوعي الذي ينتمي اليه والذي من أهم مافيه مبدأ الالحاد وانكار وجود الخالق سبحانه وتعالى ولذلك صار التدين يتناقض مع هذه المبادئ.

وهذا يوجب فصله من الحزب وإبعاده عن منصبه في الدولة، ان لم يكن سبباً كافياً في الحاق الأذى به وعقابه على مخالفة دستور الحزب الذي يكون قد اعلن الولاء له وعدم المساس بمبادئه.

وعلى سبيل المثال لايجيز النظام ولا العرف الشيوعي لأعضاء الحزب ولا الذين يشغلون مراكز مهمة في البلاد ان يشهد الشخص منهم صلاة في اي مسجد أو أن يشترك في أداء أية شعيرة من الشعائر الدينية واذا حدث ذلك فإنه يفصل و يعاقب كما تقدم.

ومع ذلك يقول لنا العارفون بالأمور من اخواننا إن ابناء المسلمين الذين يوجدون في السلطة في هذه الاوقات وتحت الحكم الشيوعي هم على فريقين فريق يكون شيوعياً ملحداً معتقداً بالشيوعية متحمساً لها كما يتحمس أي شيوعي آخر لذلك يكون معادياً للاسلام وفريق يتظاهر بذلك ولكنه في قرارة نفسه لايعادي الاسلام غير انه لايستطيع الا ان يتظاهر بأنه ملحد وبأنه بعيد من الدين واهله.

وسار المركب من فندق أوزبكستان قاصداً مجلس السوفييت للاجتماع برئيس المجلس فاخترق شوارع واسعة من شوارع المدينة كلها حديثة ذات أشجار منسقة على جوانبها وتقع على اكثرها أبنية سكنية متعددة الطوابق (عمارات) قد بنتها الدولة تؤجرها للمواطنين.



شارع لينين أهم الشوارع الرئيسية الحديثة في طشقند

وأكثرها ليس بذى طابع قديم بل هو معتاد حتى في البلدان الرأسمالية ولاطعم له بخاصة في عين الذي يكون مثلنا يريد ان يرى الأبنية ذات الطابع الإسلامي العريق.

ولكنهم اخبرونا ان اكثر هذه الشوارع والابنية التي اقيمت عليها هي حديثة قد اقيمت بعد الزلزال الشديد الذي اصاب المدينة في عام ١٩٦٧م وقضى على كثير من البيوت القديمة فيها مما جعل الدولة تهدمها وتشق في اماكنها شوارع حديثة واسعة، تقيم عليها أبنية سكنية تؤجرها شققاً سكنية على اهل هذه البيوت وغيرهم بموجب الخطة التي تسير عليها في تحديد أمتار معينة في السكن لكل شخص وفق حدود تتراوح ما بين الأمتار الثمانية والا ثنى عشر للفرد الواحد.

فعلى سبيل المثال للشخص الاعزب سواء أكان رجلاً أم امرأة الحق في ان يحصل على غرفة يسكن فيها في هذه المساكن الحكومية تكون سعتها من ٨ امتار إلى ١٢متراً مربعاً لايزيد على ذلك والمتوسط هو عشرة أمتار مربعة وذلك يعني غرفة طولها ثلاثة امتار وثلث في عرض ثلاثة أمتار فقط.

اما إذا كان الشخص متزوجاً وله طفلان مثلا فإن له الحق في استئجار أمتار تبلغ اربعين متراً مربعاً ولايحتسب في هذه المساحة الا الغرف فقط اما الممرات والحمامات والمطابخ فانها لاتحسب ولكنهم اعتادوا على عدم وجود القاعات التي نسميها الصالات في بلادنا في شققهم المعتادة بل يكتفون بممرات بين الغرف فيكون للأسرة المؤلفة من اربعة أشخاص الحق في استئجار شقة حكومية مؤلفة مثلاً من غرفتين كل غرفة مساحتها اربعة أمتار مربعة في خمسة أمتار وذلك بأجرة رخيصة جدا بل رمزية وحتى الماء والكهرباء، يكاد لرخصه يكون مجاناً. وصيانة المنزل ماكان منها داخل الغرف يكلف به النزيل وماكان خارجها تكلف به الدولة.

في مجلس السوفيت الأعلى للجمهورية :

كان الموعد السابعة والنصف صباحاً فوجدنا المجلس في مبنى حديث كالأبنية المعتادة اي ليس ذا طابع خاص وليس فيه من الفخامة الآفناء مكشوف واسع أمامه حديقة حديثة الإنشاء يخترقها ممر مبلط وهو ايضاً مقر مجلس الوزراء للجمهورية.

وعند المدخل الخارجي استقبلنا احد الموظفين الذي انحنى بأدب وتقدمنا إلى الداخل حتى وصلنا قاعة متوسطة السعة وجدنا عند بابها رئيس مجلس السوفيت الأعلى لجمهورية ازبكستان رئيس الجمهورية وهو من أبناء المسلمين واسمه بولاد حبيب الله وهو تركستاني الطلعة ان لم نقل بلغتنا (بخاري) السحنة لأنني لم اجد أصدق وصفا لهؤلاء الأخوة المسلمين في تركستان الشرقية التي في الصين وتركستان الغربية التي هي هذه من وصفهم بالبخاريين وان كان هذا ليس صحيحاً من حيث المعنى لأن بخارى هي في الحقيقة مدينة واحدة عرفت بها منطقة واحدة هي جزء صغير من بلادهم الواسعة بل الشاسعة (تركستان) التي تعني بلاد الترك وهي بلاد ذات وحدة إنسانية عنصرية وماضٍ ثقافي عريق هو الماضي الاسلامي العظيم.

ولكن تكالبت المحن عليها وتقاسمها الطغاة الأقوياء فصارت للدب الروسي والتنين الصيني.



بولاد حبيب الله رئيس مجلس السوفيت لجمهورية اوزبكستان يصافح المؤلف في مقر المجلس

والأدهى من ذلك ان هؤلاء الطغاة الظالمين المستعمرين بل المنتهبين للبلاد والمسيطرين على العباد قد سعوا جاهدين في محو هويتهم الاسلامية وماضيهم الثقافي العريق حين يفهمونهم ان ذلك الماضي كله إنما كان تأخراً من التأخر بل كان سبة يجب عليهم التخلص منها.

رحب بنا الرئيس (بولاد حبب الله) ترحيباً حاراً واجلسنا حول مائدة بيضاوية الشكل كانوا قد رتبوا أماكننا بها ترتيباً بحيث كان مجلسي مقابلا لمجلسه وعن اليمين واليسار مجلس أعضاء الفريقين.

وقد حضر معنا كبار المرافقين منهم الشيخ شمس الدين بابا خانوف رئيس الادارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان واثنان من نوابه والشيخ طلعت تاج الدين رئيس الادارة الدينية لمسلمي القسم الأوروبي وسيبيريا وغيرهم كما حضر عدد من جانب رئيس المجلس وكذلك حضرها الصحفيون والمصورون المرافقون للوفد وغيرهم.

عند ماتكلم الرئيس (بولاد حبيب الله) تبين ان كلامه كمظهره فيه مما يميز الشعب التركستاني أشياء الا الروح الإسلامية التي هي ميزة هذا الشعب العظيم وأهم مظهر من مظاهر وحدته فقد خلا منها حديثه.

فقد القى كلمة مطولة تدور في مجملها حول ماكانت عليه حال هذه البلاد من الناحية المادية قبل الثورة الشيوعية وما أصبحت عليه الآن.

قال من بين ماقاله:

لقد حقق شعب اوزبكستان تقدماً وتطوراً حضارياً في ميادين الثقافة والاجتماع والصناعة بعد ثورة اكتوبر ١٩١٧م فقبل الثورة كان نسبة المتعلمين في البلاد ٤٪ من سكان اوزبكستان والآن اصبح اكثر الشعب الاوزبكى متعلماً وتوجد حالياً في اوزبكستان ٤٣ مؤسسة علمية عليا واكثر من عشرة آلاف مدرسة و٢٠٠ معهد بحوث والتعليم مجاني في جميع مراحل الدراسة كما ان الخدمات الطبية مجانية وهناك مئات المستشفيات.

وقال: ان الصناعة في اوزبكستان متطورة وبها كثير من المصانع المتنوعة منها صناعة الطائرات والالكترونيات والمحركات والجرافات، وصناعة الغزل والنسيج وغير ذلك من جميع انواع الصناعات الحديثة.

واضاف يقول ان اوزبكستان تشتهر بالعديد من المحاصيل الزراعية من الفواكه والخضروات والقمح وتنتج البلاد خمسة ملايين طن من القطن وتحتل المرتبة الأولى في الاتحاد السوفيتي.



جانب من مائدة الاجتماع في مجلس السوفيت الأعلى في طشقند (من اليسار لليمين: الأستاذ سالم السالم عبدالرحمن بن عوين فالدكتور سعيد محمد باديب فالدكتور شمس الدين بابا خانوف فالمؤلف.

الحالة الدينية :

ثم تحدث الرئيس بولاد عن الحرية الدينية فقال: ان القانون الاساسي للإتحاد السوفيتي والدستور الخاص لجمهورية اورزبكستان السوفياتية المستمد منه يضمن حرية الاعتقاد والفكر والوجدان والفرد له الحرية في اختيار الدين الذي يرغبه، كما ان له الحرية في عدم الإعتقاد والدين منفصل عن الدولة والمدرسة في اوزبكستان والاتحاد السوفيتي ولكل مواطن الحرية في ان يمارس شعائر دينه.

ويقدر عدد المساجد في الإتحاد السوفيتي بـ٣٠٠ مسجد ويوجد منها ٨٢ مسجداً في اوزبكستان.

مجلس السوفيت الأعلى :

وكذلك تكلم السيد بولاد عن مجلس السوفيت الأعلى لاوزبكستان وأن المجلس يضم ٥١٠ نائباً ينتخبهم الشعب من خلال فئاته المختلفة كل خمسة أعوام ويعمل النواب على تحسين مستوى الشعب وتحقيق متطلباته في الازدهار والتقدم من خلال اللجان التي يشكلونها وقال: والشعب الاوزبكي مضياف ولايوجد هناك شعب مضياف مثله. وسوف يرى الوفد تطور ورفاهية الشعب الأوزبكي أثناء زيارته لهم في مناطقهم.

وقد رددت عليه بكلمة مبسوطة تضمنت شكره على الترحيب، وحسن الاستقبال وعلى المعلومات التي قدمها عن هذه البلاد العزيزة لدينا (ازبكستان).

واخبرته بسرور المسئولين في رابطة العالم الإسلامي عندما تلقت الدعوة من الإدارات الدينية في الاتحاد السوفيتي وقد سارعنا بتلبية هذه الدعوة شاكرين لأنها تتيح لنا الاجتماع بالاخوة المسلمين في هذه البلاد العريقة وبحث سبل التعاون الثقافي مابين رابطة العالم الإسلامي وبين الإخوة المسلمين ممثلين في الادارات الدينية في الاتحاد السوفيتي.

ثم اوضحت مهمة رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة وانها منظمة إسلامية شعبية عالمية وليست ادارة حكومية من ادارات الحكومة السعودية وإنما توفر لها المملكة العربية السعودية المقر وتساعدها على أداء مهمتها كما تساعد بقية الهيئات الإسلامية في العالم.

وهذا نص لبعض ماقلته :

إننا نتفق معكم على حسن ضيافة الشعب الأوزبكي لضيوفه، وقد شعرنا لحسن استقباله بأننا بين اشقائنا واخواننا الاعزاء بالرغم من بعد

المسافة بيننا وذلك لأن الأخوة الاسلامية التي عقد عراها رب العزة هى اقوى من صلات النسب.

ورابطة العالم الإسلامي هى هيئة إسلامية شعبية عالمية وهى ليست جهازاً حكومياً ولكن حكومة المملكة العربية السعودية تقدم لها بعض المساعدات المالية التي تمكنها من اداء خدماتها للمسلمين في أنحاء العالم.

وعندما تلقينا الدعوة من الدكتور شمس الدين بابا خان رئيس الادارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان سررنا لأن الرابطة مقرها في مكة المكرمة التي هى قلب العالم الإسلامي واليها يتجه المسلمون في صلواتهم وكذلك يتجه المسلمون إلى مكة المكرمة ورابطة العالم الاسلامي برجاء توحيد ثقافتهم الإسلامية وتوثيق صلاتهم الحضارية.

وفي سبيل توثيق الصلات مع المسلمين في العالم فقد قام المسئولون فيها بزيارات كثيرة لأنحاء العالم وعلى سبيل المثال فقد قمت بزيارات عديدة إلى كثير من الجماعات الإسلامية في العالم مثل نيوزيلندا ومملكة تونقا في المحيط الهادئ وترينداد في البحر الكاريبي.

وزياراتنا للجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفيتي وبالأخص اوزبكستان هي واجب نؤديه في سبيل توثيق الصلات الثقافية مع اخوتنا المسلمين، زيادة على ذلك نشعر بان علينا دينا يجب أن نؤديه نحواخواننا المسلمين في هذه البلاد، فنحن المسلمين مدينون لعلماء هذه البلاد الاجلاء مثل الامام البخارى والترمذي وغيرهما من ائمة الحديث والتفسير.

ونعرف أن علماء المسلمين من هذه البلاد في القديم قدموا إسهاماً كبيراً للثقافة الإسلامية وكثير من المسلمين في العالم الإسلامي يتسألون حالياً فيقولون: ماذا قدم أبناء واحفاد أولئك المسلمين للثقافة الإسلامية؟ ولاشك في ان المسلمين على حق في تسآءلهم، لأن المسلمين أخوة وقد قال الله تعالى: **«انما المؤمنون إخوة»** ومن واجب الإخوة التعارف والتعاون.

وفي مجالس الرابطة ممثلون للشعوب والجماعات الإسلامية ويمثل سماحة الدكتور/ شمس الدين باباخان مسلمي الاتحاد السوفيتي في المجلس الأعلى العالمي للمساجد و يتوجه المسلمون في أنحاء العالم إلى الرابطة للاستفسار عن أحوال المسلمين في الاتحاد السوفييتي، ونحن نجيبهم بأننا سنزورهم ونعرف أوضاعهم ثم نجيبكم.

ثم قلت: إن رابطة العالم الإسلامي ليست هيئة سياسية ولذا فإن الاختلافات السياسية في نظم الحكم لاتعيق الرابطة عن اداء اعمالها وأخونا الدكتور شمس الدين باباخان يعرف ذلك من خلال مشاركته في أعمال المجلس الأعلى العالمي للمساجد.

وليس من أهداف الرابطة التدخل في السياسة أو النظام الداخلي لأي دولة كما أننا نستطيع أن نقول بصفتنا مواطنين سعوديين بأن سياسة حكومة المملكة العربية السعودية هي عدم التدخل في النظام أو الأمور الداخلية للدول.

وتسعى رابطة العالم الإسلامي لإحياء الروابط الثقافية الإسلامية بين الشعوب والجماعات المسلمة.

وكان علماء العرب القدماء يأتون إلى بلادكم لز يادة التحصيل العلمي بالرغم من صعوبات الطر يق واختلاف الجو. والآن تتم ز يارتنا هذه بكل يسر وسهولة وقد سررنا بما ذكرتموه من انتشار التعليم والصناعة والزراعة في بلادكم ونتمنى ان نرى انتشار الثقافة الإسلامية من جديد في بلادكم وان يعيد الشباب المسلم الحاضر أمجاد أجداده وآبائه في الثقافة والحضارة الإسلامية.

ثم قلت إننا ونحن نصل إلى هذه البلاد العريقة في الإسلام كان ينتابنا شعور عظيم عميق من الإمتنان لوصولنا إلى موطن العلماء الاعلام من ائمة الإسلام الذين نبغوا في العلوم المختلفة، فمثلاً في علم الدين هذا الإمام

البخاري الذي ألف اصح الكتب بعد كتاب الله تعالى والإمام الترمذى صاحب السنن والإمام الحافظ الدارمي والبيهقي والشاشي الى عدد عديد لايحصون كثرة من ائمة الحديث الذين حفظ الله بهم الشريعة الإسلامية وأغنى بهم الثقافة العربية وخلفوا من الا ثار العلمية مايتجدد الانتفاع به على مر القرون وفي العلوم الأخرى نجد ابن سينا والفارابي والبيروني وأبابكر الخوارزمي.

إننا كسائر المسلمين مدينون للعلماء الذين أنجبتهم هذه البلاد ولذلك فإنه من الواجب علينا أن نرد الدين ولو عن طريق التعاون على مانستطيع عمله في سبيل الانتفاع بآثارهم العلمية والاشتراك مع أنجالهم الذين خلفوهم في هذا الميدان.

بل ان هذه البلاد التركستانية كان لها في الماضي فضل حمل الراية الإسلامية راية الجهاد في سبيل الله ونشر الدين الإسلامي في بلاد خارج بلادهم و يكفى ان نذكر ان أبناء عمومتهم من الأتراك العثمانيين قد باشروا الفتوحات الإسلامية منذ ان ارتحلوا عن هذه البلاد حتى وصلت فتوحاتهم تحت راية الإسلام إلى أوروبا ففتحوا القسطنطينية التي صارت منذ ان فتحوها ومازالت ولله الحمد دار إسلام يذكر فيها اسم الله بعد ان كانت مركزا للثقافة المعادية للإسلام.

وقلت ان ذلك الماضي المشرق لهذه البلاد التركستانية يجعلنا نحن المهتمين بماضي المسلمين ومستقبلهم نؤمل ان يعيد التاريخ نفسه في هذه البلاد وان تعود مرة ثانية منبعا للثقافة الإسلامية ومقصداً لمن يريدون التزود منها بل إننا نطمع في أن يحمل أبناؤها راية الإسلام خفاقة كما حملها أسلافهم العظام.

هذا وقد تعمدت ان أركز على هذه الناحية الإسلامية المهمة في الحديث مع هذا الرجل الذي هو بحكم منصبه الشيوعي يعتبر معاديا للإسلام وذلك من أجل تذكيره بذلك عسى ان ينتفع به، ولعلمي ان كثيراً من

الوفود الرسمية وحتى الوفود التي تفد اليهم من بعض البلدان الإسلامية لاغراض سياسية أو اقتصادية لا تفيض في بحث هذا الموضوع فضلاً عن ان تركز عليه.

وقد بدالي أن الرجل قد تأثر بما قلته وبما سمعه بهذه الاستفاضة للمرة الأولى من ضيوف أجانب ولذلك بدا ممتنا مما ذكرته او هذا هو ماظهر لنا والله اعلم بحاله.

وقد علق على كلامي رئيس الجمهورية السيد/ بولاد بقوله: إننا نحترم علماءنا المسلمين السابقين الذين خدموا الثقافة والحضارة الإنسانية ونحن نفتخر ونعتزبهم و بتاريخهم وقد اسمينا كثيرا من الشوارع والميادين بأسماء علمائنا القدماء.

ونحن لانتدخل في سياسة الآخرين ولانسمح للاخرين بالتدخل في شئوننا ولكن نعمل على توطيد السلام العالمي والمؤتمر الأخير للحزب الشيوعي السابع والعشرين اكد على رغبة الأتحاد السوفيتي في حفظ السلام والعمل لأجله.

ثم اردف يقول: ان زيارتكم هذه زيارة هامة في تاريخنا وتأخذ صفة ثقافية وسياسية، وقد زرت تركيا والمغرب ونيوزيلندا ولمست اهتمام المسلمين ببلادنا وسررت كثيراً لزيارتكم هذه المفيدة في توثيق صلات الشعوب المسلمة.

ثم أجاب الرئيس (بولاد) على سؤال أحد أعضاء الوفد عن صلاحيات مجلس السوفيت الأعلى فقال: إن المجلس يضم ٥١٠ نائباً ينتخبهم الشعب مرة كل خمس سنوات و يكون أعضاء المجلس اكثر من عشرين لجنة كل لجنة منها تعالج ناحية من النواحي الاساسية لمتطلبات الشعب فهناك لجنة الثقافة ولجنة الصحة ولجنة البناء وهكذا ومهمة المجلس ايضاً هى مراقبة اعمال الوزارات والمؤسسات العامة وتقديم النصح والارشاد لها.

وذكر ان المجلس يعقد اجتماعاً مرتين في السنة، وزعم بأن كل نائب يعمل على تحقيق طلبات الجماعة التي انتخبته قال: وإذا لم يستطع النائب ان ينفذ طلبات منتخيه تسحب الثقة عنه.

قال: ويستقبل المجلس الوفود البرلمانية من الخارج، كما يبعث بالوفود للمشاركة وزيارة المجالس والهيئات البرلمانية.

ثم قدمت إليه مصحفا كريما مذهباً مطبوعاً في المدينة المنورة وقلت له: ان اغلى وأعز مالدينا هو كتاب الله تعالى الذي هو دستورنا ومرشدنا الى الحق وهو الرباط الوثيق الذي يربط بين المسلمين ويسرنا ان نهدي اليكم هذا المصحف المطبوع في مهبط الوحي في المدينة المنورة.



المؤلف يقدم الهدية إلى رئيس مجلس السوفيت الأعلى لجمهورية اوزبكستان

وأهديت إليه أيضاً مع المصحف عباءة عربية مقصبة وتمراً من تمر المدينة المنورة وساعة يدوية وسجادة للصلاة وقد تقبلها شاكراً.

ثم ودعناه وقد استغرق اللقاء معه مازاد قليلاً عن الساعة.

إلى الادارة الدينية :

خرجنا من مجلس السوفييت الأعلى لجمهورية ازبكستان الذي هو أيضاً مقر مجلس وزراء الجمهورية كما سبق قاصدين مقر الإدارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان وكان بي شوق عظيم لرؤية الأحياء القديمة في طشقند التي تمثل الأنموذج الحقيقي للبيوت والآثار الإسلامية من بلاد الشاش.

وقد رد علي الأخوة المرافقون بقولهم: اننا سنقوم الان بجولة في شوارع المدينة.

وقد جال الموكب في شوارع متعددة من المدينة وكان يدور في بعض جهاتها دورانا ولكنها كلها ذات طابع حديث واحد لا طعم له في أعيننا ولا أثر فيه للطابع الإسلامي العريق حتى الناس الذين نراهم في هذه الشوارع لا تظهر الأصالة التركستانية في ملابسهم أو أزيائهم كما هي ظاهرة مثلا في مدن تركستان الشرقية التي تتبع الصين في الوقت الحاضر وقد أوضحت ذلك من أمرها في كتاب «في مهد الترك» الذي ألفته عن مشاهداتي في تلك البلاد.

والشوارع التي رأيناها هي واسعة مشجرة ذات أرصفة جيدة وتسير فيها عربات الترام وحافلات النقل العام الجيدة المظهر وأما السيارات الخاصة فإنها موجودة ولكنها قليلة اقل من الموجود منها في شوارع موسكو مثلاً ولكنه اكثر من الموجود من السيارات في شوارع مدينة (ارومسي) عاصمة تركتستان الشرقية.

ويرى المرء بين الفينة والأخرى حديقة صغيرة حديثة يتضح ذلك من قصر اشجارها. وتتناثر الأبنية الحديثة ذات الطوابق المتعددة على جوانب هذه الشوارع ولكنها ليست بذات طابع اسلامي مشرق بل تكاد تكون لاطابع لها وانما هى أبنية جديدة تشتمل على شقق سكنية صغيرة.

وكرر الاخوة المرافقون ماقالوه من أن هذه الشوارع واكثر الابنية التي عليها هي حديثة الإنشاء وهي كلها بعد الزلزال الشديد الذي ضرب مدينة طشقند في عام ١٩٦٧م.

وكان موكب وفدنا حافلا تتقدمه سيارة المرور العسكرية فتخلي السيارات الطريق ويؤدي له جنود المرور التحية العسكرية.

الادارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان:

وكان اول منظر لبناء ذي طابع إسلامي هو منظر مدخل الادارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقسنان.



أمام مدخل الادارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان في طشقند (في اليمين) الشيخ عبدالله الباز فالمؤلف فالدكتور شمس الدين فالاستاذ سالم السالم على يمينه الشيخ طلعت تاج الدين فالشيخ يوسف جان شاكر.

ولا غرو في ذلك لأن البناء المذكور هو أثرى مضى على بنائه اكثر من اربعة قرون وجدنا في مقر الادارة الدينية عدداً من المشايخ قالوا: إنهم من أئمة المساجد ومن المدرسين في معهد الإمام البخاري الذي يقع مقره قريبا من الادارة الدينية.



داخل الادارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان

وعندما اكتمل جلوس الجميع على مائدة مستطيلة في غرفة للاجتماع نهض الشيخ الدكتور شمس الدين بن ضياء الدين بابا خان فألقى كلمة رحب فيها بالوفد وذكر أن المسلمين في هذه البلاد ظلوا يتطلعون إلى زيارة وفد من البلاد المقدسة لبلادهم منذ مدة طويلة.

وأفاض في ذكر مهمة الادارات الدينية في الاتحاد السوفيتي فقال: للمسلمين في الاتحاد السوفيتي أربع ادارات دينية :

١ ــ الادارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان ومقرها طشقند ورئيسها المفتي الدكتور/ شمس الدين باباخان.
٢ ــ الادارة الدينية لمسلمي سيبيريا والقسم الاوروبي من الاتحاد السوفيتي ومقرها اوفا ورئيسها الشيخ طلعت تاج الدين.
٣ ــ الادارة الدينية لمسلمي شمال القفقاس ومقرها محج قلعة ورئيسها الشيخ محمود كيكي.
٤ ــ الادارة الدينية لمسلمي ماوراء القفقاس ومقرها باكو ورئيسها الشيخ الله شكر باشازاده وتتعاون هذه الادارات الدينية الأربع في العلاقات والاتصالات الخارجية في مكتب العلاقات الخارجية للإدارات الدينية

الإسلامية في موسكو ويرأس هذا المكتب دورياً احد رؤساء الإدارات الدينية الاربعة بالتناوب كما انهم يجتمعون مرتين سنوياً للتشاور وتبادل الآراء وكل الادارات الدينية متساوية في الحقوق والعمل ولكل منها نشاط في المجالات الدينية والثقافية والعلاقات الخارجية.



الاجتماع في الادارة الدينية في طشقند

والادارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان تعتبر أكبر الادارات الدينية الأربع مساحة واحتواء لعدد المسلمين في الإتحاد السوفيتي لذا فان لرئيس الادارة نائبين هما :

النائب الأول : الشيخ/ يوسف جان شاكر مسئول عن الشئون الخارجية والمدارس الإسلامية وهى مدرسة ميرعرب في بخارى ومعهد الإمام البخاري في طشقند.

النائب الثاني : الشيخ/ عبدالغني عبدالله مسئول عن الشئون الدينية ومجلة «المسلمون في الشرق السوفيتي» التي تصدر عن الادارة فصلياً باللغات العربية والأوزبكية والأنجليزية والفرنسية والفارسية.

وتتصل الادارة بالمنظمات الإسلامية في اكثر من ٨٠ دولة في العالم وترسل مجلة «المسلمون في الشرق السوفيتي» لأكثر من ٥٠٠ عنوان ومن خلال هذه المجلة يتعرف المسلمون وغيرهم على حياة المسلمين في الإتحاد السوفيتي.

وتشرف الادارة على مدرستين اسلاميتين في الأتحاد السوفيتي وهما مدرسة مير عرب الإسلامية في بخارى يلتحق بها الطالب بعد تخرجه من المدرسة الثانوية العادية و يدرس فيها اللغة العربية والمواد الإسلامية سبع سنوات.

والثانية معهد الإمام البخارى في طشقند يلتحق به خريجو مدرسة مير عرب الإسلامية ومدة الدارسة فيه أربع سنوات يدرس به الطلاب الحديث والتفسير والفقه وغيرها من العلوم الدينية واللغة العربية.

و يدرس في المعهد حالياً ٥٠ طالباً من أنحاء مختلفة من الاتحاد السوفيتي كما يدرس بينهم طلاب من بلغاريا وافغانستان و يعمل الخريجون من المعهد ائمة وخطباء في المساجد والادارات الدينية كما تبعث الادارات الدينية بعض الخريجين إلى الجامعات الإسلامية في الخارج لاستكمال تعليمهم العالي.

وقال الدكتور/ شمس الدين باباخان رئيس الادارة الدينية ايضاً: إن كافة النشاطات والأعمال الإسلامية وتكاليف الدراسة الإسلامية تتم على حساب تبرعات المسلمين وإن لكل مسجد حساباً خاصاً في البنك لايداع التبرعات والصرف منها.

واضاف يقول: إن الادارات الدينية في الاتحاد السوفيتي طبعت المصحف الشريف خمس مرات وآخرها في قازان عام ١٩٨٤م كما طبعت الادارة الجامع الصحيح والأدب المفرد للامام البخاري والشمائل النبوية للامام الترمذي.

كما تدعو الادارات الدينية وفوداً إسلامية من أقطار العالم لزيارة المسلمين في الإتحاد السوفيتي و يأتي سنوياً مابين ١١و ١٢وفداً مسلماً لمدة أسبوعين او ثلاثة يزورون المناطق الإسلامية.

وكذلك بدعوة من الادارة الدينية عقد مؤتمر اسلامي في عام ١٨٧٤م بمناسبة مرور ١٢٠٠سنة على وفاة الإمام البخارى اشترك فيه اكثر من ثلاثين دولة إسلامية وحضره الشيخ محمد صفوة السقا امينى الأمين العام المساعد سابقاً لرابطة العالم الإسلامي.

وعقدنا مؤتمراً إسلامياً بمناسبة بدء القرن الخامس عشر الهجري بمدينة دوشنبه عام ١٩٨١م.

ان قدوم وفد الرابطة من الاراضي المقدسة بالمملكة العربية السعودية خاصة للاتحاد السوفيتي واشتراكه في المؤتمرات يضفى عليها الهيبة والنجاح.

وقال الدكتور/ شمس الدين باباخان أيضاً: إن رؤساء الادارات الدينية في الإتحاد السوفيتي ونوابهم وأئمة المساجد يقومون بزيارات متنوعة إلى بلدان العالم الإسلامي و يشتركون في المؤتمرات الثقافية والإسلامية التي تعقد في مختلف المدن الإسلامية مثل المجلس الأعلى العالمي للمساجد في مكة المكرمة والملتقى الفكرى في الجزائر والمجمع الملكي للحضارات الإسلامية في عمان بالاردن.

وكل هذه العلاقات والاتصالات الإسلامية والأخوية نفتخر ونعتز بها.

وتستقبل الادارة الدينية كثيراً من الشخصيات والبعثات الإسلامية الذين يأتون إلى اوزبكستان بمناسبات مختلفة بدون دعوات رسمية.

أما زيارة وفد رابطة العالم الإسلامي وفد الحرمين الشريفين مهبط الوحى ومصدر الإسلام فقد كنا نتطلع إليها من زمن بعيد، وكان المسلمون يشتاقون إلى رؤية رجال يأتون إليهم من قبلتهم ومهوى افئدتهم الكعبة

المشرفة وقد تحقق هذا الأمل بزيارتكم الكريمة ونتمنى أن تتكرر مثل هذه الزيارات في المستقبل وزيارة واحدة لا تكفي لتغطيه المناطق الإسلامية في الإتحاد السوفيتي والإطلاع على أحوال المسلمين ونرجو أن تتكرر زيارتكم في المستقبل حتى تتاح لكم فرصة مشاهدة المدن والبلدان المسلمة المنتشرة في الإتحاد السوفيتي.

وبعد أن انهى الشيخ الدكتور شمس الدين كلمته نهضت فرددت على كلمته بالشكر على الترحيب وكرم الضيافة وحرارة الاستقبال وعلى المعلومات التي قدمها عن الإدارات الدينية الإسلامية واعمالها في الاتحاد السوفيتي وقلت: تلقيت وتلقى الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي دعوات متكررة منكم ومن رؤساء الادارات الدينية لزيارة المسلمين في الاتحاد السوفيتي وكان سبب تأخير تلبية تلك الدعوات هو ارتباطاتنا الكثيرة، واهتمام الرابطة بالمسلمين ومتطلباتهم في مختلف انحاء العالم ومسئوليات الرابطة العالمية هي التي أخرت هذه الزيارة وقد سررنا بتلبية الدعوة وزيارة هذه البلاد التي انجبت ائمة الحديث والتفسير والثقافة الإسلامية.

ورابطة العالم الإسلامي تتلقى العديد من طلبات المساعدة من مختلف الجماعات الإسلامية وتقدم لها معونات متنوعة لأننا في الرابطة نفهم المساعدة على المشروعات الإسلامية بأنها تعاون أخوي على أداء الواجب الإسلامي الا أن الادارات الدينية في الإتحاد السوفيتي يظهر أنها اعتمدت على مواردها الذاتية ولم يتم أن تقدمت إلى الرابطة بطلب مساعدة ولكننا بناء على الأخوة الإسلامية التي اكدها الله تعالى في محكم كتابه فقال «إنما المؤمنون اخوة» وهي قرابة اقوى من رابطة النسب والدم لأن الله عز وجل بارك روابطها في السماء وانطلاقاً من مبدأ التعاون الإسلامي على البر والتقوى فإن رابطة العالم الإسلامي تستطيع أن تقدم لكم كتباً إسلامية ومصاحف، كما تقدم لكم منحاً دراسية في الجامعات الإسلامية، وسيشمل التعاون التعريف بالمسلمين وأوضاعهم في الاتحاد السوفيتي إلى الجماعات

المسلمة في العالم من خلال ممثليها في مجالس الرابطة والجمعيات الإسلامية التي تتعاون معها فيمكن ان تكون الرابطة همزة وصل بين الادارات الدينية والجمعيات الإسلامية في العالم، كما يسرنا استقبال وفود الحج الرسمية واستضافتهم في موسم الحج، وكذلك يمكن الرابطة أن تتعاون معكم في طبع الكتب الدينية وهدفنا هو التعاون في ذات الله من أجل الثقافة الإسلامية.

وبصفتنا مواطنين سعوديين نستطيع ان نقول بان حكومة المملكة العربية السعودية يسرها التضامن مع الهيئات الإسلامية لخدمة الثقافة الإسلامية وإحياء التراث الإسلامي وتشجع التقارب مع الهيئات الشعبية في خدمة الدين الإسلامي.

وفي نهاية اللقاء قدم الدكتور/ شمس الدين باباخانوف هدايا تذكارية لأعضاء الوفد منها مؤلفات للإمام البخاري مطبوعة في هذه الجمهورية واهمها كتاب (الأدب المفرد) ومصحفاً مطبوعاً في (قازان) في الإتحاد السوفيتي. وجبة وطنية مما يلبسه العلماء والعاملون في الشئون الدينية في هذه البلاد وهى صفراء مقلمة وألبسنا إياها وسط تصوير المصورين.



الوفد في الادارة الدينية في طشقند بعد لبس الجباب التركستانية

فبادلته التحية بأن قدمت إليه آلة كاتبة عربية كنا احضرناها معنا من المملكة وهى لاتوجد في الإتحاد السوفيتي للبيع وإنا يحتاجون الى استيرادها بالعملة الصعبة وهذا مالم يستطيعوه. وكذلك قدمنا لهم آلة تصوير حديثة جداً تصور الأوراق وبخاصة الكتب المخطوطة وهى أيضاً لاتوجد للبيع في الاتحاد السوفيتي.

وذلك كله هدية من رابطة العالم الإسلامي إلى الادارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان، وقد كان لإهداء هاتين الآلتين وقع كبير في نفوس الجميع وذلك لندرة وجودهما في الادارات الدينية لذلك حرص المصورون و بخاصة منهم الذين كانوا يرافقون وفدناً من الروس على التقاط صور كثيرة لنا عند إهدائهما.

وقد أجلت تقديم الهدايا الشخصية للدكتور شمس الدين ونوابه وبقية المشايخ إلى مناسبة أخرى.

ثم قمنا بصحبة الشيخ الدكتور/ شمس الدين ونوابه والمرافقين والحاضرين في جمع كبير بجولة على هذا المبنى التاريخي القديم الذي يقع في مدينة



أمام قاعة الاجتماعات في الادارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان في طشقند

طشقند القديمة، وبني على هيئة مدرسة من المدارس القديمة التي كانت معروفة في مدن العالم الإسلامي تقام على مساحة واسعة وتؤسس فيها الأبنية لاقامة المدرسين والطلاب.

وقد بنى في القرن التاسع الهجري (السادس عشر الميلادي) و يقومون الآن بترميمه وتجديده.

ومداخله وقبابه مبنية بعقود من الآجر ولكنها مطلية بحيث تظن انها مبنية من الحجارة القوية.

وكان المبنى الذي هو ذو أقسام متعددة كما قلت يذكرني بمنظر بعض المدارس المبنية في عصر المماليك في مصر والشام وبخاصة في منظر العقود على مداخل الأبنية.

ورأينا مكاتب الادارة الدينية لمسلمي آسيا وقازاقستان والادارات التابعة لها، ومن ذلك المكتبة الإسلامية التي يرممون مقرها الآن، ولذلك كان الليث فيها غير مريح، وفيها كتب ومخطوطات كثيرة متنوعة، وبعضها نفيس غير ان الوقت لم يسمح بالاطلاع عليها.

وكذلك رأينا الكتب والمراجع التي زودت بها المكتبة في الزمن الأخير وهي قليلة وأهمها مقادير من المراجع المفيدة ارسلتها رابطة العالم الإسلامي هدية للمكتبة.

والسبب في قلة الكتب التي نشرت حديثاً او حتى مانشر قديماً و يباع الان في البلدان الإسلامية ولكنه لايوجد في هذه المكتبة أن النظام الاقتصادي المتبع في الاتحاد السوفيتي وهو لايعترف بالعمل الإسلامي المنتج لايسمح بتخصيص مبالغ بالعملة الاجنبية الصعبة لشراء مثل هذه الكتب ولاتوجد في داخل البلاد حيث يكن شراؤها بالعملة المحلية وهي الروبل الروسي الذي يتبرع به المسلمون من دخولهم المحدودة.

مسجد تلا شيخ :

كان موعد صلاة الظهر قد حان لذلك رأى الإخوة أن يقوم الوفد بز يارة مسجد (ثلاشيخ) ومعنى تلا: ذهبي..

وهذا أمر كانوا قد قرره ورتبوه من قبل. و يقع المسجد على مقربة من الادارة الدينية وكنا ندخل المسجد والمؤذن يبدأ الأذان فيؤديه بصوت شجى خيل إلىّ انه النوح بعينه وأنه يمثل نياحة المسلمين على مجدهم الضائع في هذه البلاد المسلمة العريقة. فأنصت للمؤذن الذي كان اذانه فصيحاً إلا أنه يخرجه بتأثر بالغ ربما كان ذلك لما تركته ز يارة وفد الحرمين الشر يفين في نفسه او نفس اخوته من المسلمين.



مدخل مسجد تلاشيخ في طشقند

ووجدنا طائفة من المسلمين في المسجد يبلغ عددهم حوالي المائة كلهم من المتقدمين في السن فالقيت فيهم كلمة ترجمها الأخ محمد صادق محمد يوسف نائب مدير معهد الإمام البخارى تضمنت التحية للمسلمين هنا من اخوانهم المسلمين في بلاد الحرمين الشر يفين كما تضمنت بيان قوة رابطة الدين بين المسلمين وأنها أقوى من رابطة النسب.

ودعوت لهم بأن يقدر الله لهم الاجتماع بإخوتهم المسلمين من سائر أنحاء العالم في موسم الحج.

وقد ركزت في كثير من الكلمات التي ألقيتها على موضوع الحج لأن الاخوة المسلمين في الاتحاد السوفيتي ممنوعون من أداء فريضة الحج ولايحج من البلاد كلها الاّ وفد لايزيد عدده على بضعة عشر رجلا كلهم من العاملين في الإدارات الدينية أو إمامة المساجد وأما سائر المسلمين فإنه لايسمح لأحد منهم بالحج.



داخل مسجد تلا شيخ في طشقند

وقد ألقى إمام المسجد الشيخ/ عبد الرشيد قارىء كلمة مكتوبة هذا نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين والنبيين محمد وعلى آله واصحابه اجمعين. أما بعد،

السلام عليكم ورحمة الله و بركاته،

أيها الضيوف الكرام! اسمحوا لي أن احييكم بتحية الإسلام وارحب بكم باسم مسلمى مسجدنا الجامع تّلا شيخ. اليوم بالنسبة لنا يوم الإبتهاج والسرور، لان في هذا اليوم المبارك شرفتم ديارنا انتم ياسادة الكرام وفود «رابطة العالم الاسلامي» برئاسة نائب الأمين العام لها سماحة الدكتور محمد ناصر العبودي (اطال الله تبارك وتعالى عمره وادام الله عز وجل صحته).

لقد قال الله تبارك وتعالى في كتابه المبين استعيذ بالله من الشيطان الرجيم **«يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم» صدق الله العظيم.**

عملا بقوله تعالى فانكم هممتم ان تزوروا اخوانكم في الايمان بالاتحاد السوفيتي. ولهذا نحمد الله تبارك وتعالى ونقول من صميم قلوبنا اهلا أتيتم وسهلا نزلتم بين اخوانكم في الدين! انني اتذكر دائماً لقائي معكم يا سماحة الدكتور و يا أصحاب المعالي في الأراضي المقدسة اذ كنت في من يرافق سماحة مفتينا الموقر في مكة المكرمة في قاعة رابطة العالم الإسلامي. كان هذا اللقاء الاخوى في اثناء الحج عام ١٩٨٤م الميلادي. وبعد عودتي من الزيارة المباركة انني تحدثت هنا في المسجد للمسلمين عن هذه الزيارة ولقائنا معكم.

ولذلك نرجو من الله سبحانه وتعالى ان تستمر هذه اللقاآت الأخوية في المستقبل لصالح الإسلام والمسلمين في جميع العالم.

واخيرا نرجو من الله تبارك وتعالى ان يحفظنا جميعا بمنه وكرمه من كل ماهو كريه وان يجمع شملنا لاجل ماهو خير وبركة لنا ولاخواننا المسلمين في جميع العالم فأدامكم الله بالخير والعافية في أداء واجبكم المقدس امام المسلمين والعالم الإسلامي.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

امام المسجد / الشيخ عبدالرشيد قارى

ولاحظت أن مسجد (ثلاشيخ) هذا قد رمم حديثاً أيضاً فعلى محرابه نقوش جصية حديثة كتب عليها **(قال النبي صلى الله عليه وسلم : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه) صدق رسول الله ١٣٩٧هـ.**

والعناية بكتابة هذا الحديث في بلد ليس لأهله الحرية في استقبال الضيوف الأجانب الا إذا أذنت لهم الحكومة بل يمكن القول بأنهم ليست لهم الحرية في استضافة أي ضيف الا إذا أو عزت لهم الحكومة بذلك يعطي الأهمية على الإنطباع الذي ينبغي في نظر الادارة السوفيتية ان يكون حسنا في نفوس الضيوف والزوار من المسلمين الذين يزورون هذه البلاد مع ان الذي لايمكن انكاره ان الجنس التركي في تركستان الشرقية والغربية هم من اكثر الشعوب إكراما للضيف وقد اخبرني الأخ الدكتور شمس الدين انهم بنوا هذا القسم من المسجد حديثاً.

هدية شقائق النعمان :

انتقلنا سيرا على الأقدام من مسجد (تلاشيخ) قاصدين معهد الإمام البخاري مخترقين المنطقة التي تقع فيها الادارة الدينية والمسافة قريبة فاعترض طريقنا احد الاخوة المسلمين وقدم إليَّ باقة من شقائق النعمان وهي زهور معروفة تنمو في هذه البلاد سماها اسلافنا العرب شقائق النعمان.

قال الرجل وهو يقدم الزهور: ان هذه الزهور زرعتها بنفسي في بيتي وهي تعبير منى عما اكنه من المودة والتقدير لكم اخواننا أهل الحرمين الشريفين وأقصى ما أتمناه ان تشرفوا بيتي بزيارة قصيرة.

كان يقول هذا ونحن ومن معنا وهم جمهور من الناس وقوف وقال الشيخ الدكتور شمس الدين ان هذا الرجل من عامة الناس واننا لم نعلم بأنه سيقدم هذه الزهور ولكنه فعل ذلك لأنه مثل غيره من المسلمين في هذه البلاد يودون أن يقدموا شيئا ولو رمزيا اليكم.



زهور شقائق النعمان التي اهداها أخ مسلم في طشقند

فسألته عن عمله فأجاب بما ترجمه الدكتور شمس الدين بأنه عامل في السكة الحديدية ومما يستحق التنويه به هنا ان عامة الشعب لايتصلون بنا ولانتصل بهم إلا إذا كان المصلون في المساجد يعتبرون ممثلين لعامة الشعب فاننا نخطب فيهم، ونوجه النصيحة إليهم، ولكننا لانستطيع أن ننفرد بهم أو أن نسمع مايريدون أن يقولوه. كما أن هذه الاجتماعات العامة المشهودة من المرافقين المسلمين ومن المرافقين الروس الذين كانوا معنا واستمروا ملازمين لنا طيلة رحلتنا في الاتحاد السوفيتي بصفة أنهم وفد اعلامي مرافق فيهم الصحفيون ومصورو التلفزة وعددهم خمسة كانوا لايفارقوننا أبداً إلى أي مكان نذهب إليه مما جعلنا نحن نتقيد خلال الاجتماع فيما نقوله ونسمعه لاخواننا بالآداب التي تفرضها الضيافة ومقتضيات اللباقة فلا نوجه من الحديث الا مانظن انه سيقبل من الاخوة المسلمين، ولايترتب عليه اية نتيجة عكسية بالنسبة لاخواننا المسلمين.

معهد الامام البخاري :

استقبلنا عند مدخل المعهد جمع من العاملين والطلاب فيه على رأسهم الأخ الشيخ الحاج/ صلاح الدين محيي الدين وقد احتفى بنا حفاوة كاملة وذكرانه لاينسي استضافة الرابطة له مع وفد حجاج الاتحاد السوفيتي عند ما أدى فريضة الحج.



داخل معهد الإمام البخاري

ثم قمنا بجولة على بعض الأقسام فيه والمسجد القديم الذي يقع في ركن منه أمامه رواق قديم ذو أعمدة بنيت على طراز خاص وهو ان يكون وسط العمود اعرض من أسفله وأعلاه ولكن ذلك يكون بشكل متدرج وكانما هو ساق الانسان ما دون الركبة قليلا إلى مافوق القدم وتقع فصول الدراسة في رواق قديم أيضاً وتشرع كلها مباشرة على حديقة واسعة خاصة بالمعهد مع ان الجو يكون شديد البرد في الشتاء.

ولاحظنا ان طلاب المعهد كلهم يتكلمون العربية بل لايكادون يتكلمون في المعهد بغيرها لأن لهم لغات أخرى في جمهورياتهم المختلفة التي قدموا منها في الأصل ومع ذلك لايزيد عددهم على ٥٨ طالباً يفترض ان يسدوا

حاجة المسلمين المتزايدة إلى ائمة المساجد والعاملين في الادارات الدينية وهو المعهد الاسلامي الوحيد في الاتحاد السوفيتي من مستواه وهناك مدرسة هي أقل منه مستوى وأقل عدداً وهى مدرسة ميرعرب في بخارى وفيها ٣٥ طالباً وفي معهد الامام البخارى هذا ستة طلاب من افغانستان جاؤا بعد قيام الحكومة الشيوعية فيها واثنان من ابناء المسلمين البلغاريين.

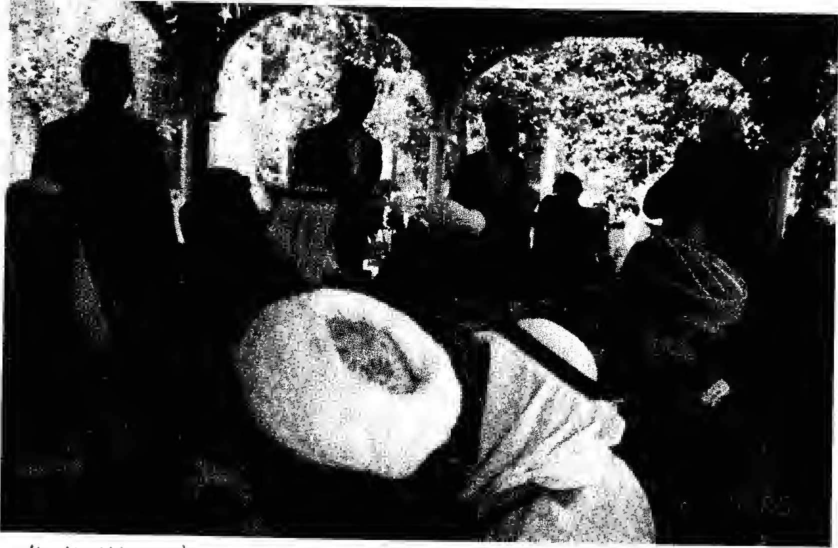


أثناء المأدبة في معهد الإمام البخاري الإسلامي في طشقند

ووجدناهم اعدوا مائدة غداء طويلة للجميع تحت مظلة في ساحة المعهد.

وخلال المأدبة تحدثت عن هدف زيارة الوفد للاتحاد السوفيتي بأنه الاطلاع والتعرف على حياة المسلمين في الاتحاد السوفيتي والتعاون معهم في ميدان الثقافة الإسلامية.

ثم وجه بعض الطلاب اسئلة عن اعمال الرابطة وعن العلاقات الدبلوماسية بين الاتحاد السوفيتي والمملكة العربية السعودية وموقف المملكة العربية السعودية من افغانستان.



جانب من المأدبة في معهد الإمام البخاري في طشقند (من اليسار) الشيخ عبدالله الباز فالاستاذ سالم السالم فالدكتور سعيد باديب.

وقد أجبتهم عن أعمال الرابطة ونشاطها في ميدان الدعوة الإسلامية وان الرابطة هيئة إسلامية عالمية وليست ادارة حكومية وان كانت حكومة المملكة العربية السعودية تساعدها على أداء اعمالها كما تساعد غيرها من الجمعيات الإسلامية وان الوفد هو من رابطة العالم الإسلامي وليس من وزارة الخارجية السعودية وانما يستطيع الوفد ان يقول بأن اختلاف النظام وغياب العلاقات الدبلوماسية لايعيق الرابطة من ممارسة نشاطاتها الثقافية والدينية ومثال ذلك ان بعثات الحج السوفياتية نقوم باداء فريضة الحج سنوياً على ضيافة الرابطة وقلت إن علاقة المملكة لم تكن سيئة مع الشعب الأفغاني حتى تتحسن.

السلام على القفال الشاشي :

القفال الشاشي ويقال له القفال الكبير: احد علماء الشافعية المشهورين ونسبته إلى الشاش تعطينا دليلاً إضافياً إلى ماهو معروف من ان كلمة طشقند او (تاشكند) بالتركية معناها بلدة الشاش، او بلاد الشاش. لان (تاش) معناها حجر، وقند محرفة عن كلمة كند التي تعني بلدة أو مدينة.

مثلما ان معنى كلمة (سمر قند) الذي هو اسم المدينة المشهورة في القديم يعني بلدة أو بلاد (سمر) وسمر تعني بالتركية القديمة غنية أو سمينة، و يقال: ان كلمة سمرقند محرفة عن لفظ سميز كنت بمعنى البلدة الغنية.

وإذاً تكون التسمية بطشقند رغم عدم ورودها في كتب اسلافنا العرب مشتقة من معنى صحيح وهي انه بلاد الشاش.

وتسمية الشاش كما يعرفها المؤرخون والبلدانيون العرب الذين كتبوا كتبهم بالعربية هي منطقة الشاش وليست مختصة ببلدة واحدها اسمها الشاش.

أما الامام الفقيه الشاشي الكبير الذي توفي في عام ٣٦٥هـ ودفن في هذا المكان من بلاد الشاش فإن المتأخرين المبتدعين قد بنوا فوق قبره قبة وزخرفوا داخل القبر وصار بعض الكبار يدفنون بجانبه ومن المدفونين قربه ولكن في فناء مكشوف الشيخ ضياء الدين بابا خانوف والد صديقنا ومرافقنا في هذه البلاد الدكتور شمس الدين بابا خانوف وكان رئيس هذه الادارة الدينية قبله وقد توفى عام ١٩٨٢م اى منذ ٤ سنوات.



في ضريح الإمام القفال الشاشي في طشقند

وقبره مسنم من الطين بحيث لم يزد على الحد الشرعى المعروف في بلادنا وليس مرفوعا عن الأرض.

وقد جلس الجميع وقرأ احدهم آيات كريمة عند القبر فانتهزت الفرصة بعد ذلك لبيان المفاسد التي تنشأ عن مخالفة الشرع في البناء على القبور، واتباع المبتدعين في هذا الأمر وأن الدين الإسلامي بنقائه وصفائه لايجيز تعظيم القبور، أو رفع الأبنية فوقها فضلاً عن التماس النفع والبركة منها، لأن صاحب القبر قد انقطع عمله بموته فأصبح بحاجة إلى من يدعو له و يستغفر له وصار لايملك من أمره شيئاً لذلك كيف يطلب منه أن ينفع الأحياء وربما كانت مثل هذه الكلمات القليلة أول الكلام الذي سمعوه عن هذا الموضوع.

طشقند المدينة القديمة :

انطلق الموكب من الادارة الدينية التي تقع في منطقة (ايستي شهر) اي المدينة القديمة مع ازقة غير واسعة معظم بيوتها من طابق واحد مبنية بالطين المطلي بطلاء أبيض كالجص يعطيه مظهراً جميلاً.

واسفل حيطان البيوت الطينية من الفخار من أجل ان يقي الطين رطوبة الأرض، وهذا مثلما كنا نفعله في بلادنا عند ماكنا نبني بيوتنا من الطين. ونجعل في اساساتها حجارة تقيها شر الرطوبة.

واكثر هذه البيوت غير بهيجة المنظر بسبب استحالة طلائها وعدم العناية بها وذكرني مرأى بعضها بالبيوت الطينية القديمة التي رأيتها في مكان بعيد عن هذا المكان في حساب المسافات وهو مدينة (أو رومسي) عاصمة تركستان الشرقية.

ومن المظاهر العجيبة في هذا الحي القديم ذي البيوت القديمة مارأيته فيه ولم أره في مكان قبله من العالم. وهو انابيب الغاز الطبيعي التي ادخلت

إلى البيوت بانابيب تشبه انابيب المياه الضيقة ولكنها ممتدة في الشوارع وداخلة إلى البيوت من انابيب ظاهرة للعيان تشوه منظر البيوت لأنها مرفوعة عن الأرض.

ورأيت في هذه الأحياء طائفة من النسوة المسلمات من البخاريات وقد تمسكن باللباس الساتر الذي لابد ان يغطى فيه شعر الرأس ولكنهن أقل في هذا الأمر من أخواتهن في تركستان الشرقية اللائى يتمسكن حتى بالحجاب في بعض الأحيان أما بالنسبة للشابات من النساء فإنه لاحجاب.

وسرعان ماخرجنا من هذه الاحياء القديمة من مدينة طشقند التي كنت اتمنى ان نبقى فيها فترة أطول من الوقت، وان اتمكن من تصويرها والحديث إلى أهلها المسلمين ولكن ذلك غير ممكن لأنه لم يوضع في البرنامج فألفينا أنفسنا في ميدان واسع أخضر لأن الأشجار كما قلت قد استكملت اخضرارها بعد موت الشتاء الطويل بخلاف أشجار موسكو التي كانت عندما رأيناها لاتزال هامدة لم تخلع عنها رداء الدخان الشتوي الطويل.

وقد تفتحت الأزهار في هذا الميدان البالغ الاخضرار وكأنما تبتسم لشمس الأصيل من هذا النهار الجميل.

ومن المفاجئ لي أن قال لي اخواني: إن هذا الميدان اسمه (ميدان خضره) بفتح الخاء بلغتهم وتعني الميدان الأخضر.

ثم انطلقنا مع شوارع واسعة اكثرها أقيم ونسق بعد الزلزال الذي أصاب طشقند فغدت هذه الشوارع كأنما هي جزء من مدينة حديثة لاعلاقة لها بتاريخ تركستان العريق او شعبها المسلم المجيد.

معرض الانجازات لشعب اوزبكستان :

هكذا ذكروا اسمه في برنامج الزيارة وذكروا أنه اشبه مايكون بالمتحف او المعرض لما انجزه شعب تركستان الغربية الذي يسمونه هنا شعب

(اوزبكستان) ليفرقوا بينه وبين بقية الشعب التركستابي والا فإن الازيك هم في الحقيقة جزء من شعب تركستان العريق الذي ينتمي جميعه إلى أصول تركية واحدة.

سار الموكب في الساعة الخامسة قاصداً المعرض تتقدمه سيارة عسكرية تطلق نفيرها المعتاد وتخترق والموكب خلفها إشارات المرور المغلقة وتقف السيارات لتفسح لها الطريق ولو كان لها حق المرور.

ووقفنا على مشارف المعرض الذي احتفوا به احتفاء عظيماً، حتى إنهم جعلوا أمامه فناء مكشوفاً مفروشاً بالرخام بمساحات واسعة تصل إلى حد الإسراف ورفعوه عن ارض رصيف الشارع بحيث تصعد إليه عدة درجات مع درج عريض، بل في عرض الفناء المرصوف الذي يصل عرضه إلى حوالي مائة متر.

ثم من هذا الفناء المكشوف المفروش بالرخام تصعد مع درج عريض أيضاً إلى فناء آخر مثله أو أوسع منه ولكنه أفخر في رخامه وترتيبه.

وكل ذلك من أجل أن يشعر الداخل إلى المعرض أنه يدخل إلى مكان محترم ربما كان من اكثر الأمكنة احتراما في تفكير الذي اقاموه من رجال الادارة في هذه البلاد الذين هم من الشيوعيين او من الذين يوجههم الروس من أهل البلاد وذلك لأنه يوضح ماقام به شعب اوزبكستان من الإنجازات المادية ومايتعلق بها.

وصلنا مدخل المعرض بعد سير طويل في هذه الأفنية المكشوفة التي سبقت الوصول إليه فاستقبلتنا فيه امرأة وقور في حدود الأربعين من عمرها قد ارتدت لباسا محتشما فقدموها لنا بأنها (مبارك) مسئولة في المعرض.

هكذا اسمها (مبارك) وليس مباركة وعلمنا انهم يسمون الاناث باسم (مبارك) إما لكونهم لايفهمون الفرق بين اسم المذكر والمؤنث من هذه اللفظة وإما لكونهم يريدون به المولود المبارك ولو كان انثى.

تقدمتنا (مبارك) بشئ من الخفر والاستحياء، الذي تتميز به بنات المسلمين حتى في البلدان الشيوعية في بعض الأحيان.

واخذت تطوف بنا أنحاء المعرض الذي اشتمل على الانجازات الصناعية مما رأينا بعضه معتاداً لايستحق كل ما احاطوا به المعرض من اهتمام.



الوفد في معرض المنجزات الاقتصادية لشعب اوزبكستان

ومن أهم المنجزات الصناعية المنسوجات والأدوات الفخارية وأثاث البيوت والآلات الصغيرة المختلفة من المنتجات الزراعية والتعدينية.

ثم قدمت احصاءات مكتوبة عن بعض الأشياء المتعلقة بما تنتجه هذه الجمهورية فقالت: تبلغ مساحة اوزبكستان ٤٤٧ الف كم٢ وسكانها ١٨ مليون نسمة وبها ١٢ محافظة وجمهورية ذاتية هي جمهورية قره قلبقستان المتمتعة بالحكم الذاتي وفي اوزبكستان ٤٢ معهداً عالياً وثلاث جامعات هي طشقند وسمرقند ونوخوس و٢٥٠ معهداً صناعياً ومهنياً وتسعة الآف مدرسة و٣٦ اكاديمية علمية وتوجد بها ١٧٥٢ مؤسسة صناعية تنتج ١٨٠ نوعاً من الصناعات الخفيفة والثقيلة والمتقدمة والقطن هو المحصول الاساسي في الزراعة إذ يبلغ انتاجه خمسة ملايين طن في السنة بنسبة ٦٥٪ من انتاج القطن الكلي في الإتحاد السوفييتي كما تنتج اوزبكستان الأرز.

وقالت ايضا: إن في اوزبكستان ١٣٠٠ دكتور متخصص في كافة العلوم ومعظمهم من خريجي جامعات المنطقة وتطبع في اوزبكستان ٢٥٠٠ عنواناً من الكتب المختلفة التي يبلغ عدد نسخها ٤٥مليون نسخة سنوياً وخمسة معاهد طبية وخمسة عشر معهد بحوث و٢٣ معهداً للتمريض وتقوم الدولة برعاية ٢٫٥مليون متقاعد و يقارب المواطنون المشتركون في الحروب الوطنية والذي لهم خدمات وطنية كبيرة لها خمسة عشر ألفاً وتقدم الخدمات الاجتماعية والثقافية تقديراً ورعاية خاصة من الدولة و يقدر عدد هؤلاء بمائة الف شخص.

وهذه الاحصاءات التي ذكرتها هي بالنسبة الينا أرقام مجردة لانستطيع التأكد منها إلا بدليل آخر وهو مالم يتوفر لنا لكوننا لانستطيع الاختلاط بالشعب، ومعرفة الأخبار عن الأوضاع الداخلية ومشاعر السكان تجاهها.

المسلمون يزيدون :

لفت نظري من المعرض لوحة اشارت إليها المسئولة (مبارك) من دون اهتمام كبير وتمثل أمرأة مسلمة تجلس وسط عدد من الناس اكثرهم من الشبان أو الصغار وقالت: ان هذه رقية بنت عثمان التي انجبت للوطن اربعة عشر ولداً هم هؤلاء الذين يحيطون بها وتذكرت بهذه المناسبة ماكنت قد قرأته وعرفته من قبل. وهو أن الإخوة المسلمين في الاتحاد السوفيتي يتزايدون بنسبة أكثر من التي يتزايد بها عدد الروس خمس مرات.

فسألت (مبارك) عما اذا كانت لديهم إحصاءات عن نسبة المواليد في هذه البلاد لأنها ذكرت احصاءات عديدة عن أشياء كثيرة لاندري صحتها.

فقالت: نعم، لدينا احصاء مهم في هذا الأمر وهو ان في جمهورية اوزبكستان هذه مائة الف بطلة من بطلات الاتحاد السوفيتي والبطلة هي المرأة التي تلد عشرة اولاد فتحوز على لقب بطلة الاتحاد السوفيتي و يعطيها هذا بعض المميزات في استعمال المرافق العامة، كالحافلات والقطارات مثلاً إلى جانب أمور أخرى.

جولة على المساجد :

لموضوع المساجد وزيارتها ومشاهدة حالها في البلدان الشيوعية معنى آخر غير المعنى الذي تعنيه رؤية المساجد وتفقدها في البلدان الحرة لأن حالة المساجد في البلدان الشيوعية التي صادرت المساجد في عنفوان قوتها الشيوعية أو صادرت اكثرها وانكرت على المسلمين ارتيادها للصلاة إنما تعطي صورة ولو كانت غير واضحة عن مدى الحرية التي يتمتع بها المواطنون المسلمون فيها. لأن الصلاة هي اهم أركان الإسلام بعد الشهادتين وعمارة المساجد سواء بالبناء أو عمارتها بالصلاة من أهم الأمور التي يحرص عليها المسلمون.

وقبل الجولة كان الدكتور شمس الدين بابا خانوف قد اخبرنا ان المساجد المفتوحة للصلاة في طشقند يبلغ عددها خمسة عشر مسجداً مع العلم بأن عدد سكانها يبلغ مليوني نسمة حوالي ٣٠٪ منهم من غير المسلمين هاجروا من انحاء الاتحاد السوفيتي إليها وسكنوا فيها و ينتمون إلى أصول روسية وأكرانية.

وكانت مدينة طشقند قبل الاحتلال الشيوعي فيها مئآت المساجد وحتى الآن فإن جمهورية اوزبكستان التي عاصمتها طشقند فيها أكبر عدد من المساجد الموجودة في الاتحاد السوفييتي كما قال رئيس مجلس السوفييت الأعلى في طشقند لنا يوم أمس من أن في الاتحاد السوفيتي ثلثمائة مسجد منها في جمهورية اوزبكستان ٨٢ مسجداً.

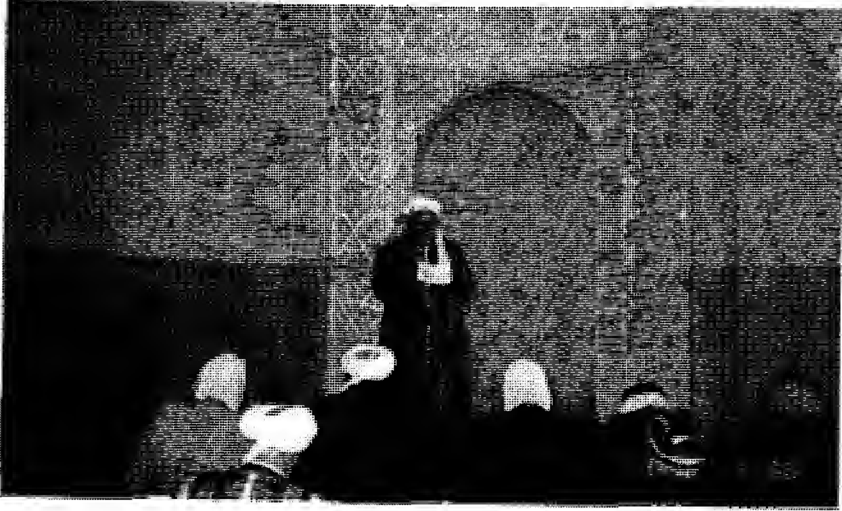
وقد تبين لنا ان المساجد الخمسة عشر التي ذكرها الدكتور شمس الدين إنما هي في طشقند وضواحيها إذْ كان مارأينا من المساجد خارج المدينة منها.

مسجد راه كنت :

توجهنا إلى جولة المساجد مباشرة من معرض الانجازات (المادية). مع شوارع طشقند الرئيسية الواسعة التي اعتدنا المرور بها او بمثيلاتها و يكثر فيها سير الحافلات العامة التي تنقل الناس بأجور رخيصة تعو يضاً لهم عن عدم وجود السيارات الخاصة عند اكثرهم كما توجد فيها خطوط قطارات الكهرباء (الترمواي) التي اختفت من كثير من المدن في العالم كما تكثر فيها الحافلات الكهربائية (الترولليي باص).

و يلاحظ المرء هنا كثرة الذين هاجروا من انحاء الاتحاد السوفيتي إلى هذه البلاد الإسلامية وهم بمظهرهم الأوربي يشبهون الأورو بيين الغربيين ماعدا المسنين من الجنسين الذين ينتمون إلى الشعب الروسي فانهم يتميزون بأجسام ثقيلة، وتقاسيم في وجوههم غليظة.

وصلنا مسجد (راه كنت) في احدى ضواحي طشقند على شارع يسمى شارع عبدالله اولانى فاستقبلنا جمع من الإخوة المسلمين على رأسهم امام المسجد الشيخ عبدالله حمدم.



الشيخ عبدالله حمدم إمام مسجد راه كنت في طشقند يلقي كلمة ترحيب بوفد رابطة العالم الإسلامي

وقد سلمنا على الجميع و يظهر انهم كانوا قد جمعوا اهل المحلة او بعض المصلين منهم لهذه المناسبة فألقيت فيهم كلمة مناسبة في المسجد ثم تجولنا في مرافق المسجد.

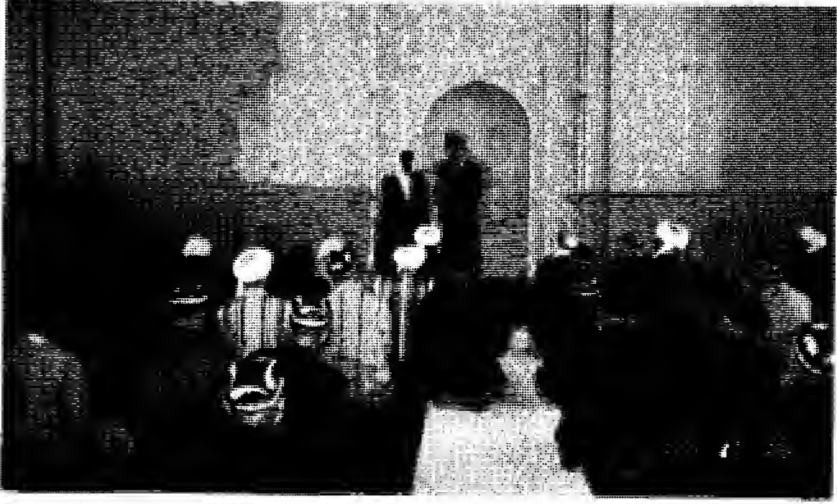
وقد لاحظنا أنهم هنا كأهل الصين لايقتصرون في بناء المساجد على المسجد الذي يصلى فيه كما هو معروف عندنا و يكون في العادة خلفه او بجانبه فناء مكشوف قد يستعمل أيضاً للصلاة عند الحاجة، ولكنهم يجعلون المسجد اشبه مايكون بمجمع سكني ففيه المصلى الرئيسي المعروف تفتح أبوابه إلى حديقة كبيرة، وأفنية واسعة تكون فيها غرف لأغراض متعددة و بعضها يكون سكنا لإمام المسجد او المؤذن.

وجلسنا في غرفة مستطيلة من احدى ملحقات المسجد داخل حديقته إلى مائدة طويلة وجدناهم قد جهزوها بالمقبلات والمكسرات والفاكهة المجففة وهى شبيهة بالموائد التي تسمى حفلات الشاي تكون في غير اوقات الوجبات من الطعام المعتادة.

مما ذكرني بما يفعله أهل تركستان الشرقية عندما كنا نزورهم في مساجدهم دون أن يكون الوقت وقت عشاء او غداء فيقدمون مثل هذه الموائد الحافلة و بخاصة عندما رأيتهم وضعوا على المائدة هنا سكر النبات كما كان التركستانيون الشرقيون يضعونه لايكتفون بالحلوى عنه.

وحدثنا إمام المسجد عن عدد المصلين فذكر انه في الصلوات الخمس المعتادة يكون في حدود الثلاثين الا في صلاة الفجر فيز يد قليلاً على ذلك قال: وأما صلاة الجمعة فيرتفع عدد الذين يحضرونها إلى الف مصلٍ.

وذكر أن هذا المسجد أقيم قبل ٢٥ سنة وقال: ان بناءه كان عام ١٩٦١م. ولم يذكر ما اذا كان أقيم في مكان مسجد قديم كانت الحكومة قد صادرته كما هي حال بعض المساجد التي قالوا: انها بنيت حديثا فهي في الحقيقة قد رممت ترميما بعد أن اعادتها الحكومة إلى أهلها المسلمين. وذلك حدث بالفعل ولكن على نطاق ضيق.



المؤلف يتكلم في مسجد راه كنت في طشقند

وقد قدمنا له هدية شخصية هي مصحف كريم وللمسجد مصحف أيضاً واهديناهم مع كبار المصلين عدداً من المناظر الجميلة للحرمين الشريفين وهي شيء له قيمته عندهم لأنها لا توجد في بلادهم للبيع ولايسمح بدخولها إليها.

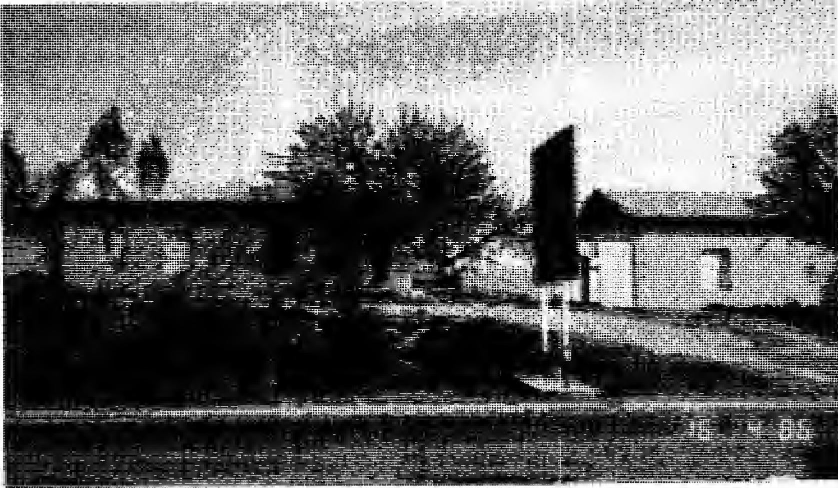
في ريف طشقند :

سنزور مدينة اسمها عندهم (قاوون جي) و يعني ذلك مزارع البطيخ أو (البطيخي) المنسوب للبطيخ وذلك ان البطيخ اسمه عندهم (قاوون) و(جي) اداة نسبة في التركية نعرف منها ما لايزال مستعملاً في بلادنا قبل (قهوجى) اي صاحب القهوة وعربجي صاحب العربة وكنت أبديت رغبتي للأخ الدكتور شمس الدين بابا خانوف في رؤية ريف من ريف هذه البلاد (الشاشية): نسبة إلى ناحية الشاش التي كانت تعرف بها المنطقة في كتبنا العربية القديمة. فرتب هذه الزيارة للمسجد مع المرو بالريف.

وتبلغ المسافة إلى أقصى نقطة هنا ٣١ كيلو مترا فقد ذكروا ان الوقت متأخر على زيارة الأماكن الأبعد من ذلك.

انطلق الموكب من طشقند وهو مؤلف من رتل من السيارات تتقدمها السيارة العسكرية المعتادة وبعدها سيارة رئيس الوفد كاتب هذه السطور وهي سوداء رسمية طويلة كالتي يركبها الضيوف الأجانب ممن هم في رتبة وزير أو رئيس وزراء.

فتركنا طشقند متجهين جهة الغرب وكان الجو صاحيا وكأنه جو الربيع في مدينة الرياض ولا أثر للبرد الذي خفناه في هذه الأيام بل ان المرء يشعر بالحر إذا كان في مكان مغلق النوافذ.



منظر من الطريق في طشقند

وقد سلكنا طريقا ازفلتيا ذا اتجاهين إلا أنه خشن يحتاج إلى المزيد من العناية والاصلاح يشق ريفا معموراً بزراعة اكثرها حقلية.

وأهم مافيه القطن الذي بذروه لتوه. ولم يظهر من الأرض بعد فهذه الأيام الربيعية هي أيام بذر القطن وهذه المنطقة تشتهر بانتاج القطن الوفير.

وتبدو المزارع أو الحقول بحدودها مقسمة إلى نوعين احدهما المزارع الكبيرة الواسعة وهي مزارع حكومية (اسوفخوز) أو مزارع تعاونية أو جماعية (كلو خوز).

والنوع الثاني مزارع صغيرة يتضح ذلك من ضيق حدودها ومن وجود بيوت صغيرة في اطرافها.

وقالوا لنا : ان هذه المزارع الصغيرة المحدودة هي ملك لعامة الناس يجيز لهم النظام أن يزرعوها بأنفسهم و يبيعوا مايزيد عن حاجتهم مما تنتجه وان يبنوا على جزء منها بيتا لهم ولكن لايجوز لمن يملكها أن يبيعها أو يبيع البيت وحده وإنما يورثها صاحبها لاولاده من بعده إذا لم تكن لهم اراض قبلها او ليس لهم بيت خاص بهم واذا كان الأمر خلاف ذلك بمعنى أن الوارث كان له بيت خاص سواء كان بيتا ريفياً مستقلا او بيتا حكوميا من الشقق التي تؤجرها الدولة كان عليه ان يتخلص من احد البيتين ضمن مدة حددها القانون والا صادرت الحكومة البيت الجديد لأن القانون لايجيز للمرء أن يملك أكثر من بيت واحد.

ومن المناظر الجميلة في هذا الريف منظر حدائق التفاح التي اورقت اشجارها وهي في صفوف منتظمة، وكلها مزارع تعاونية أو مزارع حكومية.

وكان منظر المصانع ذات المداخن التي تنفث الدخان، وذات الابراج منظراً مألوفاً في ضواحي المدينة وحتى في هذا الريف، حيث تقام على الطريق العام، لأن الطرق العامة المزفلتة ليست كثيرة عندهم كثرتها في ريف البلدان الغربية وحتى البلدان ذات الرواج الاقتصادي مثل بلادنا وكذلك كان منظر أبراج الكهرباء مألوفاً شاهدناه اكثر من مرة غير أن الأبراج كانت في منظر غير أنيق بعضها قد بعد عهده بالطلاء حتى بدا كأنما قد علاه الصدأ وهي أصغر من أبراج الكهرباء التي ترى في الريف الأمريكي او حتى من ابراج الكهرباء الحديثة عندنا.

مدينة زارع البطيخ:

اعترض الطريق العام الذي كنا نسير عليه وذكروا انه يصل من طشقند إلى سمرقند طريق آخر ذاهب جهة الجنوب و يسمونه «بنكي يول» أي

الطريق الجديد وقد أقيمت عليه مجموعة من المنازل الفت قرية صغيرة سميت باسمه (ينكي بول) فتيا سرنا معه قاصدين قرية (زارع البطيخ) أو «مدينة (قاوون جي) كما يسمونها.

فكان أول ماوصلناه من بيوت هذه المدينة بيوتاً من الطين المطلي بالجص او مادة بيضاء والمسقفة بالصفيح على هيئة سنام، وبعض البيوت مبني من الطين ومتروك دون طلاء والأهم من ذلك اننا شاهدنا النسوة في شوارعها وهن البخاريات المتسترات اللائي يضعن عل رؤسهن المناديل التي تغطي الشعور مما يعطي الانطباع الصحيح بأن هذه المدينة مدينة للمسلمين التركستانيين أهل البلاد الأصلاء، وليست مثل طشقند التي غلب الطابع الحديث على أبنيتها فأبعد عنها طابعها الإسلامي العريق وصار الكفار من الروس والأكرانيين يغالبون أهلها على مظهر السكان ليكونوا كطابع البناء لاصلة لهم بالجنس التركي المسلم المجيد. ولكن (أمر الله غالب ولله جنود من مواليد) فالمسلمون هنا يدافعون عن بلادهم بأسلحة أعطاها السوفييت لشعبهم فاستعملها المسلمون دونه ومن اهمها سلاح التكاثر في الأنسال التي أرادوا ان يزيدوا به بلادهم قوة إلى قوة الصناعة والسلاح.

ووقف الموكب عند مسجد (آلتون آباد) حيث وجدنا في الاستقبال عدداً كبيراً من الاخوة المسلمين من اهل القرية يتقدمهم امام المسجد الشيخ (عارف يولداش).

واجتمع الوفد مع كبار جماعة المسجد وامامه ومؤذنه على مائدة كبيرة أقاموها في غرفة ملحقة بالمسجد حفلت بالمقبلات والنقل الذي صار عوام الكتاب عندنا يسمونه بالمكسرات وبطيخ من العام الماضي فذكرني هذا ببطيخ كان بنو عمومتهم في تركستان الشرقية يقدمونه لنا في مثل هذه الأيام من شهر ابريل عندما ماكنا في زيارتهم قبل عامين تماما وكان الجو عندهم بارداً ولكنهم ذكروا لنا أن هذا البطيخ من انتاج العام الماضي حفظوه في غرف تحت الأرض ويبقى دون ان يفسد بسبب شدة البرد عندهم.

واليوم جاء به هؤلاء الاخوة وهو من انتاج العام الماضي الذي حفظوه بما لم يخبرونا به ولكنه أكد لنا اسم المدينة (قاوون جي) الذي يعني زارع البيطخ فهو لم يقتصر على زراعته وأكله في موسمه كما يفعل الناس في سائر المزروعات من الخضروات في القديم وانما حفظوه إلى هذا العام.

وهناك تفاح وكمثرى ولبن رائب وخبز وخضرات إلى جانب المشروبات التي منها عصير الفاكهة والماء المعدني الذي احضروه من طشقند.

ثم الشاي الأخضر وهم في عاداتهم أن يقدموا للضيف الشاي أكثر مما يقدمون له القهوة وهذا أمر عرفناه من بني عمومتهم في تركستان الشرقية ومن جيرانهم في الصين.

وجرى خلال المائدة حديث عن شئون هذه البلاد التي يسمح بالحديث عنها. لأن للحديث حدوداً في البلدان الشيوعية لاتجوز مجاوزتها فكان الحديث عن الرى في هذه المدينة الزراعية فذكروا انه من قنوات مائية وان اكثر المزروعات لابد من ان تروى بالماء ولاتقتصر على المطر.

ومن الأحاديث المفيدة مايتعلق بالمسجد فقالوا: انه بني قبل ست سنوات، وانه نقل من مكان كان فيه قديم إلى هذا المكان بمعنى ان المسلمين عوضوا عن القديم بهذه الأرض التي اقاموا عليها هذا المسجد وأنه اكتمل بناؤه في عام ١٩٨١م وكل نفقات البناء تمت من تبرعات المسلمين.

وقالوا ان عدد سكان مدينة (قاوون جى) وضواحيها يبلغ ثمانين الف نسمة كلهم من المسلمين.

وبعد المائدة كانت جولة على المسجد الذي يتبعه مرافق متعددة وتحيط به حديقة واسعة فيها أشجار مثمرة وأخرى من أشجار الظل كانت موجودة في الأرض قبل عمارته.



في مسجد آلتون ــ آباد «الجامع بمنطقة» ينكي بول

وحاولت ان أصور أشياء مما يحيط بنا في القرية أو من مناظر سكانها أو بيوتها الطينية، لكن كانت عيون المرافقين الروس وبخاصة الوفد الاعلامي تلاحقنا بحجة تغطية الرحلة تغطية اعلامية والامر كذلك إذا كان المراد به إعلام المسئولين عندهم ومن يهمهم الأمر بكل حركة من حركاتنا فكانوا يلاحقونني بعدسات التلفزة التي تصور كل شئ ولم أر من اللائق أن اقوم بتصوير مالا يريدون تصويره فأعرض نفسي لمخالفة قواعد اللياقة في الضيافة أو أعرض نفسي لتصرف غير مناسب منهم قد يضطرون إليه.

وكذلك الأمر بالنسبة للاخوة المرافقين من أعضاء وفدنا الذين لم يستطيعوا الانفراد بأنفسهم او الذهاب إلى مايريدون الذهاب إليه لتصويره لكثرة المرافقين.

ورأينا بعض بيوت القرية الطينية اي التي بنيت من الطين قد جعلوا لها سقوفاً ممالة إلى جهة واحدة وليست مسنمة كاملة التسنيم وذلك من أجل ان تنزلق عنها الثلوج عندما تسقط عليها في الشتاء.

وهـذه عادة رأيتها شائعة في تركستان الشرقية وفي شمال الصين الشعبية وذكـرت ذلـك فـي كتـاب: «فـي مـهـد «الترك» الذي كتبته عن زيارتي لـتـركستان وكتاب «داخل أسوار الصين».. الذي ألفته عن رحلات داخل الصين الشعبية.

ومـن الأشـيـاء الـتي استرعت انتباهي هنا ان بعض حوائط المدينة التي هي اسوار بعض الاماكن المهمة فيها مبنية من الطين غير المطلي وقد ذكرتني بما كان موجوداً في بلادنا قبل حوالي أربعين سنة.

وشـئ آخـر ذكـرني ببعض مافي بلادنا وهو منظر مقبرة للمسلمين خالية مـن البناء عليها تماما وإنما وضعوا على القبور شواهد من الحجارة ليس عليها غيرها.



مع المسلمين في جامع آلتون ــ آباد

إلى محلة كما لان :

ودعـنـا اخوتـنـا الـكـرام أهـل (قـاوون جي) وتحرك الموكب متجها جهة أخـرى خارج مدينة طشقند حيث وصلنا إلى (محلة كما لان) و يسمونها (كما

لان محلة سي) ومحلة في لغتهم هي محلة العربية بمعنى المكان الذي حل فيه القوم.

وتبعد ٢٧ كيلو مترا من طشقند وذلك لزيارة أهلها ورؤية مسجدها.

واستقبلنا فيها أيضا عدد من الاخوة المسلمين منهم الشيخ (لطف الله بن نادر قادري) إمام هذا المسجد وخطيبه.

وزرنا مسجدها الذي يسمى مسجد (خوجا علم بردار) وعلم بردار تعني حامل الْعَلَم او رافع الراية فكلمة (عَلَم) هنا بفتح العين واللام هي كلمة علم العربية بمعنى راية.

وأدينا صلاة العصر جماعة في المسجد مع المصلين والقيت فهم كلمة مناسبة مختصرة.



داخل مسجد خوجه بردار في طشقند الشيخ عبدالله الباز بجانبه أعضاء الوفد.

وتجولنا في مرافق المسجد وافنائه جميع فناء وهو الساحة المكشوفة ــ ولكنها هي مشغولة في بعض الأماكن بأشجار من الأشجار المثمرة واشجار أخرى من أشجار الظل وبمرافق تابعة للمسجد.

وهي واسعة بشكل ملفت للنظر ولذلك لم أعجب حينما قال الامام الأخ (لطف الله نادر) إن مساحة المسجد ومرافقه تبلغ عشرة الآف متر مربع.

وهو مسجد قديم بل انه موغل في القدم ذكر أهله ومنهم الامام ان تاريخ أول بنائه يرجع الى عهد الخليفة عمر بن عبدالعزيز وذلك في عام ٥٧ من الهجرة وانه جدد عدة مرات، وآخر مرة جدد بناؤه فيها كانت في عام ١٩٧٥م.

ثم انتقلنا إلى غرفة في المسجد مكتوب عليها اسمها: (نكاح خانة) اي غرفة عقد الزواج وقد اعدوا فيها مائدة حافلة بالنقل والفاكهة والخبز والقى الامام كلمة بالعربية مختصرة عن تاريخ المسجد.

وقرية بالفانج.

وتسمى أيضاً بمحلة إذ يسمونها (بالفانج محلة سي) وبالفانج ليست عربية ومحلة هي العربية التي سبق ذكرها في التي قبلها و(سي) اداة اضافة شائعة في التركية وتبعد محلة بالفانج عشرين كيلو متراً من طشقند.

زرنا فيها مسجدها ويسمونه (مسجد ضياء الدين) اضافة إلى الشيخ ضياءالدين باباخانوف والد الدكتور/ شمس الدين رئيس الادارة الدينية هنا ومضيفنا في هذه البلاد.

وذلك لما ذكر لنا امام المسجد وخطيبه الشيخ (ذاكر اسماعيل) من أن المسجد حديث بني في عام ١٩٨٠م بمساعدة المسلمين من المنطقة وأن الشيخ ضياء الدين باباخان الرئيس السابق للادارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان هو الذي عينه إماماً على هذا المسجد في وقت كانت الأرض خالية من البناء وسعى مع المسلمين في بناء المسجد وكانت مساهمات ومساعدات المسلمين تختلف من التبرع النقدي إلى التبرع ببعض مواد البناء وبعضهم بالجهد البدني.

وخلال وجود الوفد في المسجد حضر عروسان إلى المسجد مع بعض ذويهما برجاء أن يعقد إمام المسجد قرانهما شرعاً وكان العروسان في العشرينات من العمر وقد قاما بتسجيل عقد الزواج في مكتب الدولة رسمياً قبل حضورهما إلى المسجد وسألهما الإمام عن بعض الشروط الخاصة بالنكاح مثل مقدار المهر وموافقة ولي الأمر ثم بارك زواجهما وخطب خطبة النكاح ودعا الوفد لهما بالتوفيق والذرية الصالحة.



صورة تذكارية لعقد الزواج مع المتزوجين في مسجد ضياءالدين خان في طشقند

تعليق على مشاهداتنا في هذه المساجد :

تمتاز المساجد التي زارها الوفد بالنظافة وحسن الفرش ولكن لا توجد فيها مصاحف او كتب اسلامية وانما يوجد ذلك في غرفة الإمام او المكتب المجاور للمسجد وقد لاحظ وفد الرابطة ان كل المصلين في المسجد هم من كبار المسلمين سناً والمتقاعدين وقلما يوجد شاب بينهم.

وكان الدكتور/ شمس الدين بابا خان رئيس الادارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاتستان والمرافق لوفد الرابطة يقدم وفد الرابطة الى جماعة المصلين في كل مسجد مرحباً بمقدمهم إلى بلادهم تلبية لدعوة الادارات

الدينية في الاتحاد السوفيتي ومعرفاً برابطة العالم الإسلامي واعمالها الإسلامية وكنت أحدثهم بأن رابطة العالم الإسلامي هيئة شعبية عالمية غير حكومية تعمل على تنشيط الثقافة الإسلامية في كل انحاء العالم وان زيارة وفد الرابطة إلى ديارهم قد تأخرت بسبب الارتباطات والمسئوليات العالمية التي تتحملها الرابطة.

وقد فرح المسلمون بخبر زيارة وفد الرابطة لمسلمي الاتحاد السوفيتي وكان كثير من المسلمين في العالم الذين لهم ممثلون ومندوبون في مجالس الرابطة والجمعيات الإسلامية التي تتعامل مع الرابطة تستفسر من الرابطة عن احوال المسلمين في الاتحاد السوفيتي، ويقولون كيف يمارس المسلمون شعائرهم الدينية وهل يربون ابناءهم على الإسلام ويعلمونهم تعاليم واحكام دينهم؟.

وكنا نقول لهم بأننا سنفيدكم عن احوالهم بعد زيارتهم. واستفسارهم واهتمام المسلمين بكم ينبع من امرين هامين، اولهما الأخوة الإسلامية التي هي اقوى من قرابة النسب والدم وهي صلة عقد عراها الله عز وجل في السماء فقال (إنما المؤمنون اخوة) وقرابة النسب زائلة لأنها من التراب.

واهتمام المسلمين بعضهم ببعض هو واجب إسلامي قال الرسول صلى الله عليه وسلم المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا.

والأمر الثاني هو الثقافة الإسلامية المشتركة وقد اسهم علماء هذه البلاد بقسط وافر في ميدان المعرفة والفكر الإسلامي ولايزال المسلمون في كل مكان يذكرون الإمام البخاري صاحب اصح كتاب بعد القرآن الكريم والمسلمون عند مايتساءلون عن احوالكم يتطلعون إلى أن يكون في احفاد أولئك العلماء من يعيد سير أجدادهم وآبائهم في الثقافة الإسلامية ولايمكن أن يتم هذا إلا بتعليم الأبناء أحكام الدين وتربيتهم على الإسلام وحثهم على الصلاة والعبادة.

كما قلت لهم: إن رابطة العالم الإسلامي يسعدها أن تتعاون مع

الادارات الدينية فيما من شأنه تنشيط الثقافة الإسلامية ودعوت الله عز وجل أن يعينهم على حفظ دينهم وإصلاح أولادهم وأن يحقق الاجتماع بهم مرة ثانية في الأراضي المقدسة في الحرمين الشريفين.

مأدبة المفتى :

وهو الدكتور شمس الدين بابا خانوف رئيس الادارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان و يسمونه هنا المفتي مثل مايسمون غيره من رؤساء الادارات الدينية بالمفاتي جمع مفتي باصطلاح اسلافنا مؤرخي العصور الإسلامية الوسطى باستثناء الشيخ عبدالله شكرباشازاده رئيس الادارة الدينية لمسلمي ماوراء القفقاس الذي مقره في مدينة باكو عاصمة اذربيجان فانهم يسمونه شيخ الإسلام لأنه الشيعي الوحيد بين رؤساء الادارات الدينية في الاتحاد السوفيتي اذ يكثر الشيعة في جمهورية اذربيجان الاتحادية السوفيتية وتبلغ نسبتهم في العاصمة (باكو) وما حولها حتى جنوب البلاد حوالي ٧٠٪ وسوف أقص عليك نبأ الرحلة في اذربيجان ومابعدها من أنحاء الاتحاد السوفيتي التي نزورها بعد انتهاء زيارتنا لبلاد بخارى وماوراء النهر في كتاب مستقل عن هذا بإذن الله.

غربت الشمس اليوم في حدود التاسعة فصلينا المغرب مسرعين لأن موعد مأدبة الشيخ الدكتور/ شمس الدين في التاسعة والنصف.

وصلنا بيتا له واسعاً خاصاً به على هيئة دارة ــ فيللا ــ خاصة لايتيسر لعامة الناس أن يسكنوا في مثلها، ولو استطاعوا دفع الأجرة لأن الدولة تقصر السكن في هذه البيوت الواسعة المنفردة على كبار موظفي الدولة الذي يتمتعون بامتيازات خاصة مادامو في مراكزهم الوظيفية حتى اذا فارقوا وظائفهم فارقتهم تلك الامتيازات.

وقد عاملت الحكومة رؤساء الادارات الدينية معاملة كبار الموظفين فسمحت لهم بالسكنى في هذه البيوت الواسعة.

والقول بأنها سمحت لهم بالسكن هو صحيح الصحة كلها لأنَّ المساكن مملوكة للدولة وهي التي تؤجرها على الناس ولذلك تقصر تأجير هذه البيوت الواسعة على ذوى الشأن من كبار الموظفين أو على المؤسسات العامة.

استقبلنا الدكتور/ شمس الدين عند المدخل الخارجي لدارته الواسعة وبخاصة في مقاييس المساكن في الاتحاد السوفيتي التي لا تزيد في العادة عن اثنى عشر متراً مربعاً للشخص الواحد في المدن.

أما في الأرياف والقرى فانه يمكن الشخص أن يكون له بيت خاص به ينفرد بسكناه اذا بناه في أرضه أو ورثه عن أحد أبويه ولم يكن له بيت غيره ولو بطريق الايجار.

وقال الشيخ الدكتور/ شمس الدين، وهو يتقدمنا إلى داخل المنزل ويعرف ان سعة الدارة هذه بل مجرد سكناه فيها أمر ملفت للنظر: كل رجال الدين لهم بيوت مثل هذا ولايسكنون في الشقق.



مأدبة العشاء في منزل الدكتور شمس الدين ضياءالدين بابا خانوف

ورأينا المائدة في بيت الشيخ قد مدت وقد جزئت إلى أقسام لأن الغرفة الواحدة لا تسعها لكثرة المدعوين الذين كانوا من الشخصيات الإسلامية

والعاملين في الحقل الإسلامي مثل العاملين في الادارة الدينية وائمة المساجد والمدرسين في معهد الامام البخارى إضافة إلى مائدة صغيرة منفردة عليها الوفد الإعلامي الروسي المرافق لوفدنا وعدد افراده خمسة وقد اعتاد الاخوة المسلمون على ان يضعوا لهم مائدة في المآدب التي تقام للوفد ولم يجعلوهم يشاركوننا مائدة واحدة.

وكان يخدم المائدة و يساعد في تقديم الصحون المتعددة وانواع الطعام المنوعة بعض المشايخ والعاملين مع الشيخ لأن لايوجد خدام للأشخاص أو عمال عند كبار الموظفين في الاتحاد السوفيتي وإنما العمال كلهم عمال عند الدولة غير أنه يحدث أحياناً ان يكون لرئيس المؤسسة العامة من المكانة عند عمالها ماقد يساوى من بعض النواحي السلطة التي تكون لرئيس الشركة والمؤسسة الخاصة على عماله.

وقد ذكرتني بعض انواع الطعام التي قدمت بموائد شهدناها في تركستان الشرقية التي هي شقيقة تركستان الغربية هذه التي اسماها الاتحاد السوفيتي الآن بوسط آسيا السوفيتية وذلك مثل (اليغمش) الذي نعرفه في الحجاز من طعام البخاريين أهل بخارى يستوي منهم عندنا من كان من تركستان الشرقية ومن كان منهم من تركستان الغربية.

وكذلك الحساء الدسم الذي توضع فيه الشعيرية إلى غير ذلك.

وقد وجدنا مقبلات المائدة او مقدماتها وفيها النقل والفاكهة والخبز قد اعدت قبل وصولنا ثم رفعت و بدلت بأطباق تحوي الاطعمة الحارة.

وكانت مائدة مفيدة لأننا سمعنا خلالها أحاديث عديدة استفدنا منها الكثير عن أحوال هذه البلاد دون ان يصل ذلك إلى الناحية السياسية.

وكان الحديث معهم ينقطع عند مايقارب الوصول إلى الأمور السياسية فيكون عنده ما يكون عند جواب مايكره قوله وهو السكوت.

وفي نهاية المأدبة قدم الدكتور/ شمس الدين هدايا لاعضاء الوفد وقدمت له هدايا من الرابطة منها عباءة عربية وساعة للتنبيه وسجادة للصلاة وتمر من تمر المدينة المنورة ومصحف كريم مذهب من طبع المدينة المنورة.



جانب من المأدبة في منزل الدكتور شمس الدين بابا خانوف في طشقند

عدنا إلى فندق ازبكستان الذي ننزل فيه فوجدناهم قد جاءوا بما اعتادوا على تقديمه للضيوف ووضعه في غرفهم في الفندق من النقل وهي المكسرات وقد وضعوا منها لوزاً كاللوز المعروف عندنا باللوز البجلي الذي تنتجه المنطقة الواقعة جنوباً من الطائف في بلادنا وحب من حبوب البطيخ مملح وكذلك الفاكهة التي هي الكمثرى والتفاح وكله مماتنتجه هذه البلاد ومعه شيء يعتبر طرفة في هذه البلاد في هذا الوقت من السنة وهو الخيار الذي لايوجد عندهم في هذه الأيام إلا مزروعاً في بيوت محمية من الزجاج او من اللدائن.

ووضعوا مع ذلك زجاجات من الأشربة المؤلفة من عصير الفاكهة واهمها هنا عصير العنب الذي يكثر في هذه البلاد وتتعدد انواعه فيها ولذلك وضعوا لنا في الفندق زبيباً ممتازاً كنت آكل منه رغم الشبع، ومع شراب الفاكهة شراب غازى من الكوكاكولا والماء المعدني.

يوم الجمعة ٩ شعبان ١٤٠٦هـ ١٨ ابريل ١٩٨٦م

نزلنا في الصباح من الطوابق المرتفعة في الفندق وبعضنا نازل في الطابق التاسع على اقدامنا من الدرج لأن الفندق كبير وملئ بالسياح من الأجانب، وفيه أربعة مصاعد طال انتظارنا لها ان تقف فكانت تمتلئ من الطابق الذي تقف فيه ولايكون فيها مكان او لاتجئ أصلاً وقد تكرر معنا ذلك اكثر من مرة ورأيت بعض السياح الأجانب وأغلبهم من الأوروبيين او من ذوي المظهر الأوروبي من الأمريكيين ومنهم أناس رأيتهم من فنزويلا في امريكا الجنوبية اضافة إلى الجنس الأصفر الذين اكثرهم هنا من اليابانيين كلهم جاء إلى هنا رغبة في رؤية هذه البلاد المسلمة العريقة.

وقصدنا مائدة طويلة كانت قد اعدت من قبل في ركن من المطعم لنا خاصة. وقد قال لي احد العاملين في المطعم وكنت واقفاً عند بابه اتحدث مع بعضهم، أتريد مائدة (المسلمان) اي المسلمين؟ إنها هنا وحدها ظناً منه انني لا أعرف موضعها.

وقد تناولنا الافطار في الساعة الثامنة وتناوله معنا المرافقون وبعض العاملين في الادارات الدينية هنا وعدد الجميع يزيد قليلا عن العشرين.

وكان الطعام جيداً والمائدة حافلة، الا ان الخدمة ليست بذاك فالخدم يبطئون في بعض الأحيان في إحضار مايطلب منهم. وربما كان السبب في ذلك قلة عددهم بالنسبة إلى رواد المطعم الكثر.

معهد الاستشراق :

كانت الفقرة الأولى في عمل هذا اليوم زيارة معهد الاستشراق في طشقند وقد يسمونه (معهد ابى الريحان البيروني للاستشراق).

وعندما أردنا مغادرة الفندق إلى المعهد كان الدكتور/ شمس الدين بابا خانوف واقفاً معي في انتظار الرفاق، وكان يلبس الجبة الرسمية الخاصة

لكبار المشايخ عندهم وهي صفراء مخططة واسعة الالمام غريبة المنظر وهي التي أهدى لنا الدكتور أمس مثلها وكنت ارتدى الملابس العربية كاملة فوقها العباءة فتجمهرت اعداد من السياح الأجانب الذين وجدوا في هذا الزي الغريب من الطرافة اكثر مما وجدوه في شوارع طشقند العامة ذات المظهر الأوروبي المعتاد فأخذ بعضهم يستأذن في التقاط الصور وبعضهم كان يسارع لاختلاس الصورة خوفاً من ان نركب السيارة قبل ان يتمكن من الاستئذان بالتقاطها.

وقد طلبت من الاخوة المرافقين ان يخبروهم بأننا وفد زائر من مكة المكرمة لهذه البلاد وذلك من أجل أن يعرفوا سر هذا الإحتفاء الظاهر الذي احاطنا به اخواننا المسلمون في هذه البلاد.

وصلنا معهد الاستشراق في الساعة العاشرة كما كان مقرراً فوجدنا عند بابه مديره الدكتور مظفر خير الله مع بعض العاملين والباحثين فيه.

ثم تقدمنا إلى قاعة قد أعدت فيها مائدة اجتماع كبيرة وهيئت فيها الأوراق، واستعد بعض الكتبة لتسجيل مايجرى من حديث وذلك اضافة إلى



الدكتور مظفر خيرالدين في دار الاستشراق في طشقند

وجود رجال الاعلام المرافقين الرسميين للوفد الذين كانوا يصورون المقابلات و يسجلون مايدور فيها من أجل تزو يد الصحافة به فيما يقولونه.

بدأ الحديث مدير المعهد الدكتور مظفر خيرالدين بالترحيب الحار بالوفد شاكراً هذه الز يارة للمعهد.

وقال نعتقد ان ز يارتكم هذه تساهم في توثيق صلاتنا الثقافية والفكر ية مع المملكة العربية السعودية خاصة والدول العربية عامة لان مثل هذه الزيارات تفيدنا في التبادل الثقافي والعلمى الذي يخدم الفكر الانسانى ويحتل معهدنا مكاناً خاصاً في الاكاديمية الاوزبكية، اذ يعتبر اكبر معهد في الشرق السوفيتي وفي آسيا الوسطى ولقد اشتهر المعهد بدراسة تاريخ الشعوب الشرقية مثل باكستان وافغانستان وايران والدول العربية. وتنشر كثير من دراساتنا في الخارج ولنا علاقات ثابتة ومتينة مع كثير من الهيئات العلمية والعلماء في العالم، ونستقبل ضيوفاً من الدول الأجنبية وخاصة من الدول العربية.. وز يارتكم هذه لها مكانة خاصة لأنها اول ز يارة لوفد من المملكة العربية السعودية.

ثم قال لقد تأسس المعهد خلال الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٣م كفرع في أكاديمية العلوم في اوزبكستان وتتجه بحوثنا ودراستنا إلى اتجاهين.

الأول دراسة تاريخ الثقافة الشرقية، وتشمل تاريخ الثقافة في كل الفروع العلمية والانسانية ونقوم بدراسة تاريخ العلوم والطب والبلاغة والر ياضيات وتاريخ الخط العربي.

الثاني تاريخ الدول الشرقية وتاريخ الإسلام.

ترتكز بحوث المعهد على المخطوطات التي توجد في المعهد، فهناك اكثر من أربعين ألف عنوان و١٨ألف مجلد و٥٠ألف صور مخطوطات مبكر وفيلم.

كما يقوم المعهد بعملية التبادل في سبيل تأمين صور المخطوطات التي لا تتوفر فيه. وعلى هذا نوسع علاقاتنا مع المعاهد الإسلامية والمكتبات العالمية في تبادل صور المخطوطات والوثائق والكتب، كما نشترك في كثير من المؤتمرات والندوات العلمية والثقافية.

ثم تكلم عن المكتبه فقال مكتبة معهد الإستشراق تعتبر من أشهر المكتبات في الاتحاد السوفيتي وهى فريدة من نوعها بتخصصها في تاريخ وثقافة الشعوب الشرقية حيث يمتلك المعهد كثيراً من مخطوطات الخوارزمى والفارابى والبيرونى وابن سيناء والإمام البخاري الذين هم من ابناء هذه البلاد.

وكذلك مخطوطات المعري والمتنبي من العالم العربي وابن رشد والكندى من علماء الاندلس.

ويقوم علماء المعهد بدراسة المخطوطات وترجمة بعضها إلى الأوزبكية والروسية.

وبالتعاون مع منظمة اليونسكو عام ١٩٨٠م بمناسبة مرور الف عام على ميلاد أبي الريحان البيرونى اجرى المعهد احتفالات كبيرة وطبع مؤلفات البيروني في سبع مجلدات، كما احتفل المعهد بمناسبة مرور ألف عام على ميلاد الرئيس ابن سينا وترجم كتاب القانون في الطب إلى الأوزبكية والروسية عام ١٩٨٠ وكذلك احتفل المعهد بمرور ١٢٠٠سنة على ميلاد أبى بكر الخوارزمي مؤسس علم الجبر عام ١٩٨١م. وكانت هذه الاحتفالات تتم في موسكو اعتماداً على دراسات وبحوث يقوم بها هذا المعهد.

وقد أعد المعهد فهرساً لعشرة آلاف مخطوطة في ١٣مجلداً يضم شتى العلوم والفنون مثل القرآن وعلومه والحديث والتاريخ وغير ذلك من العلوم.

ويستفيد العلماء والدارسون في الاتحاد السوفيتي وخارجه بالاستعانة بالفهرس من المخطوطات ويستقبل المعهد الزوار والباحثين القادمين من

الخارج مثل الكويت وتونس ومصر، كما يزور المعهد سفراء الدول العربية والإسلامية.

وقد لقى المعهد تقديراً دولياً على نشاطاته العلمية، حيث قدمت له منظمة اليونسكو الجائزة الأولى في ميدان التحقيقات التي تمت عن ابن سيناء التي اعتمدت مخطوطات عربية وفارسية وتركية.

وتطبع منشورات المعهد في طشقند وموسكو وتسوق عالمياً وتردنا طلبات عديدة يطلب فيها مرسلوها تزويدهم بالكتب والدراسات لأن هذه البحوث تعتبر تراثاً إنسانياً وتاريخاً ثقافياً عالمياً. كما تساعد الدراسات والبحوث وتبادل المعلومات على توثيق العلاقات والصلات الثقافية والحضارية بين الدول والشعوب في العالم، ولاشك ان هذه غاية هامة واعمال جليلة تخدم الانسان في كل مكان.

وبعد ان انهى كلامه رددت عليه بكلمة تضمنت الشكر والتقدير على المعلومات والايضاحات عن المعهد واعماله وتحدثت عن اهتمام المسلمين بالتراث الإسلامي وقلت لهم ان في مكتبة بمدينة بريدة التي تبعد عن



المؤلف يتكلم واقفاً في دار الاستشراق في طشقند والشيخ محمد صادق واقف للترجمة

الرياض بحوالي اربعمائة كيلو متر عدداً من المخطوطات منها كتاب في الجبر لأبي بكر موسى الخوارزمي المتوفى عام ٢٥٠هـ و يعود تاريخ خط الكتاب إلى عام ٧٥٠هجرية وقد رسمت الاشكال الهندسية فيه باللون الأحمر.

ثم تحدثت عن مكانة العلماء المسلمين الذين أنجبتهم اوزبكستان في الثقافة الإسلامية فقلت إن المسلمين في كل مكان في العالم يجلون الإمام البخاري على كتابه الجامع الصحيح الذي هو اصح كتاب بعد القرآن الكريم، كما ان كثيرا من علماء الحديث والتفسير هم من هذه البلاد إلى جانب علماء غيرهم من المؤرخين والأدباء الذين لهم خدمات في ميدان الثقافة الإسلامية والفكر الأنساني، كالعالم الجليل أبي الريحان البيروني الذي قام بزيارة الهند مع جند السلطان محمود بن سبكتكين، وتعلم اللغة السنسكريتية ثم وضع أفضل كتاب عن الهند بعنوان «تحقيق ماللهند من مقولة، مقبولة في العقل او مرذولة» وكان العلماء والطلاب من الأقطار العربية والإسلامية يفدون إلى بلادكم في سبيل الاستزاده والتحصيل العلمي وان العالم الإسلامي والمسلمين الآن يتطلعون إلى أبناء وأحفاد أولئك الأئمة الأعلام يرجون منهم ان يعيدوا سيرة أجدادهم في خدمة الثقافة الإسلامية.

وقلت: إن رابطة العالم الإسلامي هيئة شعبة عالمية غير حكومية وتتخذ من مكة المكرمة مقراً لها وتساعدها حكومة المملكة العربية السعودية على أداء واجبها الإسلامي، كما تساعد غيرها من الجمعيات الإسلامية وان وفدنا يقوم بزيارة لمسلمي الاتحاد السوفيتي بدعوة من الإدارات الدينية الإسلامية وتأمل الرابطة التعاون معها في ميدان الثقافة الإسلامية.

ثم قلت: إنني اقترح على المعهد ترجمة فهرس المخطوطات إلى اللغة العربية حتى يستفيد منه الباحثون والدارسون من العرب واخبرتهم ان في المملكة العربية السعودية كثيراً من المكتبات الخاصة والعامة تضم العديد من المخطوطات ومن اغنى المكتبات بالمخطوطات مكتبة الشيخ عارف حكمت في

المدينة المنورة ومكتبة الحرم الشريف في مكة المكرمة واقترح على المعهد تبادل المخطوطات مع تلك المكتبات.

فعلق مدير المعهد الدكتور/ مظفر خير الله على كلمتي فقال: نشكركم على الكلمة القيمة، وما حوته من معلومات مفيدة وشكر علمائنا الأسلاف الذين مهدوا لنا طريق توثيق الصلات بين الأحفاد في المستقبل وقال: سنعمل على تنفيذ هذه الاقتراحات القيمة التي أبديتموها.

وبعد ذلك أطلعونا على طائفة من المخطوطات الثمينة التي يحتويها المعهد، وبعضها نادر ومنها على سبيل المثال لا الحصر: مصحف شريف مكتوب بخط كوفي من القرن الثالث الهجري.



تفحص بعض المخطوطات في دار الاستشراق في طشقند

نسخة من غريب الحديث لأبي عبيد كتبت في عام ٣٤٤هـ.

مجموع رسائل باللغة العربية وبعضه بالفارسية كتب في عام ١٠٧٥هـ.

سر الأسرار لأبي بكر الرازي نسخة قالوا إنها النسخة الوحيدة في العالم لهذا الكتاب كتبت عام ٩١٢هـ.

القانون في الطب لابن سينا نسخة بخط حديث.

مقدمة الأدب للزمخشري قديمة الخط، و يذكر ان لهم عناية خاصة بالإمام الزمخشري وأمثاله لأنه من بلادهم اذ لا تبعد زمخشر عن طشقند كثيراً جهة الشمال.

المغنى في الأدو ية المفردة لابن البيطار. نسخة قديمة الخط.

التفهيم، لاوائل صناعة التنجيم للبيروني برسوم وخرائط دقيقة ونادرة كتب في عام ٦٦٠هـ.

الشاهنامة للفردوسي بالرسوم والصور الملونة كتبت عام ٩٦٤هـ.

وهذا جزء مما أطلعونا عليه من المخطوطات ولولا ضيق الوقت لقضينا ضحى هذا اليوم عندهم.

ثم قدمت إليه عدداً من مؤلفاتي هدية لمكتبة المعهد وأهدى إلي المدير بالمقابل كتباً صغيرة أصدرها المعهد.

وعدنا إلى مسجد ضياء الدين فرأينا في حديقة المسجد اشجاراً من الأشجار ذات الفاكهة ومنها أشجار من العنب مما يدل على ان الحديقة كانت موجودة قبل المسجد وان بعض الأشجار كانت قائمة نامية فيها فتركوها على حالها وان المسجد كان قديما صادرته الحكومة ثم أعادته للمسلمين وذكر إمام المسجد (الشيخ/ ذاكر اسماعيل) ان عدد المصلين في المسجد يوم الجمعة يتراوح بين ستمائة وسبعمائة مصل.

وقد وجدنا مائدة معدة في المسجد حوت النقل المعروف بالمكسرات ولحم الحصان وهو قطع صغيرة حمراء اللون مقددة أو محفوظة في مكان مبرد وتفاح وسفرجل أصفر مما تنتجه هذه البلاد وعليها أيضاً الخبز واللبن.

فطعمنا منها قليلاً ورأينا عروسين جاءا إلى المسجد لعقد الزواج الشرعي

فيه بعد ان سجلا زواجهما قانونيا في الجهة الحكومية المختصة فحضرنا خطبة النكاح التي أجراها الإمام ذاكر اسماعيل حيث خطب خطبة عقد الزواج المعتادة بالعربية وتلا الآيات المتعلقة بالنكاح وقرأ بعد ذلك من حفظه الاحاديث النبوية التي تحث على الزواج وتأمر بالإكثار من نسل المسلمين ثم ترجم ذلك إلى اللغة الازبكية التي هي فرع من اللغة التركية الأصلية.

وكان يصحب الزوجين بعض الأقارب في عدد محدود ومع الزوجة أمها. وقد هنأت الزوجين ودعوت لهما بالتوفيق والذرية الصالحة التي ينفع الله بها الإسلام والمسلمين وقلت لهما سوف ندعو لهما في مكة المكرمة فسرا بذلك ولكن العروس كانت خجلة مرتبكة مما يدل على انه لايزال للخفر والحياء في نفوس المسلمين هنا بقية.

وعندما سألتهم عن مقدار المهر أجابوا بأنه في المتوسط يكون بحوالي ٥٠٠ روبل ومعلوم ان الصرف الرسمي للدولار هو ٧٠ كوبي والكوبي للروبل كالسنتي للدولار اي واحد في المائة ولكن الدولار في السوق السوداء يساوى روبلين إلى ثلاثة روبلات. وهذا كما قالوا خلاف نفقات تجهيز العروس ومايلزم للعروسين بعد ذلك من نفقات.

الجمعية الأزبكية للصداقة :

كما في البرنامج المرسوم قام وفد الرابطة بزيارة للجمعية الاوزبكية للصداقة والعلاقات الثقافية مع البلدان الأجنبية فرحب بالوفد رئيس الجمعية (عبدالفتاح علام) مع مجموعة من أعضاء الجمعية منهم:

طالب ساريماق مدير معهد الفنون الجميلة والتمثيل والغناء.
فريد خوجة مدير وكالة الأنباء في اوزبكستان
الدكتور ابراهيم موسى حكيم استاذ في معهد الاستشراق ويعرف العربية جيداً.
عبدالله براءت من إذاعة طشقند.



رئيس جمعية الصداقة الاوزبكية مع البلدان الخارجية يتحدث واقفاً لوفد الرابطة والشيخ محمد صادق يترجم واقفاً

وقد تحدث رئيس الجمعية بعد الترحيب بالوفد فذكر ان الجمعية هيئة شعبية ثقافية اجتماعية، تضم الشخصيات البارزة في أوزبكستان من العلماء والفنانين ورجال الدين أمثال المفتى الدكتور شمس الدين باباخان والشيخ عبدالغني عبدالله وتعمل الجمعية على توثيق الصلات بين شعب اوزبكستان ومختلف شعوب العالم بتبادل الوفود الثقافية والفرق الفنية وتوزيع المنشورات والمجلات الإعلامية عن النواحي الحضارية في اوزبكستان.

ثم تحدث الدكتور إبراهيم موسى حكيم المدرس في كلية اللغات الشرقية بجامعة (طشقند) عن تعليم اللغة العربية وآدابها في جامعات اوزبكستان وعن اهتمام المسلمين بدراستها في عدد من المدارس الثانوية وارسال الطلاب والاساتذة إلى بعض الجامعات العربية.

أما السيد طالب ساريماق فقد تكلم عن انتشار الإسلام في الاتحاد السوفيتي وأثره في الثقافة والفن الأوزبكي وخاصة ان النقش واشكال البناء قد تأثر بالنقوش والطراز الإسلامي بصفة لاتزال آثارها مطبوعة في كل مكان في اوزبكستان وان الآثار الإسلامية التي تزخر بها المنطقة تدفع

كثيراً من الطلاب إلى القدوم إلى اوزبكستان لدراسة الفن والهندسة الإسلامية مثال ذلك بأن هناك طلابا من اليمن الديمقراطية وغيرها يدرسون ويحضرون دراسات وبحوثاً في جامعة ومعاهد طشقند.

فعقبت على كلامهم بالشكر على الترحيب وحسن الاستقبال وأشرت إلى العلاقات الثقافية للمسلمين بهذه المنطقة التي انجبت كثيراً من العلماء والأئمة في الحديث والتفسير والفقه والتاريخ والرياضيات ولايزال المسلمون في كل مِكان في العالم يقرءون لهم و يستفيدون من كتبهم وان المسلمين اليوم يتطلعون إلى احفاد وابناء اولئك العلماء في هذه البلاد لتجديد سير أجدادهم وآبائهم في خدمة الإسلام والثقافة الإسلامية.



المؤلف يتحدث واقفاً في جمعية الصداقة الأوزبكية مع البلدان الخارجية

وكذلك نوهت بسرورنا بأن يتعلم أبناء المسلمين في هذه الديار اللغة العربية في بعض المدارس وفي قسم الدراسات العربية بجامعة طشقند وختمت حديثي بأن الإسلام هو دين يحث على العلاقة الصادقة الطيبة، ليس بين المسلمين فحسب بل مع غير المسلمين في كل مافيه خدمة الإنسان والبشرية، بل هو دين الرحمة والرأفة مع كل الكائنات الحية.

الجمعة الحاشدة :

غادرنا الجمعية الازبكية للصداقة مع الشعوب كما يسمونها في الواحدة والثلث فأخترقنا ايضاً شوارع من شوارع طشقند الحديثة الواسعة واكثرها من طريقين للذاهب والآيب تفصل بينهما جزيرة فهى إذاً محدثة ولكن ذلك التحديث شانها في نظرنا ولم يزنها وربما كان ذلك أيضاً بالنسبة إلى اناس كثيرين، وبخاصة من السياح الذي يأتون إلى هذه الجمهورية وهم يمنون أنفسهم في أن يروا شيئاً أصيلاً قديماً مما خلفه الاسلاف المسلمون فيرون اكثر مايرونه هذه الشوارع الحديثة التى رأوا مثيلاتها فى بلادهم من قبل، وربما أفضل منها.

وحتى الناس فالرجال فى هذه الشوارع الحديثة يرتدون اللباس العالمي الشائع لأنهم مابين روسي كافرطارئ على هذه المدينة ومابين مسلم فى الأصل، ولكنه يلبس اللباس العالمي الحديث. واما النساء فان المسلمات منهن واشكالهن ظاهرة، ومتميزة على الكافرات من الروسيات والأوكرانيات المهاجرات الى هنا فان اكثرهن يرتدين الزي الافرنجى والعالمى ولكنه هنا محتشم بصفة عامة حتى على الكافرات فقل ان يرى المرء التبرج والعري.

وأما الزينة التى يراد بها هنا المساحيق ونحوها، فإنها موجودة ومسموح بها ولكن بقدر أقل مما هي عليه فى الدول الغربية بكثير فالاسراف فيها لايكاد يوجد وقسم من النساء لايستعملن المساحيق أو ادوات الزينة الظاهرة مطلقا.

وتنفست الصعداء عندما وصل الموكب الى حي فى طشقند قديم فيه بيوت جيدة من الحجارة والطين، وأكثرها من طابق واحد.

فقد وصلنا محلة (كوكجه) التى يسمونها (كوكجه محله سي) وذلك لأجل أداء صلاة الجمعة فى مسجدها المسمى مسجد الشيخ زين الدبن وبعضهم يسميه مسجد الجمعة فى طشقند.

دخل الموكب المؤلف من ٦ سيارات الى حديقة المسجد ولم يجد صعوبة او ضيقا في ذلك لأن هذا المسجد مثل سائر المساجد هنا واسع الأفنية ذو حدائق وملحقات كما تقدم.

ووقف الموكب فالتف علينا جماعة من المسلمين منهم القائمون على رعاية المسجد، والعناية بشئوونه على رأسهم الأخ (عبدالرحمن بن داملا إبراهيم) المتولى على المسجد أو رئيس التوليه كما أسموه وهو يرأس عشرين شخصاً هم الجمعية التي ترعى شئون المسجد، ولا بد فى الاتحاد السوفيتى من أن لاتقل الجمعية التي تشرف على المسجد عن عشرين شخصا علما بانه ليس كل من ارادوا بناء مسجد وألفوا من بينهم عشرين عضوا يستطيعون أن يحصلوا على الاذن ببنائه من السلطات الحكومية فذلك له شروط كثيرة من اهمها عندهم ان لايوجد فى البلدة مسجد آخر، إلا إذا كانت البلدة كبيرة ذات محلات منفصل بعضها عن بعض.

كما كان مع الحاضرين امام المسجد وهم الشيخ غلام قادر ونائبه في الإمامة رحمة الله عابد جان والتف اليهم جمهور من الذين حضروا لأداء صلاة الجمعة من سائر المسلمين فتجمهروا حولنا يسلمون و يصافحون، و بعض كبار السن يغلبهم الشوق إلى اخوانهم القادمين من بلاد الحرمين الشرفين فيسرعون بالاحتضان بعد العناق.

وقد شاهدنا حركة فى ركن من حديقة المسجد هي حركة شواء ظاهر لمن يكون فى هذه الجهة من الحديقة وذلك لأن الغداء كان يعد وكان الشواء يشوى فجلب بمنظره ورائحته اعداداً اضافية من الاخوة المسلمين الذين كانوا قد علموا أو علم أكثرهم منذ وقت بقدوم الوفد وانه سيؤدي صلاة الجمعة فى هذا المسجد.

الغداء الحافل :

صعدنا خلف الإخوة الداعين من أهل المسجد والمراد بهم الجمعية القائمة على شئونه إلى غرفة علوية في بناء ملحق بالمسجد فوجدنا مائدة مديدة قد

صفت عليها مقدمات المأدبة المعتادة في هذه البلاد وكنت رأيت مثيلاتها في بلاد تركستان الشرقية وكان من أهم ما احضروه بل اكثروا منه في هذه الموائد هو البطارخ اي الكافيار وهو بيض السمك المشهور الذي لايوجد الا في بحر قزوين المشترك مابين ايران والاتحاد السوفيتي ولذلك اشتهر هذان البلدان به.

وقد جاءوا بالكافيار نوعين احدهما الأسود وهو المشهور والثاني الأحمر وهو اقل منه قيمة وقد ذكروا فيما بعد ان الكيلو الواحد من الأسود الفاخر الذي ألفنا رؤيته على موائدهم في جميع الوجبات يصل إلى خمسين روبلا ويساوي ذلك سبعين دولاراً امريكي بالصرف الرسمي أو ثلاثين دولاراً بالصرف الحر الذي يتم في السوق السوداء وقد زينوا المائدة بازهار جميلة قطفوها من حديقة المسجد.

وكنا نتناول الغداء والاخوة المسلمون يتوافدون على المسجد زرافات ووحدانا حتى كاد يضيق بهم. بل إن المسجد المسقوف وهو المصلى الرئيسي قد ضاق بهم بالفعل فصفوا في الفناء الخارجي الذي فيه الحديقة.

وقد احتجت للوضوء بعد الغداء فرأيت حمامات المسجد وهى صف طويل وهي نظيفة إلا أنها لا تصل إلى نظافة اماكن الوضوء في البلدان الأوروبية وكان عدد المتوضئين كبيراً والمشكلة ان القوم اخذوا ينتهزون الفرصة لرؤيتي وكانت علي ملابسى العربية طيلة هذه الزيارة لكونها زيارة رسمية فاخذوا يصافحون و يسلمون حتى قبل ان أجفف يدي من الوضوء وصار غيرهم ممن يراني يسرع للمصافحة حتى كفهم عني بعض الإخوة المرافقين.

والصلاة الحافلة :

لم أكن أتصور وجود هذا العدد العظيم من المصلين في هذا المسجد الذي يسمونه (مسجد الجمعة) إضافة إلى تسميته بمسجد زين الدين.

فانطلقنا من الغرفة التي تناولنا فيها الغداء وهي في الجهة الخلفية من المسجد وهى هنا الشرقية الشمالية واخترقنا الحديقة التي وقفت فيها السيارات وقد اورقت أعنابها وطاب مرأى اشجارها لأن قشف الشتاء وزمهريره قد فارقها وابتسم لها الربيع فابتسمت هي للربيع وهم يصنعون للأعناب عروشاً عالية كما نصنع نحن الا أنهم يرفعونها اعلى من قامة الرجل من أجل ان يتناول الناس العناقيد التي تكون متدلية منها وهم وقوف.



مقدمة الصفوف أثناء صلاة الجمعة في جامع زين الدين

دخلنا المسجد الذي غص بالناس حتى لم يبق فيه موطىء قدم ومنعوا المصافحة عنا لكثرة المصافحين فأدينا تحية المسجد ركعتين نهض بعدها الدكتور/ شمس الدين باباخانوف رئيس الادارة الدينية لمسلمى آسيا الوسطى وقازاقستان فقدم وفد الرابطة وأعضاءه بالأسماء وذكر الأعمال في الرابطة إلى المسلمين من مكبر للصوت داخل المسجد بل من مكبرين للصوت اثنين فكان مما قاله : كان المسلمون في الاتحاد السوفيتي يتطلعون منذ زمن بعيد إلى هذا الوفد الذي اتاهم من الحرمين الشريفين وكان والده المرحوم ضياء الدين باباخان قد وجه عدة دعوات إلى الرابطة والعلماء في المملكة العربية السعودية ومع ان كثيراً من الوفود قدمت إلى البلاد من

بلدان ودول مختلفة في العالم، إلا ان هذا الوفد الزائر لبلادنا هذه الأيام هو أول وفد يأتى من قبلة المسلمين في تاريخ المسلمين في الاتحاد السوفيتي.

واستغل الدكتور شمس الدين الفرصة في الحديث عن نشاط الادارة الدينية ومكتب العلاقات الخارجية للادارات الدينية الاسلامية في موسكو وعن الوفود التي تخرج من الاتحاد السوفيتي في سبيل تعريف المسلمين بحياة المسلمين السوفيت وتوثيق الصلات معهم وان الادارات الدينية ترسل بعثة الحج سنوياً إلى الديار المقدسة لاداء فريضة الحج وان رابطة العالم الإسلامي تستقبل البعثة وتستضيفها وتقدم لها كافة التسهيلات اللازمة ثم ختم كلامه بشكره للدولة التي اقامت مثل هذه النشاطات وساعدت على استقبال الوفود الإسلامية من الخارج.

ثم تحدثت لجموع المصلين الذين احتشدت بهم ساحات المسجد وكان يقدر عددهم باكثر من خمسة آلاف شخص بالشكر على كلمة رئيس الادارة الدينية وقلت بأن الوفد من جوار الكعبة المشرفة بمكة المكرمة ومن الحرم النبوي بالمدينة المنورة يحمل إليهم تحيات وسلام المسلمين في الحرمين الشريفين كما يحمل اليهم تحيات المسلمين في العالم الذين لهم ممثلون ومندوبون في مجالس رابطة العالم الإسلامي وتحيات ممثلي الجمعيات الإسلامية التي تتعاون الرابطة معهم وهم يتشوقون إلى معرفة احوالهم وانهم يقومون على تربية ابنائهم التربية الاسلامية.. وعند مايستفسر اولئك المسلمون عنكم إنما يعملون ذلك لأنكم اخوة لنا في الله فقد قال الله عز وجل في كتابه « **إنما المؤمنون إخوة**».

واخوة الدين اقوى من قرابة النسب والدم، لأن الاخوة في الدين هي قرابة باركها الله عز وجل في السماء وصلات النسب هي زائلة لأنها من التراب.

وعندما يسأل المسلمون عنكم إنما يفعلون ذلك لأنكم أحفاد العلماء الأسلاف مثل الامام البخارى والترمذى والنسائى الذين كانت لهم جهود

مشكورة في ميدان الثقافة الإسلامية... ونحن بعد ان جئنا إلى بلادكم وشاهدنا احوالكم سنخبر المسلمين عن حياتكم واوضاعكم.

وتوجهت بنصيحة لعامة المسلمين وهى العمل على تربية اولادهم على الإسلام لأن كل واحد منا مسئول عن الإسلام فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته، **فلا يكفي** ان **يكون** المسلم مسئولاً عن نفسه فحسب بل عليه مسئولية تربية اولاده على الإسلام والمحافظة على الصلاة وتعويد اهله وأسرته على أخلاق الإسلام وتعليمهم أحكامه العامة. بل يجب على المسلم أن يرشد و ينصح إخوانه وزملاءه و يدعوهم إلى تعلم مباىء الإسلام والعمل بأحكامه، وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم **«الدين النصيحة».**

ولايقتصر اهتمام المسلمين على العبادات وإقامة الشعائر فحسب بل من واجبات المسلم الاهتمام بالمعاملات فقد جاء في الأثر **«الدين المعاملة»** فيجب أن يؤدى المسلم عمله بالأمانة والعمل بالاخلاص والاتقان، كما يجب ان يتعاون المسلم مع غير المسلمين من المواطنين لمصلحة بلده ووطنه بشرط عدم التفريط بمبادىء الإسلام وتعاليمه.

وكان السلف الصالح بسلوكهم الحسن واخلاقهم الإسلامية قدوة لغيرهم وسبباً لانتشار الإسلام في هذه البلاد وغيرها من بلدان العالم فإذا حسنت معاملة المسلم وصلح عمله وتمسك بتعاليم القرآن الكريم في تصرفاته ومعاملاته نال الاعجاب والتقدير وكان قدوة ومثالاً للآخرين يسيرون على خطاه و يقتبسون من عمله.

وفي الختام دعوت لهم بصلاح أحوالهم وابنائهم وان يعينهم الله على التمسك بدينهم وتربية ابنائهم على الإسلام وان يقدر الاجتماع بهم مرة ثانية في الحرمين الشريفين.

وكان يترجم كلمتي إلى الأوزبكية الأخ الشيخ محمد صادق بن محمد يوسف نائب مدير معهد الإمام البخاري.



بعض الذين حضروا صلاة الجمعة في مسجد الشيخ زين الدين

أيوم كيوم كاشغر؟

عندما كنت ألقي كلمتي في المصلين وكانوا من اعمار مختلفة اكثر من فيهم المسنون والكهول وفيهم شبان ورجال لاحظت انهم ينخرطون في البكاء وهم يسمعون الكلام عن قدومنا من جوار الحرمين الشريفين من مكة المكرمة والمدينة المنورة.

وقد كادوا كلهم يبكون ومن دون شك ان الذين يبكون كانوا أكثرهم وكلما وردت في كلامي عبارة تشوقهم إلى الحرمين الشريفين أجهشوا بالبكاء وهم رجال في غاية القوة والمتانة في عواطفهم ولكن الحديث عن مهابط الوحي ومنطلق الرسالة المحمدية كان يهز مشاعرهم بقوة فينخرطون بالبكاء ومن ذلك ماذكرته من مسئوليتهم العظيمة أمام الله تعالى وامام التاريخ عن تنشئة أولادهم تنشئة إسلامية لئلا يتحملوا وزر إنقطاع الإسلام

عن هذه الديار على أيدي من لايعلمون أولادهم الدين وكذلك عندما دعوت لهم بأن نجتمع بهم ثانية للحج والعمرة في مكة المكرمة والمدينة المنورة.

وماسبق لي أن رأيت باكين من خطبة ألقيتها من قبل مثل بكائهم الا ما كان من أبناء عمومتهم من سكان مدينة كاشغر المسلمة في تركستان الشرقية، فقد كانوا أكثر بكاء منهم وكان الفارق بين الحالتين أن أكثر الحاضرين في كاشغر كانوا من الشبان وفيهم الشيوخ والمسنون وهنا العكس فأكثر الحاضرين هم من المسنين وفيهم الشبان والكهول.

والجامع بين الفريقين هو محبة الإسلام في نفوسهم، وعراقته في بلادهم وشدة شوقهم إلى حج بيت الله الحرام وعجزهم عن ذلك لأن حكومتهم تمنعهم وذلك كان قبل ان تسمح حكومة الصين الشعبية للمسلمين فيها بالحج.

إضافة إلى الشيء الأساسي المشترك بينهم وهو وحدة الأصل التركي القديم المسمى بالتركستاني نسبة إلى بلادهم تركستان أي بلاد الترك.

وعندما انتهت الصلاة جاء المصلون للسلام والمصافحة وكان جمعهم كثيرا ولم يكن من الممكن مصافحتهم كلهم لأن الوقت يضيق عن ذلك فاكتفينا بالسلام على من كان في طريقنا بعد أن فتح الاخوة المرافقون الطريق لنا بصعوبة بالغة.

وكانت الصعوبة في مواجهة الاخوة الذين كانوا قد أدوا الصلاة في الفناء الخارجي للمسجد وكانوا ينتظرون ان تتاح لهم فرصة السلام على الوفد فصافحنا من كان في الطريق ومن لم يستطع منهم ان يتمكن من المصافحة اكتفى بلمس الثياب وبخاصة العباءة العربية.

الموت والحياة :

شهدنا اليوم في هذه المدينة مراسم الموت والحياة فالأولى كانت عندما حضرنا عقد الزواج بين عروسين شابين من اولاد المسلمين في مسجد ضياءالدين. وقد ذكرت ذلك فيما سبق والثانية عندما صلى الناس على جنازة في المسجد بعد الجمعة.

وكانت كلمة الدكتور/ شمس الدين التي ألقاها في تقديمنا للمسلمين وكلمتي التي تلتها قبل الصلاة.

ثم أدى المؤذن الاذان الثاني بصوت رخيم شجي خشع له الجميع فتلا الامام الخطبة قصيرة بالعربية اتبعها بكلام بلغة القوم أطنه شرحا لما قاله بالعربية ثم خطب الخطبة الثانية موجزة أيضاً.

وعندما انتهى من الصلاة والتسبيح والتحميد بعدها وهو طويل. تكلم أحدهم وأظنه المؤذن داعياً الناس إلى الصلاة على الميت وقال اسمه فلان بن فلان من المحلة الفلانية وقد مات عن عمر يبلغ ٧٤ سنة.

فتأخر الصف الأول الذي نحن فيه وكان اقصر من غيره وذلك إلى مستوى الصف الثاني الذي تأخر ليفسح المجال لمن كانوا في الصف الأول.

وذلك أنهم لم يحضروا الجنازة إلى المحراب في مقدمة المسجد بحيث يراها المصلون، بل وضعوها كما هي عادتهم في غرفة موازية للصف الأول وهذا هو سبب تأخر من كانوا في الصف الأول ونحن منهم.

ثم صلى الأمام وخلفه القوم يصلون عليه وكان النداء على الصلاة بالمكبر كما كان خلال الصلاة ولم أر في صلاتهم على الميت أي فرق عما هو مألوف معتاد عندنا في صلاة الجنازة وهذه من مراسم الموت عندهم.

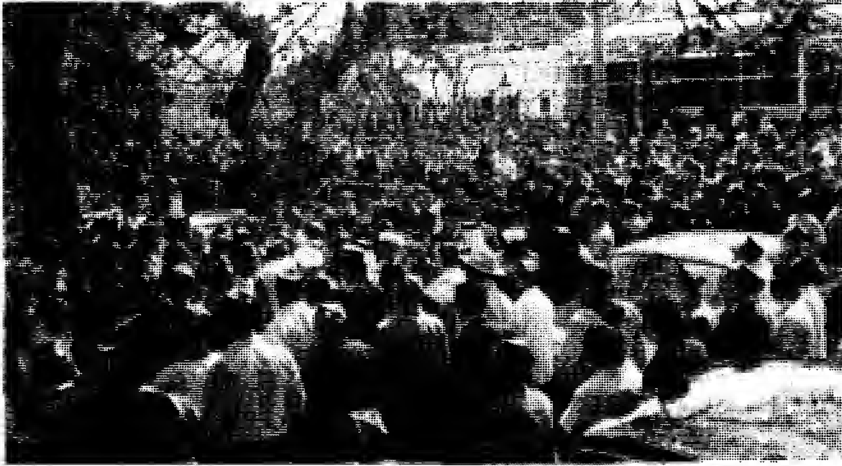
وكنا شعرنا في المسجد بالحر لكثرة المصلين وازدحام المسجد وكون مساجدهم مثل منازلهم معدة لاتقاء البرودة وليس لاتقاء الحر فصار الناس

يخرجون مناديلهم من جيوبهم يمسحون بها العرق عن وجوههم.

وهذا أمر غريب لم تكن نتوقعه في هذه البلاد الباردة ولكنهم أخبرونا أن الربيع يبكر اليها بالنسبة إلى غيرها من البلدان الشمالية من الاتحاد السوفيتي ولذلك كانت الأشجار فيها قد أورقت منذ فترة على حين انها في البلدان الشمالية مثل بلاد الداغستان وبلاد البلغار الذين يسمون الآن بالتتار فضلاً عن بلدان الروس كموسكو ولينين قراد لم تورق بعد.

واخبرونا ان الحر الذي شعرنا اليوم به ليس من المعتاد مثله في هذه الأيام لأن درجة الحرارة حسب ما اذاعتها الاذاعة الليلة البارحة ستكون (٣٥) درجة مئوية وهي لا تصل إلى هذا الارتفاع في الأحوال المعتادة خلال شهر ابريل.

ثم كانت العودة إلى الغرفة التي كنا فيها قبل الصلاة وتناولنا طعام الغداء فوجدناهم قد اعادوا ترتيب المائدة ورفعوا منها المآكل الحارة. ووضعوا عليها الأشربة والفاكهة والنقل الذي هو المكسرات بلغة عوام الكتاب إلى جانب الشاي الساخن فكانت استراحة في الغرفة مع جمعية المسجد وامامه والمشايخ العاملين في الحقل الإسلامي وبخاصة في الادارة الدينية.



ساحة جامع زين الدين في طشقند بعد صلاة الجمعة وقد اكتظت بالمصلين

وبقينا فترة حتى خف زحام القوم وانصرف اكثرهم من المسجد. لأننا كنا لانستطيع الخروج من المسجد بسهولة وقد اخيطت سياراتنا التي وقفت في فنائه الذي هو حديقة أيضا يجمع كبير منهم.

وقد قدر الإخوة الحاضرون عدد الذين أدوا صلاة الجمعة بخمسة الآف شخص وأكاد أتيقن انهم لايقلون عن ذلك.

إلى مسجد وقاص آتا :

ويقع هذا المسجد في قرية غير بعيدة من طشقند تسمى (نظر بك) بالقرب من نهر عميق المجرى نزر الماء يسمى نهر قره قموش من منطقة ريفية خالصة.

فوجدنا الاخوة المسلمين من سكان القرية وماحولها وبخاصة جماعة المسجد والمسئولين عنه الذين يسمون المتولين عليه وامام المسجد الشيخ (فيض الرحمن رحمة الله) ومتولي المسجد اي رئيس جمعية المسجد واسمه (تلقم خليلوف) ومعنى خليلوف: ابن خليل باللغة الروسية لأن (أوف) فيها معناها



مسجد سيد وقاص آتا في طشقند

ابـن كما أسفلـت ذلك والأخ أدهم اوغلو، أي أبن أدهم لأن (او غلو) في التركية تعني ابن، اي انها تعني ماتعنيه كلمة اوف، الروسية تماما وهو من أنشط القائمين على شئون المسجد والساعين في انشائه.

وقد ذكروا ان (وقاص) الذي نسب المسجد إليه هو رجل صالح سمى المسجد باسمه ولكن ليس فيه قبر.

وفي جلسة في غرفة في المسجد تحدث القوم حديثا موثراً عن إنشاء المسجد فذكروا انهم بعد أن حصلوا على الأرض على أيدي الجمعية الإسلامية التي تألفت منهم لهذا الغرض و بلغ عدد اعضائها عددا زاد على العشرين طبقا للقانون هنا أخذوا يجمعون التبرعات من سائر المسلمين فكان المسلمون حتى من المدن البعيدة عنهم يتبرعون لبناء المسجد بقدر طاقاتهم حتى ان بعض البلدان البعيدة في وادي فرغانه مثلا ارسل إليهم أهلها بعض النفود إسهاماً منهم في بناء المسجد.

وقد بلغ الحماس بالمسلمين اشده في هذا الأمر لأن الاذن ببناء المسجد في الاتحاد السوفيتي أمر له أهمية بالغة لما كان المسلمون قد عانوه في السابق من عدم الاذن ببناء المساجد بعد ان كان الشيوعيون قد صادروا المساجد ومنعوا المسلمين من الصلاة فيها الا عدداً لايكفيهم كالمدينة التي كان فيها قبل الشيوعية مائة مسجد مثلاً فإنهم يبقون فيها مسجداً واحداً مفتوحاً للصلاة و بقية المساجد يغلقونها أو يستعملونها لما ينافى العبادة كأن يجعلوها مساكن للشبان من الشيوعيين أو مخازن لبعض البضائع.

واخبرنا الاخوة هنا ان بعض المسلمين الذين لايستطيعون التبرع بالنقود لفقرهم وكون النقود التي يحصلون عليها لا تفي بأكثر من حاجاتهم الضرورية فانهم يتبرعون بأشياء عينية.

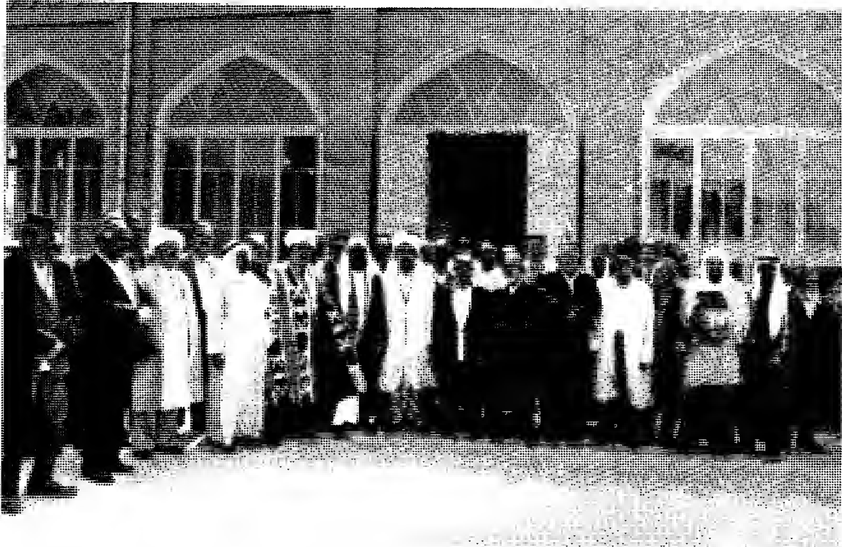
وبعض الذين لايستطيعون التبرع بالنقود ولا بالأشياء العينية اسهموا بالعمل بأيديهم. قالوا: واستمر ذلك عدة شهور حتى تم بناء المسجد في عام

١٤٠٣هـ اي منذ ثلاث سنين وقد وجدوا بعد إتمامه ان لديهم من النقود مازاد عن حاجة المسجد.

وكل هذه التبرعات هي من المسلمين في هذه الجمهورية ولم تأتهم نقود من خارج الاتحاد السوفيتي.

قالوا وعندما انقضت الحاجة إلى النقود أردنا ان نعيد بعض ماتبرع به المحسنون إليهم بعد ان انقضت حاجتنا إليها ولكننا في بعض الاحيان لم نهتد إلى أسماء المتبرعين لأن بعضهم كان يقدم تبرعه باسم مجهول كفاعل خير وذلك احتسابا للأجر من الله تعالى. ولئلا يؤثر اعلان اسمه للناس في أجره وطلبه الثواب من الله تعالى.

وقد كتبوا تاريخ بناء المسجد عليه، كما زينوا محرابه بكتابة الآية الكريمة فوقه بخط جيد **(ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم اعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً).**



صورة تذكارية في مسجد «سيد وقاص آتا» الجامع بطشقند

وزينوا سقف المسجد بنقوش جميلة رغم انه فيما يبدو من داخل المسجد من الخشب وتقع أرض المسجد على الضفة الشرقية لواد عميق المجرى ضيق اسمه (قره قوش) ومعناها كما اخبرونا القصب الأسود.

ثم كانت العودة بعد ذلك إلى فندق اوزبكستان حيث استرحنا فيه على بعض الأعمال ومنها مراجعة اخوة كرام من المصرح لهم بمقابلتنا وهم بعض العاملين في الشئون الدينية أما سائر الناس فانه لايجوز لهم ان يصلوا الينا ولا ان يجتمعوا بنا داخل الفندق او خارجه.

لقد حرصنا على مقابلة طائفة من الاخوة المسلمين من أهل البلاد ممن ليست لهم علاقة بالحكومة أو بالعمل الإسلامي فلم يتيسر ذلك وكان طلبنا المهذب لمثل هذا الأمر يقابل برد مهذب وهو إما الاحتجاج بضيق الوقت أو أننا إذا طلبنا رؤية الأحياء الشعبية القديمة من طشقند قد رأينا منها مايعطي صورة عنها في المدينة التي تقع فيها مباني الادارة الدينية وتسمى (ايستي شهر).

والحقيقة فيما يتعلق بطلبنا بل الحاحنا على رؤية المزيد من المساجد فانهم قد استجابوا له، وارونا طائفة منها ذكرت مشاهداتنا فيها. وهي كلها مبنية على استعداد الاخوة العاملين في المساجد لزيارتنا وتهيئة المآدب الحافلة لنا حتى ولو كان الوقت في غير وقت الغداء والشاي فان حفلات الشاي تكون كبيرة وحافلة.

قبل مغادرة طشقند :

تاشكند عاصمة جمهورية اوزبكستان السوفيتية كما **يلفظ** أهلها باسمها لأنه لايوجد حرف الطاء في لغتهم أو (طشقند) كما تكتب في كتبنا يقدر عدد سكانها بحوالي مليوني نسمة يكثر فيها الروس والاوكرانيون، و يقال ان نسبتهم تبلغ ٣٠٪ من السكان وفي الأحياء الحديثة توجد المباني والعمارات الحديثة ذات الأدوار المتكررة وهذه المباني قليلة بالنسبة إلى اتساع رقعة

المدينة واما معظم أحياء المدينة فهي تنمو بالمنازل القديمة من الطين أو الخشب ومستوى المعيشة بالنسبة إلى دخل الفرد مرتفع حيث يبلغ الراتب الشهرى المتوسط لخريجي الجامعة مابين ١٥٠ ــ ٢٠٠ روبل. والصرف الرسمي للروبل الواحد هو دولار و٣٠٪ من الدولار الامريكي بينما يصرف الدولار الواحد في السوق السوداء باثنين او ثلاثة روبلات.

وتجيز الدولة بعض الملكيات الصغيرة للمواطنين، فيمكن للفرد ان يحصل على قطعة أرض صغيرة لبناء سكن خاص له ويمتلك سيارة خاصة.

أما المحلات التجارية التي شاهدها وفدنا فكلها حكومية و يقولون ان الأفراد يستطيعون بيع بعض الفاكهة والخضروات والمنتجات اليدوية في الشوارع أو في اكشاك صغيرة اذا انتجوها بأنفسهم.

وقد نقل أحد الاوزبيكين المرافقين للوفد أن اذاعة نداء الاسلام مسموعة عندهم و يستفيد المسلمون الأوزبكيون الذين يعرفون اللغة العربية من برامجها الدينية والثقافية.

أما البث التركستاني فهو كذلك مسموع لديهم ومهم لهم لأن عامة المسلمين يفهمون تلك اللغة التركستانية الا أنهم يأخذون على البث التركستاني ضعف برامجه ولغة المذيعين فيه ورغبتهم الكبيرة هو تحسين البث التركستاني من إذاعة جدة مادة ولغة حتى تكون شيقة وجذابة ومفيدة للمسلمين لأنه البث الإسلامي الوحيد ولو ان إذاعة طهران في ايران بدأت تبث برامج باللغة التركمانية إلى مسلمى تركستان الغربية في السنوات الأخيرة ونتج عن هذا البث الموجه انتشار بعض الأفكار الشيعية في جنوب تركستان الغربية.

كما يفيد بعض المرافقين المسلمين أن بعض الشباب المسلم قام بترجمة عدد من الكتب الإسلامية إلى اللغتين الروسية والأزبكية ومنها كتاب الدكتور مصطفى محمود «حوار مع ملحد» إلى اللغة الروسية «ومعالم في

الطريق» لسيد قطب إلى اللغة الاوزبكية وانهم يتداولون النسخ المخطوطة للدراسة فيما بينهم كما انهم ينشرون اشرطة تسجيلات تلك الكتب فيما بينهم سراً.

و يدرس عدد غير قليل من الطلاب العرب المسلمين في جامعة طشقند وغيرها من المعاهد العلمية الا ان اكثرهم لايحضرون لأداء الصلاة في المسجد و يسيئون إلى الإسلام بتصرفاتهم اللا اخلاقية كما يقولون.

و يلاحظ ان التدخين ممنوع في الشوارع وأماكن الاجتماعات العامة وفي الحافلات والطائرات كما ان شرب الخمر محظور في الأماكن العامة ولاتباع الخمر الا من بعد الساعة التاسعة مساءاً إلى الثانية عشرة ليلاً ومن يخالف ذلك يعاقب بموجب القانون وحجتهم في ذلك أن الإدمان على الخمر يحد من النسل كما أن شرب خمر بروبل واحد يجعل الدولة تحسر ستة روبلات نتيجة الاضرار التي يحدثها الخمور.

والحقيقة اننا لانستطيع أن نقول ونحن نهم بمغادرة طشقند أننا قد حصلنا على صورة كاملة واضحة عن أحوال الاخوة المسلمين فيها وعن كيفية ممارستهم لشعائر دينهم في الأحوال المعتادة اي حينما لاينتظرون ضيوفا أجانب.

فتلك الصورة يمكن ان يحصل عليها من تكون زيارته خاصة، وله أصدقاء وأعوان من اهل البلاد لايخشون في معاونته على مهمته بطش أحد من الحكام وذلك أمر يكاد يكون مستحيلاً في ظل الظروف الحاضرة من الحكم الشيوعي المسيطر بل المهيمن على أحوال الناس الذي لايعتبر المواطنين من هذه الناحية الا كالدمى التي يحق له ان يحركها اذا شاء وان يسكنها اذا اراد.

ولكن الشئ الذي نستطيع أن نقوله ونؤكد عليه أننا حصلنا على جزء مهم من الصورة وأنني قد نقلت كل ماحصلت عليه من تلك الصورة إلى

القارىء الكريم هنا بكل تجرد وامانة حتى اذا كان للنظام الشيوعي الحالي مايفخر به من شيء سواء أكان قولاً او فعلاً فإنني لم أهمله اذا كان له علاقة بما أتحدث عنه.

أمور ايجابية :

من الأمور الايجابية أو الحسنة التي يذكرها الشيوعيون بإسهاب بل بإطناب و يتباهون بها وقد يوافقهم عليها المنصفون أن أبناء المسلمين قد صار فيهم تحت ظل الحكم الشيوعي علماء تجريبيون وأطباء ومهندسون ومنهم طيارون وصناعيون فنيون متخصصون وان بلاد المسلمين التي لم تكن فيها قبل الشيوعيين صناعات حديثة تستحق الذكر قد صارت فيها الآن مصانع مهمة مثل مصانع الطائرات والسيارات والجرارات الزراعية وان بلدانا من بلدان المسلمين كثيرة في الاتحاد السوفيتي كانت فيها معادن وثروات معدنية ظلت دفينة الأرض، وحبيسة الاهمال حتى جاء الشيوعيون فبعثوها من مراقدها وازالوا عنها حجاب التراب وجعلوا يستغلونها لصالح ابناء المنطقة التي تقع فيها ولصالح الاتحاد السوفيتي كله.

وقد يكون هذا كله أو جله صحيحا. ولكن العاقل المنصف يعرف ان هذه الأمور كلها هي امور تجريبية تعليمية بل لها أسباب مادية من اخذ بها بنجاح حصل على نتائجها بنجاح.

ونحن نرى الآن الدول الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة الامريكية التي يناصبها الاتحاد السوفيتي العداء و يزعم أنها سبب البلاء على الأرض لكل الشعوب تبز الاتحاد السوفيتي وتتفوق عليه في هذه المجالات الصناعية، وبخاصة الدقيقة منها التي تتطلب التقنية العالية والاخذ بأسباب التصنيع حتى ان الاتحاد السوفيتي يعترف بذلك ويحاول ان يحصل على أشياء من التقنية الغربية ليست موجودة لديه ولو بالسرقة او عن طريق الجواسيس والعملاء.

وهذا يدل على أنها لاعلاقة لتحققها بالنظام الشيوعي بمعنى أن كل من أخذ بالأسباب هذه وصل إلى النتائج سواء اكان نظام الحكم عنده نظاماً شيوعياً يستعبد الشعب و يرغمه لارادة الحزب الحاكم وحده ام كان نظاماً رأسمالياً يحترم الفرد و يعتبر حريته الشخصية التي منها حرية الاختيار والتنقل داخل البلاد وخارجها هي مهمته الأولى.

بل ان نظاماً عنصرياً دكتاتورياً عانى منه الاتحاد السوفيتي وذاق منه الأمرين وهو النظام الألماني الهتلري كانت له اليد الطولى في التقدم الصناعي والتقني وإعداد المهندسين المهرة، والأطباء النظاميين والباحثين المجيدين.

وإذاً فالاتحاد السوفيتي ليس مصدر ماحققه من تقدم مادي هو اعتناقه للمذهب الالحادي وقضاؤه على التدين وحصره الدين في داخل دور العبادة فقط هو السبب في ذلك بل إنه الأخذ بالأسباب التي جرت سنة الله في خلقه على أن من أخذ بها استطاع الوصول إلى النتيجة التي تسببها (ولن تجد لسنة الله تبديلاً) (ولن تجد لسنة الله تحويلا).

شيء مؤلم :

من المؤلم بل المفزع للمسلم الغيور على دينه أن يسمع ان للشيوعية فضلاً كبيراً على المسلمين الذين يعيشون تحتها لأنها علمتهم بعد جهل، وصنعت بلادهم بعد تخلفهم لاسيما اذا استشهد الشيوعيون بما هو واقع الآن في بلاد إسلامية لم تدخلها الشيوعية من انتشار الجهل بالعلوم التجريبية وندرة العلماء والفنيين فضلاً عن الباحثين والمخترعين وحتى ضباط الجيش ومن لهم قدرة على استعمال الأسلحة الفنية المعقدة.

فكأنهم يوحون بذلك أو يريدون ان يوحوا به إلى ان الدين الإسلامي هو سبب التخلف وان المحافظة على التقاليد الموروثة والعادات المكتسبة هو سبب الجهل وعدم المعرفة بهذه الأمور المهمة.

وإذا أراد المسلم أن يرد عليهم مايقولونه والتمس شاهداً مادياً لايؤمن الشيوعيون والماديون إلا به وأمثاله من حال قطر تمسك بإسلامه وحافظ على دينه في الوقت الذي بلغ فيه مدارج العلم التجريبي والتقنية المتقدمة التي بلغتها بعض الدول غير المسلمة فإنه ربما يعجز عن ان يجد ذلك الدليل فلا يجد مثلاً قطراً مسلماً متمسكاً بإسلامه بلغ في هذه الأمور مبلغ الاتحاد السوفيتي فيها.

وإذا قيل : ان الاتحاد السوفيتي هو دولة عظمى ولديه من الامكانات المتاحة للرقي والتقدم ما ليس لسائر الدول الإسلامية في الوقت الحاضر فإنه يسائل نفسه عن الدول الصغرى المتوسطة في هذا المجال كالسويد وفنلندا وهولندا فضلاً عن الدانمراك والمجر مثلاً وذلك في ميدان الصناعة والاختراع.

وذلك كله بسبب عجز بعض المسئولين في الدول الإسلامية أو تعاجزهم عن الأخذ بالأسباب الموصلة إلى الصناعة الراقية والعلم المادي النافع.



عند الخروج من فندق «اوزبكستان» مع الدكتور شمس الدين بابا خانوف

من طشقند إلى سمرقند

ساعات في مطار طشقند :

تركنا فندق اوزبكستان في السابعة مساء قاصدين مطار طشقند وكان من المقرر أن نغادره إلى مدينة سمرقند في الثامنة والنصف.

وكان بصحبتنا من سيرافقوننا إلى سمرقند وعدد من الاخوة اضافة إلى الوفد المعتاد من المرافقين الذي يبلغ عددهم احد عشر رجلاً كما كان في الوداع عدد كبير من ائمة المساجد ومدرسي معهد الامام البخاري والعاملين في ادارة الشئون الدينية.

وصلنا المطار بسهولة فهو قريب من الفندق فأجلسونا في غرفة كبار الزوار وقدموا المشروبات من الماء المعدنى وعصير الفاكهة وبعدها الشاي والقهوة في انتظار الوقت المحدد لدخول الطائرة غير أن انتظارنا طال قليلاً فأعلنوا ان الطائرة ستتأخر في الاقلاع ساعة واحدة وسيكون إقلاعها في التاسعة والنصف بدلاً من الثامنة والنصف.

وكان في الغرفة التي نحن فيها بعض الجالسين الذين عليهم المظهر الروسي ولم نعرف شيئاً من مرافقينا عن حقيقتهم ولكن تبين أن هناك غرفة أخرى لكبار الزوار كانت مشغولة أيضاً.

اما السياح الأجانب الذين كانوا في المبنى العام للفندق وبعضهم في مقهاته او مقصفه فانهم كثر أيضاً وكانوا سيقومون على رحلات أخرى غير رحلتنا.

واستمر التأخر وتجاوز الموعد الجديد فعلل المرافقون ذلك بأنه لسوء الجو في سمرقند وقال بعضهم: ان هناك عاصفة في سمرقند، وكانت الريح قوية عندنا في طشقند فكانت تعبث بأبواب البناء ونوافذه وتبين أن ذلك كان مقدمة لمطر انهمر كما تكون العاصفة في صحرائنا قبل مطر الصيف.

وقلنا: ربما كان الجو في سمرقند مثل الجو هنا رغم البعد النسبي بين المدينتين.

وذكرت واقعة شبيهة بهذه حصلت لنا أثناء سفرنا في تركستان الشرقية شقيقة تركستان الغربية هذه فقد كنا في مطار أورمسي، عاصمة تركستان الشرقية التي يسميها الصينيون (سينكيانغ) ونحن نستعد للسفر إلى مدينة كاشغر تلك المدينة المسلمة العريقة التي لم يدخلها (التصيين) نسبة إلى الصين ــ فانتظرنا فترة في المطار واخبرونا في النهاية ان السفر اليوم غير ممكن لأن مطار كاشغر واقع تحت عاصفة مع ان الجو عندنا ليس فيه شئ ولكن المسافة بين المدينتين بعيدة جداً وليست كالمسافة بين طشقند وسمرقند.

ثم تأخرنا يوماً كاملاً حتى تمكنا من السفر إلى هناك على طائرة مروحية صغيرة قطعت المسافة بين المدينتين اورومسي و(كاشغر) بعد ان حطت في مدينة (اقصو) بينهما في عدة ساعات طويلة.

ولذلك سألت إخواني هنا عن الطائرة التي سنسافر عليها فأخبرونا انها طائرة متوسطة او صغيرة في الغالب، فقلت في نفسى: ربما تكرر لنا في تركستان الغربية ماحصل في تركستان الشرقية.

وطال بنا المقام وكانت غرفة الزوار التي نحن فيها في الطابق الثاني من بناء المطار وبجانبها قاعة واسعة تستعمل بمثابة المقصف وحانوت فيه تحف من صنع هذه الجمهورية وهدايا يدوية رأيت السياح يقبلون على شرائها.

واحتجنا للحمام فلم نجده في الطابق العلوي ومررنا إليه بعدة مكاتب للموظفين رأيتها كلها غير فاخرة، ولامجهزة بالأثاث الحديث وإنما أثاثها خشبي متوسط وجدت الحمام في حالة سيئة جداً اعادت إلى ذاكرتي الحالة السيئة التي رأيت الحمام عليها في مطار اورومسي عاصمة تركستان الشرقية فمثلاً ليس في الحمام ماء ولا ورق ولا أية وسيلة من وسائل التنظيف وإنما

على من يريد استعماله ان يأخذ معه اوراقاً من خارجه.

وتأكد عندي مالمسته في هذه البلاد من ان المرافق العامة التي يستعملها عامة الناس لاتبالي بها الحكومة مثل كثير من نواحي الحياة التي اهملت مايريح الناس فيها مركزة على مايكسب الدولة القوة والمتعة وجاعلة الأولوية للصناعات الحربية والصناعات الثقيلة التي تتعلق بها أو تؤدي إليها.

وعند الخروج من الحمام نفسه اي المرحاض كانت هناك مساحة فيها ثلاثة احواض لغسيل الأيدي وذلك لكثرة من يحتاجون اليها ولكن ليس عليها ولا مرآة واحدة في الوسط حتى يستطيع من يستعمل الأحواض الثلاثة أن يستفيد منها بخلاف ماهو معمول به حتى في مطارات البلدان المتخلفة أو التي يسمونها نامية من أن يكون فوق كل حوض مرآة واحدة لمن يستعملونه.

وكان مكبر الصوت يذيع حركة الطائرات باللغتين الروسية والازبكية وقد خفت الحركة في المطار ونحن لاتزال في الانتظار وتجاوزت الساعة العاشرة والنصف ثم وصلت الحادية عشرة وكان من المقرر أن نتناول العشاء في سمرقند.

وأحرج مضيفوناحول بقائنا بدون عشاء فاخبرتهم ان هذا ليس مهما لنا واننا نقدر ان تأخر الطائرة لا يد لهم فيه غير أنهم تشاوروا فيما بينهم ثم أرسلوا رسلاً إلى جهة معينة عادوا بعدها بالعشاء وهو دجاج ومايسمى باليغمش وهو لفافات من العجين الابيض في قلبها اللحم المطحون والبهارات والخضروات فهي تشبه السنبوسك من هذه الناحية ومعها الخبز الوطني الغليظ وجاؤا مع العشاء بشئ غال عندهم في هذا الفصل من السنة لايقدم الا لضيوف اعزاء الا وهو الطماطم لأنه لاتوجد ثماره الآن الا من نبات استنبت في بيوت محمية من البرد بحمى من الزجاج او اللدائن.

الحبس في الطائرة :

تعشينا وكنا نخشى ان يقطع قيام الطائرة علينا العشاء غير ان بقاءنا في المطار قد امتد حتى الساعة الثانية عشرة منتصف الليل عندما دخلنا الطائرة وهي مروحية صغيرة ذات محركين مروحيين نصف نفاثين تتسع لأربعة وخمسين راكباً وكان المطر ينزل رداذاً متفرقاً عندما ركبنا الطائرة وبعد ان شددنا الأحزمة، وأغلقت أبواب الطائرة بقيت جاثمة في مكانها ولم تتحرك وكنا تعبنا من الجلوس في غرف الزوار في المطار مدة خمس ساعات ونصف مما جعلنا نشعر بأننا قد حبسنا فيه لأننا لانستطيع ان ننطلق بطبيعة الحال إلى اي مكان آخر.

امتد وقوف الطائرة وهي جاثمة على أرض المطار ونحن قد سمرنا إلى مقاعدنا وقال الاخوة المرافقون: لقد اغلق مطار طشقند نفسه الآن وعلينا ان ننتظر فتحه لاقلاع الطائرة ولم أصدق ذلك فلم يكن هناك مايدعو إلى اغلاقه.

فالجو جيد والمطر ينزل نزولاً خفيفاً وان كان يشتد أحياناً فانه ليست هناك عواصف الآن، بل ليست هناك رياح قوية.

ثم جاء الخبر على لسان أحد المرافقين الذي جرأ على سؤال المضيف عن السبب فأجاب ان ذلك لكون المطر ينزل ولاتستطيع الطائرة ان تطير حتى يتوقف المطر.

وكان الحر داخل الطائرة قد بلغ من الركاب مبلغه فالطائرة مليئة بالركاب فليس فيها مقعد خال وقد أغلقوا باب الدخول إليها وهو واحد خلفها كما اغلقوا الباب الذي يفصل بين الركاب وغرفة القيادة.

صبر عجيب :

وليس هو صبرنا نحن فنحن كنا نتأفف ونتحدث بذلك فيما بيننا

بالعربية وان كان ذلك بالهمس الخافت لأن أصواتنا كانت وحدها الاصوات التي تسمع في الطائرة.

أما بقية الركاب من المواطنين فإنهم قد صمتوا صمتاً وصبروا صبراً حتى عن الشكوى في مثل هذه المواقف. فلم يسأل أحد منهم المضيف عن السبب ولم يطلبوا ان تفتح الأبواب من أجل أن يمر منها الهواء مع أنهم لم يتعودوا على الحر مثلنا.

ويدل هذا على سذاجته وبساطته دلالة ذات معنى وهي ان الشعب السوفيتي شعب قد مرن على الصبر وصبر حتى على عدم الشكوى وقد عرفنا هذا بعد ذلك منهم وعن طريق الأخبار من بعض الاخوة.

والغريب في الامر ان المسئولين في الطائرة لم يروا ان للركاب وفيهم نحن الضيوف الاجانب ان يخبروهم بسبب استمرار وقوف الطائرة وعدم تحركها فلم يعلنوا ذلك في المكبر ولم يرسلوا احد المضيفين وهما رجل وامرأة ليشرح الأمر لهم.

وكان المضيفان يتناوبان الدخول والخروج من غرفة القيادة إلى الطائرة فيمران بالركاب إلى مؤخرة الطائرة وكأن الواحد منهما آلة من الآلات فلا ابتسام ولا مظاهر تأفف.

وقد شعر بعض المرافقين بضيق التنفس لأن الطائرة صغيرة ومليئة بالركاب وليس فيها تكييف هواء ولامراوح ولو فتحوا بابي الطائرة لدخل الهواء واراح الناس من هذا الضيق الذي يقارب الاختناق.

وكان الشيخ (طلعت تاج الدين) رئيس الادارة الدينية للقسم الأوروبي من الاتحاد السوفيتي وسيبريا جالساً بجانبي والأحزمة مربوطة فطلبت منه ان يكلم المضيفة أو المضيف يسأل عن الأمر فقال للمضيفة: اربط الحزام او نتركه؟ يشير بذلك الى السؤال عما إذا كان وقوف الطائرة هكذا سيطول أم بقصر.

فأجابت قائلة باقتضاب وبدون مبالاة من غير أن تتوقف: كما تريدون.

وكانت الطائرة قد ادارت محركاتها قبل ذلك ثم أوقفتها.

وقارنت في ذهني ايضاً بين الطائرة الصينية التي سافرنا عليها من (أورومسي) إلى كاشغر وتذكرت ان المترجم الذي كان معنا طيلة رحلتنا في الصين وهو الاستاذ (لقمان ماشان لي) أخذ مكبر الطائرة وتكلم باللغة العربية شارحاً كل مايتعلق بالرحلة من باب المجاملة.

أما أنا فلم اقتنع بكون الطائرة لاتستطيع ان تطير بسبب نزول مطر غير شديد وقد سافرت في بلدان مختلفة من اركان العالم وركبت طائرات متنوعة ومنها صغيرة مثل هذه فلم أر أن نزول المطر اذا كان خفيفاً وبدون رياح قوية يمنع الطائرات من التحليق.

وعلى أية حالة فقد بلغ الضيق منا مبلغاً عظيماً وشعرنا اننا في حبس حقيقي حبس عنا فيه حتى الهواء.

وزاد من ذلك في نفسي شوق عظيم كنت أشعر به لرؤية مدينة سمرقند عاصمة القرون القديمة التي وطد فتحها قتيبة بن مسلم الباهلي وكان في فتحها انتصار للاسلام عظيم.

كيف لا، وقد ارتسم في ذهني ماكان تردد في سمعي وتحت بصري من رؤية لاسم سمرقند أو حديث عنها او عن علمائها من المحدثين والأدباء النابغين.

حتى إنني الليلة البارحة استبطأت الصباح الذي سأسافر بعد يومه إلى سمرقند التاريخية المهمة. فجاء التأخر في المطار والتأخر في قيام الطائرة ضغثا على إبالة.

إلى سمرقند :

بعد توقف دام ساعة كاملة داخل الطائرة وفي الواحدة بعد منتصف الليل أديرت محركات الطائرة وأعلنت المضيفة من المكبر أن الطيران إلى سمرقند يقطع ثلثمائة وتسعين كيلو مترا وهي مسافة قصيرة كان يمكننا ان نقطعها بالسيارات بأقل من وقت التأخر الذي تأخرناه في المطار وخفنا منه أن يؤثر على برنامجنا في زيارة سمرقند.

واعلنت المضيفة أيضاً أن الطيران سيستغرق خمساً وخمسين دقيقة.

ولكن الطائرة بعد هذا الإعلان بقيت ومحركاها يدوران مدة وهي متوقفة.

ثم قامت في الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل فمرت فوق جزء من مدينة طشقند وقد بدت انوار البيوت فيه خافتة في هذا الوقت المتأخر من الليل ماعد الشوارع الرئيسية الحديثة فهى منارة جيداً.

ولم يخف الحر بتحليق الطائرة ولم يكن فيها تكييف هواء للتبريد وربما كان ذلك لكون بلادهم باردة في أغلب الفصول فتحتاج للتدفئة اكثر مما تحتاج إلى التبريد ولكن الجو في الجنوب والشرق يكون في الصيف حاراً ولم يكن في الطائرة ايضاً صمام يرسل الهواء الطبيعي كالمعتاد في الطائرات الصغيرة.

وكانت الضيافة نصف فنجان كبير من ماء معدنى وعادتهم ان يقدموا المشروب الذي يتألف من الماء المعدني او من مشروب غازي بأكواب كأكواب الشاي الكبيرة.

وقد قدمته المضيفة وهي مقطبة الأسارير وكأنما هي تمن على الناس بذلك وإن كان الإنصاف يقتضي أن نذكر أن ملامح وجهها لا تدل على سرور ولا على انقباض.

في مطار سمرقند :

بانت اضواء مدينة سمرقند على البعد قليلة غامضة ثم أخذت تتجلى شيئاً فشيئاً حتى صرنا في المطار مباشرة فتضاءلت لأننا أبعدنا عن قلب المدينة.

ثم هبطت بعد الساعة الثانية بقليل في مطار لا تبدو الوجاهة على مدارجه واضواء الممرات في المدارج.

وعند سلم الطائرة كان هناك طائفة من المستقبلين الذين يبدو عليهم السهر والإعياء مثلنا اذ كانوا في المطار ينتظرون قدوم الطائرة منذ الساعة الثامنة والنصف ومنهم عبدالله مليوف، اي ابن ملي لان أوف هي ابن و(ملي): اسم معروف بين المسلمين هنا. وهو ممثل شئون الأديان في سمرقند. والشيخ مصطفى قل امام مسجد خوجه جود مراد في سمرقند و يوسف خان نائب وكيل الشئون الدينية في سمرقند والشيخ عثمان بن رحيم جان إمام جامع الإمام البخاري في بلدة خرتنك.

وانتقل الجميع إلى غرفة كبار الزوار التي كانت خالية في هذه الساعة من الليل وحتى الموظفين لم نرفيها الا واحداً ولم نرد القهوة والشاي والمشروبات الباردة لأننا قد اخذنا كفايتنا منها في مطار طشقند.

ولاحظت ان الشطرنج موضوع على مائدة في الغرفة فذكرني هذا ببعض مدن الصين غير الكبيرة ومنها مدينة (اق صو) في تركستان الشرقية حيث رأينا في مطارها (لعب الشطرنج) جاهزة وذلك من أجل ان يستعين بها على قطع الوقت من يتأخرون في انتظار ركوبهم الطائرات.

في مدينة سمرقند :

قربوا موكب السيارات كالذي كان معنا في طشقند في مقدمته سيارة سوداء طويلة مخصصة لرئيس الوفد وكان الظلام الدامس هو المسيطر فلم

اتبين شيئاً من معالم الطريق الذي نسير فيه مع شوقي إلى ذلك لأنه حتى أرباض مدينة سمرقند وهي أريافها التي تحيط بها او تقرب منها ورد لأكثرها ذكر في كتب اسلافنا المؤرخين والأدباء العرب.

ووصلنا فندق سمرقند الذي سنقيم فيه بعد الساعة الثالثة قبل الفجر بقليل.

وكانت غرفتي في الطابق التاسع مؤلفة من غرفة نوم فيها سريران ضيقان وغرفة استقبال ووجدناهم أعدوا العشاء في الغرفة ففي غرفتي كباب أي شواء بالقضيب وخبز وجبن وتفاح وخضروات من الخيار والطماطم وحلوى وماء معدني.

وقد نلت من ذلك قليلاً ثم ذهبت اتفقد الفندق فرأيت كل ذلك يصح أن يقال فيه انه يحتاج إلى صيانة فباب الغرفة لايكاد يغلق ووجدت صعوبة في اغلاقه والحمام الخاص في الغرفة تنقط من فوقه نقط من الماء الخفيف لاشك في أنها متسربة من الحمام الذي فوقه في الطابق العاشر وصنبور الماء لايمسك الماء إذا أغلق إمساكاً كاملاً.

وفي الغرفة ثلاجة كبيرة قديمة.

وتركني الاخوة المرافقون والمضيفون في سمرقند بعدان تواعدنا على اللقاء في الساعة العاشرة من صباح غد وذلك لكوننا نحتاج إلى شئ من الراحة في الصباح.

ويتأخر توقيت سمرقند عن توقيت طشقند بساعة واحدة.

يوم السبت ١٠ شعبان ١٤٠٦هـ ـــ ١٩ أبريل ١٩٨٦م

صباح سمرقند :

كان صباح سمرقند قد أعقب ليلة ليلاء أو على الأدق كان في أعقاب

ليلة من الأحلام المليئة بسمرقند فكأنني لم أصدق نفسي أنني الآن حقاً في سمرقند ذات التاريخ العتيق والماضي الإسلامي المجيد بلاد العلماء الأعلام من اهل الإسلام من المؤرخين والشعراء ومن الفلاسفة والحكماء.

وربما كان ذلك أيضاً هو ما جعل نومي متقطعاً وفكرى موزعاً حتى اسفرت النافذة خلف الستارة فأزحتها عن منظر انيق وان كان لايروق فأناقته انه لسمرقند التي كان اسمها يجلجل في خاطري و يلح في ذلك منذ أن دخلنا هذه الأرض أرض بخارى وماوراء النهر قبل أيام.

وأما كونه لايروق فهو أنني تصورت ان عيني ستقع اول ماتقع عليه من مدينة سمرقند من نافذة غرفتي الواقعة في الطابق التاسع من فندق سمرقند على أبنية بهيجة، وحدائق مزهرة، وأنهار أراها كما تخيلتها من أوصاف المؤرخين تدخل البيوت فتخرج منها بخبث أهلها لتبعد الخبث عن مدينتهم.

وكان أول مناظر المدينة بيوتاً قديمة ذات طلاء متغير و بيوتاً منفردة ذات سقوف مسودة مسنمة. وأبنية ترى منها وميض التاريخ على البعد وهي تبدو شبيهة بالقلاع أو التكاريا القديمة من ارتفاع غرفتي ومنها واحد ذو قبة زرقاء اللون عرفت بعد ذلك أنها القبة المبنية فوق قبر قثم بن العباس ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم.



منظر من الفندق لاحياء سمرقند

وهي الوحيدة القديمة المجددة فكان طلاؤها الأزرق يلمع وكأنما ينافس زرقة السماء في هذا اليوم المشرق المشمس الصافي الأديم.

وغير بعيد منه بناء تاريخي آخر لكن قبته غير لامعة بل إنها صدئة كأنما نفض التاريخ عليها من غباره او من احزان أهلها المسلمين الذين انقلبت كفة الدهر بهم بسبب سؤ أعمالهم وأعمال إخوانهم فرجحت بها كفة أخرى من كفتى الميزان هي كفة الالحاد ومعه الإستعباد فلا حول ولا قوة الا بالله العظيم.

وصرت وانا اتأمل مدينة سمرقند من نافذة الفندق الذي لايقع في ضاحية بعيدة وإنما هو في ركن من المدينة القديمة غير بعيد عن وسطها فأقول: اين ماذكره المؤرخون عنها من بهجة مرأى، وقوة عمارة، وكثرة بساتين؟.

وهل مرجع ماهى عليه الآن هو ما ابتليت به في هذا الزمان أم انه المبالغة في القول؟ أما هي الحقيقة ولكنها حجبت بما أصبحنا عليه من خير وما صارت تتمتع به مدننا من جمال وما فيها على صحراويتها — من حدائق في البيوت ومرافق في الأسواق نافست بها بلاد الأغصان والأشجار.

أم أنه النوم العميق الذي إذا ران على الأوطان اخلدت إليه كما يخلد الوسنان إلى إغفاءة السهران لايبتغى بها بدلاً، ولايريد عنها حولا، ولو كان حوله حريق لكونه لايريد أن يفيق؟

ورحت أبحث عن قبر تيمور فاذا بقبته لاتزال شامخة فقلت في نفسي ماذا لو خرج تيمور فرأى من عجائب المقدور ما انساه ماذكره عنه ابن عربشاه في كتابه «عجائب المقدور في نوائب تيمور»؟

وازدحمت الأفكار في ذهني وانا اعجب من تدني احوال المسلمين بعد العز المكين واذا بأحد الأصحاب يطرق الباب ويقول: ان القوم حضور فهيا إلى الفطور.

وكان الفطور في مطعم (سمرقند) على مائدة خاصة فصلتنا عن جمع كبيز من السياح الأوروبيين وذوي المظهر الأوروبي جاؤا إلى سمرقند لمشاهدة آثارها وتلمس أخبارها وربما لرؤية إدبارها ولله في خلقه شئون وإذا اراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون.

و يقال ان سمرقند مدينة قديمة يرجع تاريخها إلى ٢٥٠٠سنة وقد قامت بدور هام في التاريخ الإسلامي لآسيا الوسطى منذ ان فتحها العرب المسلمون في عام ٥٦هـ/ ٦٧٥م وكانت عاصمة لعدد من الحكومات الإسلامية التي كان لها شأن في المنطقة بدءاً من الدولة السامانية ٢٥٢ — ٣٧٥هـ حتى الدولة التيمورية ٧٧٠ — ٩٠٦هـ وقد ازدهرت سمرقند بسبب اهتمام الملوك باتخاذها عاصمة، فتوجد فيها الكثير من الآثار الإسلامية الرائعة والتي بدونها تكون سمرقند قرية من القرى المنسية تلك المباني الجميلة تعكس حضارة الإسلام في هذه المنطقة وتنظر بحزن وألم لما آل إليه حال المسلمين.

و يبلغ عدد سكان سمرقند الآن ٣٤٥ ألف نسمة. وفي عهد تيمور لنك كان سكانها يبلغون ٤٥٠ ألفاً هبط عددهم إلى أقل من ١٠٠ ألف بعد ذلك.

قبر تيمور لنك

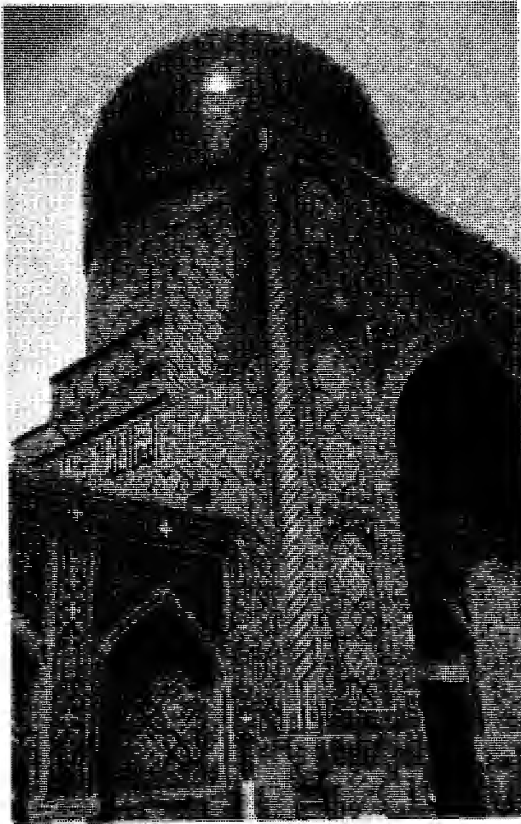
ولنك أو لنق بجيم مصرية معناها: الأعرج بالتركية ولتيمور في عرجه قصص طريفة رغم أن أكثر قصصه مخيفه.

بدأ برنامج اليوم بفقرة مثيرة هي زيارة ضريح أكثر الملوك الذين أتخذوا سمرقند عاصمة لهم إثارة هو تيمور لنك الذي غزت جيوشه أكثر البلدان الإسلامية ومنها الأمصار العربية كما كان غزا حدود روسيا وألح على أبناء عمومته الترك الذين تقع بلادهم على حدود روسيا يغزوهم ويمعن فيهم قتلا وتشريدا حتى زعم بعضهم أن غزواته تلك لبلادهم ربما كانت سبباً من اسباب تغلب الروس عليهم، لأنهم انقسموا وضعفوا بعدها.

ثم عزم على غزو الصين فتوجه إليها غازياً ولكنه مات في الطريق عن عمر لم يتجاوز ٤٢ سنة في عام ٨٠٧هـ.

وقد سار الموكب إلى الضريح مع شوارع لابأس بها وان كانت دون شوارع طشقند بكثير ليس من حيث السعة فحسب، وإنما من حيث العناية والتعمير والتشجير.

ويرى المرء البيوت عليها طابع القدم والأزقة التي لم يكد يطرأ عليها تغيير فيسر بذلك إذا كان مثلي يعشق الآثار القديمة ويحب ان يرى كيف كان المسلمون يعيشون في المدن الإسلامية في القديم.



منظر خارجي لمقبرة تيمور لنك

رأينا القبر عندما رأيناه ذا قبة شاهقة ومنظر خطير وعرفنا السبب في ذلك عندما علمنا من الدليل الذي كان في انتظارنا عند القبر وهو مسلم من أهل سمرقند اسمه موسى بن نورسن أن تيمور لنك نفسه هو الذي بنى هذا الضريح لنفسه من أجل أن يدفن فيه هو واولاده ولكنه مات قبل أن يتم بناءه بسنتين فأكمله خلفاؤه من بعده.

دخلنا إلى القبر الذي يقع تحت القبة العالية من باب مواز لأرض الشارع تقريباً فرأينا قبر تيمور وقبر ابنيه مهران شاه وشاه رخ بجانبه وقبر حفيديه واسم احدهما محمد سلطان والأخر (ميرز ألغ بك).



الوفد عند قبر تيمور لنك في سمرقند

و يقع قبر تيمور في وسط هذه القبور وقد جلل بمرمر أسود ورفعت القبور حوالي نصف متر عن سطح الأرض.

وعند رأس تيمور قبر استاذه المسمي (مير سعيد بركات) او بركة وذكروا أنه كان قد توفى قبله ونقل رفاته إلى هنا وقد زينت القبة التي تعلو القبر بنقوش وزخارف بديعة من النقش الأصيل في البلدان المسلمة في ذلك الوقت واستعمل الذهب في زخرفتها ونقشها وكتبت عليها آيات قرآنية عديدة.

الخداع حتى في القبور :

المعروف عن تيمور أنه مخادع ماكر في الحرب و(الحرب خدعة) كما يقولون وقد استفاد من المخادعة والمراوغة في حروبه وان كان في كثير من

الأحيـان لايـرى نفسه بحاجة إلى ذلك فيصارح اعداءه بأنه سيهجم عليهم أو يبادرهم بالهجوم العلني ثقة منه بقوة جيشه وضعف أعدائه.

ولـكـنـنـي لم أظـن ان (تيـمور لنك) مخادع حتى في موته اذ قلت لأحد الرفاق مداعباً ماذا لو خرج تيمور من قبره فرأى ماعليه بلاده الآن؟

فـأجاب ضاحكا: إنه لن يخرج من قبره هذا حتى ولو نفخت فيه الروح وأن هذا القبر ليس قبره.

فقلت : كيف يكون ذلك؟

فـأجـاب : لأن هـذه الـقبور هي مزيفة وليست حقيقية وإنما هي نسخة للقـبور الحقيقية الموجودة في طابق اسفل من هذا القبر تحت الأرض سنمضي لمشاهدتها بعد قليل.

وعجبت من ذلك لأن هذه القبور التي نشاهدها لها مظهر القبور الحقيقية تـماماً وحتى المكان المحيط بها لايبعد عما كان يحيط بقبور الكبار عند الناس من الحكومة ومن يعتقدون فيه الصلاح في ذلك الحين.



داخل ضريح تيـمور لنك (من اليمين) الدكتور سعيد محمد باديب فالمؤلف فالدكتور شمس الدين فالشيخ سالم بن عبدالله السالم

ولذلك رأيناهم يرممون القبر، و يعيدون لنقوشه رونقها او لنقل إنهم يعيدون البناء الذي على القبر لأن القبر نفسه لم يمس.

وذكروا أنهم استعملوا في اعادة النقوش والزخارف إلى طبيعتها داخل المبنى كيلوين ونصف كيلو من الذهب إضافة إلى الأصباغ والمواد الأخرى التي استعملت في هذا الغرض وذلك في عام ١٩٧٥م.

ولايزالون الآن يواصلون ترميم المبنى من الخارج والداخل. وذلك وفق خطة للمسئولين السوفييت هنا في ترميم الأضرحة والمباني العامة على القبور والمشاهد لأغراض سياحية لأنها تجتذب السياح الذين تحصل منهم السلطات الحكومية على أموال بالعملة الصعبة من جهة ومن جهة أخرى لخداع السذج من العامة الذين يتوهمون ان هذه المشاهد والمقابر هي آثار اسلامية وشواهد تاريخية على تقدم اسلافهم وأنه لذلك تجب العناية بها ويحمدون للدولة تلك العناية.

القبور الحقيقية :

خرجنا من الضريح بقبوره الوهمية إلى خارج المبنى ثم عدنا إلى دخوله من باب جانبي متطامن يقع أسفل من أرض الشارع غير مواز للباب الظاهر الذي دخلنا منه و يقع في مكان من الجدار و يؤدي إلى طابق سفلى ينزل إليه بدرج حيث يوصل إلى ساحة في الأسفل تشبه القبو أو (البدروم) وفيها القبور الحقيقية قبور تيمور لنك واولاده.

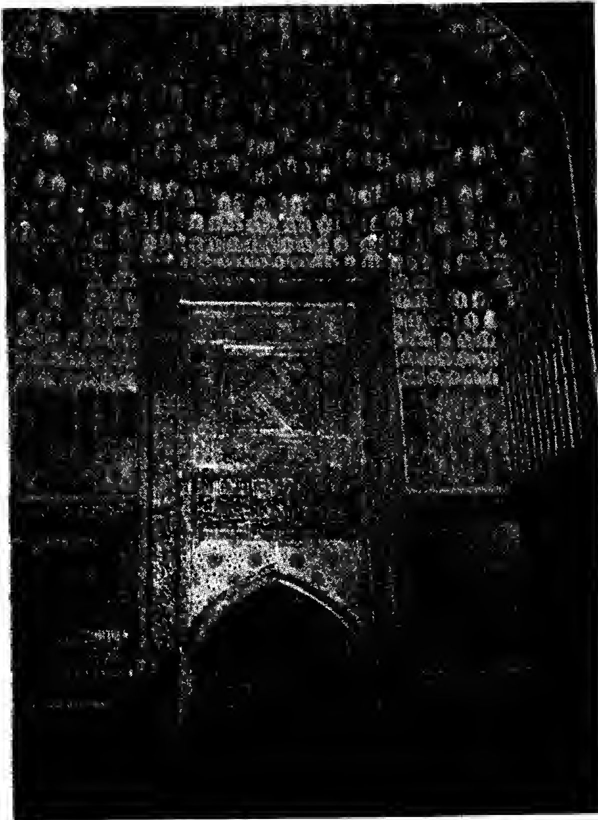
وقد فعل تيمور لنك ذلك أو فعل بناء على وصيته خشية على قبره ان ينبشه اعداؤه بعد موته فيشمتوا به.

وقد تحقق ما رمى إليه، إذ بقيت هذه القبور الحقيقية مجهولة للناس عبر القرون حتى تحققت منها السلطات المسئولة عند مافتحتها في عام ١٩٤١م فوجدتها قبوراً حقيقية وفيها الجثث لم تمس منذ أن دفنت.

والقبور الحقيقية هذه تشبه في مظهرها القبور الوهمية والمزيفة الموجودة في الطابق الذي هو أعلى منها وهو الموازي للأرض الا أنها أقل تزويقاً.

وقد كتب عليها بالعربية تاريخ الأمير تيمور واسماء اهل القبور.

ومما يذكر هنا انه حتى مع هذا الاحتفاء بقبر تيمور لنك حتى قبل وفاته ثم بعدها فانه توفى بعيداً عن وطنه، وعن مكان قبره هذا ثم أكمل حفيده قبره الذي لم يكن قد تم قبل موته ونقله جثمانه إليه.



منظر من داخل ضريح تيمور لنك

وقد ذكرتني طريقة إخفاء القبور تحت قبور وهمية ماكان يفعله الفراعنة في قبورهم إذْ كانوا يضعون نسخة من التابوت الخالي في قبر زائف ويخفون القبر الحقيقي خوفاً على القبر من لصوص المقابر الذين كانوا يسرقون ماتحتويه قبور الفراعنة من كنوز لا تقدر بثمن من الذهب فما دونه.

وسألت نفسي عما إذا كانت هذه الفكرة معروفة لتيمور ومن هم في عصره أو أنها كانت بمحض المصادفة؟

وتجدر الاشارة إلى أن تيمور لنك استمر أميراً أي في السلطة مدة خمس وثلاثين سنة امتدت سلطنته أو امبراطوريته في الحقيقة وان لم يسم نفسه امبراطوراً فشملت مساحات واسعة من قارة آسيا إلا أن سلطته لم تكن تستقر كثيرا في البلدان البعيدة التي يفتحها.

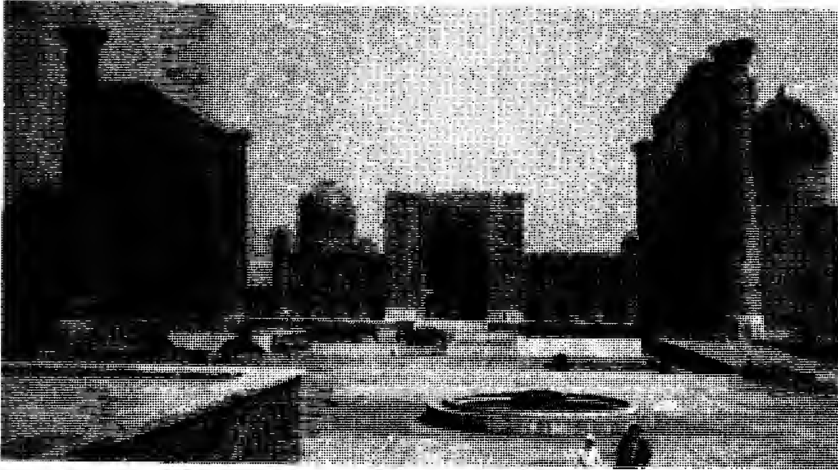
وكانت مدينة (سمرقند) هذه خلال حكمه تعتبر عاصمة دولة كبرى بمقاييس الدول في ذلك العصر.

إلى ميدان المدارس :

تركنا القبور إلى مسارح تيمور بل إلى ميادين انتصار الإسلام قبل ثلاثة عشر قرناً من الزمان لنرى من أمر سمرقند هذه مايستحق ان يرى.

فكانت الجولة الأولى في ميدان وسيع، بل عظيم يسمى (ميدان ريجستان) وتحيط بهذا الميدان مدارس ثلاث سميت بهذا الاسم. وإن كانت الواحدة من المدارس هذه تشتمل على عدة أبنية هامة مثل المسجد والمكتبة.

ومعنى كلمة (ريجستان) بلغتهم الأرض الكثيرة الرمل مما يظن معه ان هذا الميدان عندما أقيم في أول الأمر خلال القرن التاسع الهجري كان



صورة التقطها المؤلف لجزء من ميدان رايجستان تحيط به المدارس

كذلك او كان جزء منه يتصف بهذه الصفة ثم صار كله بعد ذلك ساحة واسعة بالغة السعة مفروشة كلها بالحجارة المهذبة الغالية الثمن، الكثيرة التكاليف.

و يتوسط ميدان (ريجستان) مجموعة من المدارس هي ثلاث تحيط به من جهات ثلاث أما الجهة الرابعة فإنها مدخل هذا الميدان العظيم.

وهذه المدارس الثلاث ذات بناء فخم ضخم يمثل ــ بحق ــ ما كان قد وصل إليه فن البناء في البلدان الإسلامية في ذلك التاريخ القديم من اتقان. وما بلغته الزخرفة من فن دقيق يتجلى فيه الذوق الرفيع.

فهي في حد ذاتها مدارس او بنيت لتكون كذلك ولكنها في الوقت نفسه هي مدارس للباحثين من حيث التصميم والبناء والإتقان.

وقد حفلت بالآيات القرآنية الكريمة المكتوبة بخطوط غاية في الجودة والاتقان وزخرفت بالنقوش التى تسمى النقوش الإسلامية لكونها هى التي كانت شائعة في العالم الإسلامي في القديم ولكونها خالية من صور الأحياء من أناس وحيوان.



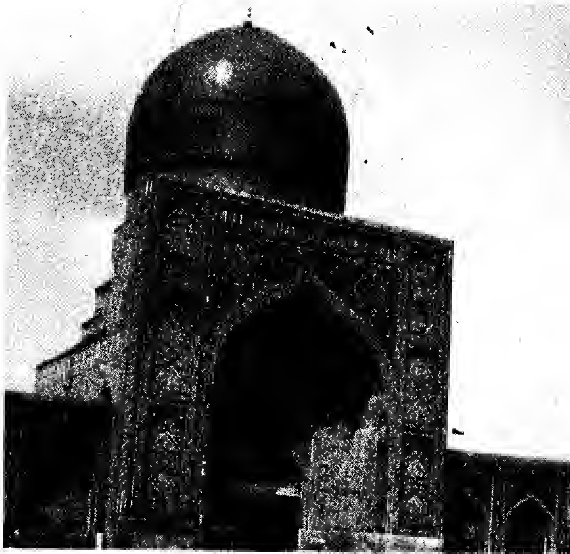
الوفد في ميدان ريجستان أمام إحدى المدارس

والمدرسة الأولى التي بناها (أولغ بك) حفيد تيمور ودرس فيها هو نفسه وهو معروف بمحبته للعلم وشوقه إلى المعرفة حتى إنه أنشأ مرصداً عظيماً في سمرقند سيأتي الكلام عليه عندما نزوره فيما بعد ان شاء الله كما نوه الدليل والحاضرون بان الشيخ (عبدالرحمن الجامي) المشهور عند المتأخرين بمؤلفاته المختصرة في النحو والصرف قد درس في هذه المدرسة مما أعاد إلى ذاكرتي ماكنت قد اقتنيته في أول عهدي بطلب العلم من مؤلفات هذا العالم الجليل التي هي متون مختصرة قد حوت معلومات مركزة من العلوم.

وكان الشيخ عبدالرحمن الجامي قد درس فني النحو والصرف في هذه المدرسة.

واخبرونا انها بنيت مابين عامي ١٤١٨ ــ ١٤٢٢م.

قلت ان بناء المدارس هذه هو ضخم فخم ولعل مما يقرب ذلك إلى ذهن القارىء الكريم ان يعرف ان ارتفاع القوس المثبت بالجدار والذي يعلو المدخل الرئيسي للمدرسة يبلغ ٣٤ متراً اي ما يزيد على ارتفاع بناء مؤلف من عشر طبقات.



والثانية: مدرسة (شيردار) وترجمتها مدخل الأسد وقد بنيت في عام ١٦١٩ ــ ١٦٣١م.

والثالثة: مدرسة تلا قارى ومعناه: العمل المذهب، لأن هذه المدرسة طليت اجزاء منها بالذهب وبنيت مابين عامي ١٦٤٦ و١٦٦١م.

وقد نال الخراب هذه المدارس الفاخرة وما ألحق بها من أبنية فاخرة البناء أيضاً كما لحق الخراب بأجزاء من ميدان ريجستان الذي تقع عليه ومعنى اسمه الموضع الكثير الرمل كما قيل لنا.

وإلى هذا السبب اي كون الميدان كان فيه رمل يرجع ــ فيما يعتقد ــ من كون منارتين في هذه المدارس قد مالتا عن الاستقامة التي كانتا عليها بمقدار مترين مع ان ارتفاعهما يبلغ ٣٢ متراً و يظهر الميل واضحاً حتى للرجل غير البصير بهذه الأشياء.

تجولنا في المدارس الثلاث وهي غاصة بالسياح من اجناس مختلفة ترجع اكثرها إلى الأصول الأوروبية، كما يوجد من بين السياح طائفة من أهل المناطق الإسلامية في هذه الجمهورية جمهورية أوزبكستان وماجاورها جاؤا لمشاهدة الآثار الرائعة التي خلفها اجدادهم المسلمون في هذه البلاد.



صورة تذكارية للوفد مع الأخوة المرافقين أمام إحدى المدارس في ميدان رايجستان بسمرقند

ولا تزال اعمال الترميم جارية على قدم وساق في ترميم هذه المدارس وما يجاورها من أماكن وهو ترميم صعب لأنه لابد ان يكون مطابقاً لما

كانت عليه اول الامر من تزويق ونقش حتى لايتنافر التجديد فيها مع الأصل القديم.

وقد أدمجت الآيات القرآنية والعبارات الإسلامية في النقش حتى صارت قطعة رائعة منه لاسيما مع خطوطها العربية الفنية الرائعة.

وفي تلك العبارات الإسلامية (البقاء لله) (الملك لله) (الحمد لله) ثم تكرر هذه الجمل وقد يكتب غيرها كل ذلك في كتابة منسجمة مع النقوش والتزيينات الموجودة على الجدارن.



عند مدرسة أولغ بك

وبعض العبارات كتبت بالفسيفساء ونحوها والفسيفساء كما هو معروف قريبة الشبه بما يعرف بالسيراميك من قطع صغيرة تكون ملونة بهيجة المنظر وتصنع منها وبألوانها اشكال جميلة ورسومات عديدة في الحوائط وجدران الأبنية.



الوفد في مسجد إحدى المدارس في سمرقند (من اليمين) الدكتور سعيد باديب فالمؤلف بجانب الدكتور شمس المبين فالأستاذ سالم السالم فالأخ رحمه الله بن عناية الله.

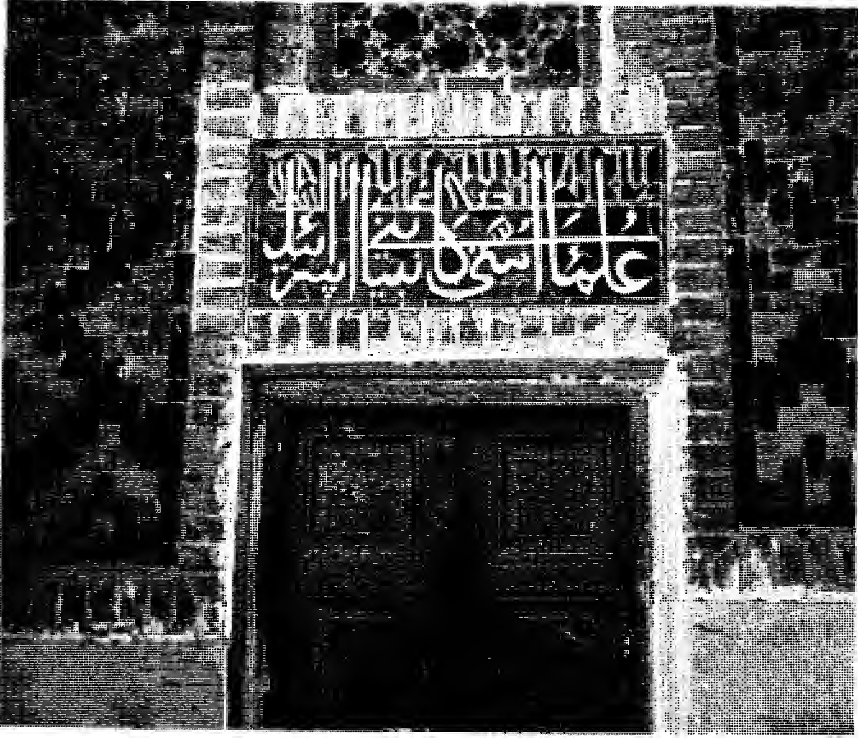
ودخلنا المسجد فاعجبت بمحرابه وباطن القبة العالية التي اقيمت فوق المحراب. قد كتبوا على محراب المسجد بخط رائع الآية الكريمة **(يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع)..**

وبلغ ارتفاع قبة المسجد من داخله ٢٧ متراً وقد صمدت لزلازل عديدة اصابت المنطقة فهدمت كثيرا من ابنيتها ولكن هذه القبة سلمت حتى من التصدع ومن اللطيف انهم كتبوا على باب إحدى غرف الدراسة : قال عليه السلام: «علماء أمتي كانبياء بني اسرائيل».

مع أن هذا الحديث ليس من الأحاديث الصحيحة.

في سوق سمرقند :

غادرنا هذه المدارس الرائعة بأبنيتها المحكمة التي هي بزخارفها ونقوشها تعد تحفاً ثمينة من تحف التراث الحضاري للمسلمين في هذه البلاد وخرجنا



باب غرفة الدارسة بجانب المسجد في ميدان رايجستان

من ميدانها الواسع (ميدان ريجستان) فتوجهنا بناء على رغبتنا إلى (سوق سمرقند) ولم يكن ذلك في البرنامج من قبل ولكننا أردنا رؤ يته لأن هذه المدينة التاريخية العريقة في الإسلام قد رأينا فيها أشياء لم يفسدها التحديث فتخيلنا ان سوقها سيكون كذلك.

ثم ان دخول السوق فرصة ثمينة لرؤ ية الناس من عامة الشعب على طبيعتهم من غير تكلف او استعداد للقاء الضيوف كما يكون عند الاشخاص الذين يكون لديهم علم سابق بالزيارة.

و يقع السوق قريباً من ميدان المدارس هذه الا أنها كلها داخلة في منطقة مدينة سمرقند القديمة التي كانت في الماضي من دون شك اكبر مما هي عليه الآن كما سبق.



شارع في سمرقـــــد

وجدنا السوق مزدحماً بالمارة من رجال ونساء وهم الجنس التركي او لنقل التركستاني الأصيل فهم انقى من الموجودين في أسواق مدينة طشقند بكثير لأن أولئك خلطوا بروس واوكرانيين من ذوي المظهر الأوربي ورأينا الأخوات المسلمات من المسنات ومن هن في منتصف العمر وقد غطين رؤسهن بمناديل وهو أمر لايحافظ عليه في الغالب الا المسلمات.

اما الشابات فإنه لاشيء على رؤسهن ولكن ملابسهن مع ذلك ليست متبرجة تبرج الأوروبيات الغربيات او من قلدنهن من نساء البلدان النامية.

ورأينا الناس من مظاهرهم وما توحي به الوانهم وأثوابهم على درجة متوسطة من المعيشة فليس عندهم مظاهر الفقر الموجودة في الهند أو بعض أنحاء إفريقية ولاهم على جانب من الترف الموجود عند الأوروبيين.

حتى حالة الشارع فإنها وسط بين حالتين ممتازة ورديئة فالنظافة في الشارع جيدة ولكن الأرصفة ليست بهذه الجودة وان لم تنحدر إلى درجة رديئة.



جزء من شارع في سمرقند والدكتور سعيد باديب غارق في تأمله

أشجار السوق من العنب :

من لطيف مارأيته في هذا الشارع وهو شارع ممتد وليس سوقاً مغلقاً انهم قد غرسوا أشجار العنب على أرصفة الشارع واقاموا لها عرائش عالية من الخشب او الحديد لا ادري لارتفاعها ورأيناها وقد أورقت اشجارها فصار لها ظل وارف وأخبرنا اخواننا أنها في الصيف تتدلى عنا قيدها فوق رؤس المتسوقين ولانقول البائعين والمشترين لأنه ليس في هذه الأسواق الشيوعية ان صح أن للاسواق مذاهب وهي المؤلفة من حوانيت كبيرة أي بائعين بل الجميع مشترون والبائع الوحيد فيها هو الحكومة لأن جميع الحوانيت والمحلات التجارية مملوكة للحكومة والبائعون فيها هم من الموظفين.

وإنما يوجد البائعون في أماكن أخرى حيث يسمح للفلاح أن يبيع ماتنتجه أرضه الصغيرة بنفسه ولايجوز له ان يضم اليه مما ينتجه غيره شيئاً لأنه يصبح آنذاك تاجراً والتجار مستغلون والاستغلال ممنوع في الاتحاد السوفيتي إلا إذا كان استغلال الحكومة المنبثقة عن الحزب الشيوعي فإن ذلك جائز قانوناً بل هو الجائز وحده.

لقد تخيلت ماذكره الإخوة أهل سمرقند عن حالة هذه الأعناب ذات الظلال الوارفة وقد تدلت منها عناقيدها على رصيف الشارع بل على جانبي الشارع فأثبت ذلك عندى ماذكره بعض مؤرخينا العرب عن فواكه سمرقند ووفرة بساتينها وجمال منظرها.

ثم دخلنا حانوتا اي دكانا كبيرا من بين حوانيت الشارع فرأيناه حافلاً ببضائع أكثرها صالح للنساء من العطور غير الفاخرة موضوعة في زجاجات صغيرة ومن الملابس والحقائب اليدوية وبخاصة النسائية ومن أنواع الاقمشة الاخرى، ورأينا البائعة فيه امرأة فالتمسنا مانشتريه منه فلم نجد فيه مايستحق ذلك لأن بضائعه بالنسبة إلينا إما أن تكون معتادة المنظر أو تكون غالية الثمن وفي كلتا الحالتين فإنه يوجد في بلادنا ما هو أجود منها نوعا، وأرخص ثمناً حاشا المناعة أي طول الصبر على الاستعمال فإننا لانعلم عنها شيئاً.



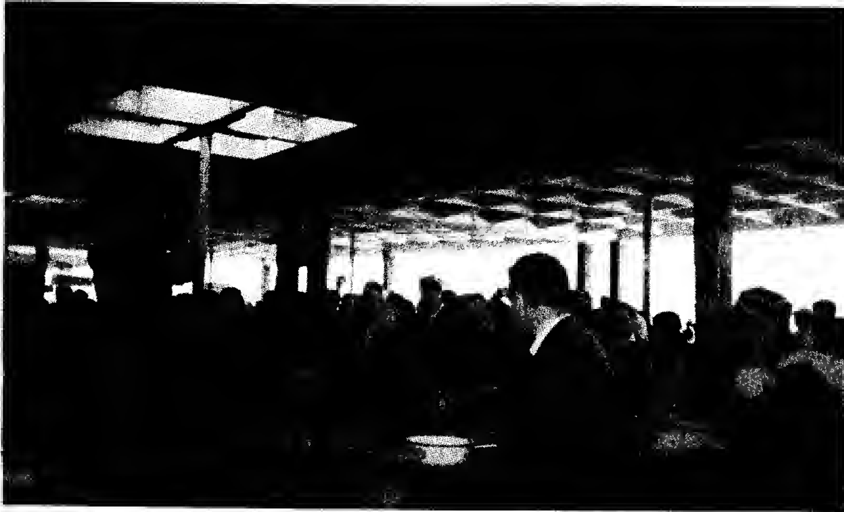
مع أثنتين من الاخوات المسلمات القرويات في متجر في سوق سمرقند

واكتشفت في هذا المحل التجاري الحكومي شيئاً ثميناً، إنه امرأتان أو ثلاث من الريفيات المسلمات البعيدات عن المدينة وعليهن لباسهن الوطني الموروث بل الأصيل واسرعت أرجو أحد اخواني أن يلتقط لي معهن عدداً من الصور فكان منها ماتراه هنا.

أما هن فقد بدا العجب والارتباك على وجوههن لأنهن لم يعرفن الأمر على حقيقته فطلبت من أحد الاخوة المرافقين من أهل البلاد أن يخبرهن بجلية الأمر فأخبرهن بذلك وذكر لهن أننا من مكة المكرمة فزال عنهن ماران على وجوههن من حيرة وانقلب ذلك إلى عجب على محياهن عجيب.

ومن الطريف أن كل واحدة منهن تضع على رأسها غطاء من الشال لايبعد كثيراً عما كان على رؤسنا لولا أن فيه ألوانا قليلة للزينة وفوقه مايشبه العمامة الصغيرة أو العصابة قد احاطت بالرأس.

ثم انتقلنا سيراً على الأقدام إلى سوق للخضروات مجاور وهو مسقوف ليس فيه حوانيت ـ دكاكين ـ وإنما جميع البضائع فيه معروضة على موائدمن الخشب مرفوع عن الأرض كما هو المعتاد.



داخل سوق سمرقند للخضـــروات

ومعظم الباعة في أكبر أقسامه من النساء وفيه قسم باعته من الرجال ولم يفعلوا ذلك فصلاً للرجال حن النساء وإنما هذا من باب المصادفة أو نحو ذلك ولأنني رأيت في مكان آخر من السوق باعة من الرجال بين النساء.

وأخبرنا المرافقون أن كل مافي هذا السوق خصوصي بمعنى أنه لفلاحين أو منتجين محليين أنتجوه بأنفسهم و يبيعونه بأنفسهم وليس للحكومة.

وربما يشهد لصحة ذلك كون الأسعار فيه غالية لأنه يباح للفلاح الصغير أن يبيع ماينتجه بالسعر الذي يريده وكل الناس هنا فلاحون صغار أو أجراء عند الدولة، ولايوجد فلاح كبير لأنه لايجوز في الاتحاد السوفيتي ان يستأجر إنسان إنساناً آخر الا للحكومة التي يصح أن يقال: إنها تستأجر الجميع.

والحكومة كما هو واضح هي مجموعة من الأشخاص الذين ينتمون إلى الحزب الشيوعي أو يطبقون أوامره و ينفذون مايصدره من قوانين وان كانوا يقولون إن ذلك من أجل مصلحة الجمهور.

و يقبل الناس على شراء هذه البضائع او لنقل المنتجات الزراعية الخصوصية لكونها أسهل في الشراء وأجود في النوع وإن لم تكن أرخص من مثيلاتها التي تبيعها المحلات الحكومية المحددة الأسعار.

فتلك عادة تكون رديئة وقد تكون شحيحة والأقبال عليها شديد لرخص أسعارها فيحتاج المشتري إلى إضاعة وقت في الوقوف في صف (طابور) أمام المحلات التي تبيعها.

مع أنه ماتجدر ملاحظته أن هذه الأشياء المعروضة ليست هي من السلع الضرورية الاستهلاكية كالخبز اليومي والسكر والارز فتلك موجودة في المحلات الحكومية المحددة الأسعار.

وقد أخبرنا إخواننا المسلمون أنها صارت موجودة بوفرة في السنوات الأخيرة في الاتحاد السوفييتي حتى كادت تختفي الصفوف الطويلة

(الطوابير) التي كانت مألوفة لسنوات طويلة أمام تلك المحلات الا ماكان من البضائع أو المأكولات الكمالية غير الضرورية.

ورأيت في هذه السوق أشياء ملفته للنظر فأردت ان أعرف أسعارها فكانت كلها غالية بالنسبة إلى أسعارها في بلادنا وبخاصة اذا قسنا قيمتها بالقيمة الرسمية لعملتهم وهي الروبل بالنسبة إلى قيمة الدولار. وإذا اضفنا إلى ذلك مستوى الأجور والدخول المحددة في بلادهم فإن غلاءها يبدو اكثر.

من ذلك أنهم يبيعون حبات الليمون الأربع بروبل واحد ويساوى ذلك دولاراً وثلثا أو حوالي خمسة ريالات سعودية وصرة صغيرة من الجزر مما يباع في بلادنا بنصف ريال قيمتها هنا روبل واحد. وطماطم غير ممتازة يبعون الكيلو الواحد بأربعة روبلات اي حوالي عشرين ريالاً وفجل ضخم الرؤس يبلغ الرأس منه حجم الكمثرى يباع الواحد منه بثلث روبل.

وعلى هذا تقاس بقية الأسعار.

وعندما أبدينا عجبنا من غلاء هذه الخضروات قال اخواننا من اهل البلاد إن السبب في ذلك هو كوننا الآن في اعقاب الشتاء حيث لا توجد الا نادرة ومزروعة في بيوت محمية بالزجاج أو نحوه.

أما في الصيف فانها مع سائر الخضروات تكون رخيصة رخصاً بالغاً لأنها تزرع على وجه الأرض دون الحاجة إلى حماية.

وفي هذا السوق رأينا عنايتهم بسكر النبات أو السكر النباتي كما يفعل اخوانهم في تركستان الشرقية حيث يكثرون من تقديمه في حفلات الشاي وفي مقدمات الموائد.

ومن الطريف الذي حصل لي أنني رأيت الخبز السمرقندي الذي سمعت عنه كثيراً وهو كبير الحجم مستدير وغليظ ويصنع بطريقة خاصة بحيث يخزن لعدة أيام وربما لأشهر كما أبلغونا ولايفسد فأردت ان أفحصه

فأخبر احد المرافقين البائعة أننا من مكة المكرمة ولم يكن بحاجة إلى أن يخبرها أننا من الزوار الأجانب لأننا كنا نرتدي الملابس العربية الكاملة ولايوجد من يلبسها غيرنا في هذه البلدة وربما يكون بعضهم قد رآها لأول مرة في حياته لأن كثيراً من الزوار العرب للاتحاد السوفيتي يرتدون الملابس العالمية المسماة بالافرنجية.



خبز سمرقند الذي لايتغير بمرور الوقت كما تعرضه البائعة

فسارعت البائعة تقطع من الخبزة الكبيرة قطعة وتعطيني إياها وهي تقول لي: كل وتذوقها ثم وضعتها لأنني أفطرت قبل قليل. ولكن ذلك أفسد الخبزة كلها على البائعة فلم تعد صالحة للعرض فابعدتها ووضعت غيرها مكانها وأسرعت اعطيها روبلا واحداً سائلاً عن قيمتها فامتنعت عن أخذ شيء من الثمن وراجعتها بواسطة المترجم فلم تقبل أن تأخذ عوضاً وانتهز سياح أوربيون كان يحفل بهم السوق فرصة وجودي بملابسي العربية أمام خبز سمرقند فصاروا يلتقطون من الصور ما رأوه ثميناً بدون استئذان.

المسجد المهجور:

رأينا قريباً من سوق الخضروات والمأكولات الخفيفة بناء قديماً يظهر من

البعد كأنه القلعة العظيمة الحربية و يرتفع سوره الغليظ ارتفاعاً غير معتاد إضافة إلى أرض تقع على مرتفع أشار إليه الأخوة المرافقون وقالوا: هذا مسجد (بيبي خانم) امرأة تيمور، وذكروا ان معنى (بيبي) هو أم وقال أحدهم بل هي ابنة تيمور وذكروا أن هذا المسجد كان خربا منذ سنين طويلة، ولذلك لايمكن الدخول اليه غير أنهم الآن يرممونه على اعتباره أثراً من الآثار القديمة التي اخذوا يحرصون على المحافظة عليها لفائدتها السياحية.

ولم يقل الإخوة شيئاً عن الوقت الذي لحق فيه الخراب هذا المسجد بحيث صار لايصلى فيه مع أنه كبير، و يقع في داخل المدينة القديمة وهل ذلك حصل قبل استيلاء الشيوعيين على مقاليد الأمور في البلاد أم كان بعد ذلك.

أصررت على الاقتراب من السور العظيم المتهدم للمسجد لأن مابقي منه هو شاهد حي على عظمة البناء في هذا المسجد.

وقلت في نفسي وأنا أشاهد هذه الآثار التاريخية التي خلفها المسلمون وبعض الأزقة والبيوت التي لم يفسدها التحديث والوجوه البخارية نسبة إلى بخارى الاصيلة إنه يوم ليس كيوم طشقند الذي لايرى فيه إلا الشوارع الحديثة الواسعة عليها الأبنية الحكومية الضخمة (العمارات) ذات الشقق السكنية الحديثة وليس فيها من رائحة التاريخ شيء بل ان المسلم الغيور يحس أنها قد أريد منها أن تكون ناسخة لذلك الماضي الإسلامي العريق حالة محله في بناء تاريخ جديد للمدينة يبدأ حسب زعمهم مع تاريخ الشيوعية فيها.

ضريح قثم بن العباس :

اخترت كلمة (ضريح) هنا بديلة من كلمة قبر لأن الأولى صار لها مصطلح خاص أخذ يطلق على القبر وما فوقه من بناء وماحوله من ذلك مما يتعلق به مع الكراهية الشديدة لهذه الكلمة (ضريح) التي اشتهرت بالبدع

والمنكرات بل الشركيات في بعض الأحيان التي تؤتى عندها اذ صار كثير من الجهلة والضلال يقصدون أضرحة الأولياء والصالحين، أو من يعتقدون فيهم ذلك ولو لم يعرفوا شيئاً عن ذلك في حياتهم عن العدول الشقاة من الناس فصاروا يتبركون بتلك الأضرحة ويخصصونها بالنذور يرجون منها او بواسطتها حصول الخير لهم او دفع الضرر عنهم.

حتى صار يفعل عند بعض الأضرحة ما كان يفعله اهل الجاهلية عند أوثانهم أو قريباً من ذلك كتعظيم صاحب القبر والخضوع له والخشوع عنده وعدم القسم به كذباً.

وقد كاد هذا البلاء يعم بلاد المسلمين الا من رحم الله، وفي هذا الزمن الأخير كثر ذوو البصيرة من العلماء الموحدين وازداد اتباعهم على الخير فصاروا ينكرون على اهل البدع والضلال مايفعلونه عند قبور الصالحين واضرحتهم وان كان ذلك على قلة.

ولكن زيارتنا لقبر قثم بن العباس أو ضريحه هي للسلام عليه والدعاء له وزيارته الزيارة الشرعية ومع ذلك رؤية الوضع الذي عليه الضريح الآن بعد القرون الثلاثة عشر التي مرت على استشهاد قثم بن العباس رضي الله عنه.

ويسمونه هنا (شاه زنده) ومعناها: الملك الحي بكسر اللام وترجمتها احد المرافقين بالسلطان الحي ولكن (شاه) بمعنى ملك هي لفظة فارسية مشهورة دخلت في لغات عدة من اللغات التي جاورتها أو أخذت منها كالأوردية وبعض اللغات التركية وأقربها إلى الذهن استعمالاً (شاه ايران) بمعني (ملك ايران).

وقف الموكب عند درج حجري عال، صعب المرتقى صعدناه راجلين فافضى بنا صعوده إلى منطقة مرتفعة تشرف على ماحولها من مدينة سمرقند القديمة، إلا أن المنطقة المرتفعة هذه كلها مشغولة بأبنية أثرية قديمة.



في حي شاه زنده بسمرقند في الطريق إلى ضريح قثم بن العباس

وقال لنا المرافقون إن هذه الأبنية الأثرية بنيت على أنقاض مدينة (افرا اسياب) القديمة التي كانت في موضع سمرقند، وورد ذكرها في التاريخ القديم.

وان هذه المنطقة حتى بعد أن سميت بسمرقند في العصور الإسلامية الوسيطة قد خربها جنكيز خان وجنوده من المغول عندما خربوا مدن الحضارة الإسلامية في هذه المنطقة ومنها فيما يقولون هذا القبر المنسوب الي قثم بن العباس رضي الله عنه.

وبقيت بعد ذلك خرابا يبابا حتى جاء تيمور لنك وخلفاؤه من بعده فأعادوا بناء الأضرحة القديمة فوق الأنقاض وبنوا معها اضرحة جديدة لأقاربهم او العظماء من بني قومهم ومن الاضرحة التي بنيت في عهد تيمور لنك ضريح قثم بن العباس الموجود الآن وضريح لابن عم تيمور لنك واسمه (شادي ملك اغام) الملك السعيد والأخ الأكبر لأن (أغا) هنا تعني الأخ الأكبر في اصطلاحهم في ذلك الزمان.

وضـريـح شـادي مـلك هذا ضخم عليه بوابة كبيرة تشبه بوابات القصور الـقديمة الواسعة ولكن الضريح لم يقتصر الدفن فيه على شادي ملك بل دفن فـيـه ثـلاثـة من اخوته وأقاربه وبينها قبر مزوق مزين لامرأة اسمها رقية من اسرة تيمور التي كانت حاكمة في ذلك الزمان.

وكـل هـذه الأبـنـيـة مـن عـهـد تـيـمور لنك اي من أواخر القرن الثامن الهجري.

دخـلـنـا بـعد ذلك مع بوابة صغيرة كبوابة الأبراج القديمة سوداء الحيطان مـظـلـمـة نـوعا، ارضها مفروشة بحجارة قوية صارت ملساء من مر القرون ثم دخـلنا إلى القبر المرفوع قليلاً عن المقدار الشرعي لرفع القبر وهو قدر شبر فهذا مـرفـوع عـن الأرض حـوالـي نـصـف متر وهـو اي هذا القبر المرفوع مبني من حـجـارة مـنـقـوشة ومرمر صقيل وحوله سياج صغير وفوقه قبة محكمة البناء هي التي ترى من مسافة بعيدة من مدينة سمرقند.



السلام على قبر قثم بن العباس في سمرقند

وقد رأيناهم يعيدون ترميم المنطقة يزوقون منها ماكحا الدهر تزو يقه و يرممون من حجارتها ماتزحزح عن موضعه.

والحكومة تفعل ذلك كما قلنا لغرضين كلاهما غير شرعي أولهما جذب السياح للحصول على المال من التفرج برؤ ية هذه الأبنية البديعة والثاني التمو يه على السذج من عامة المسلمين المتدينين الذين يرون او يتوهمون ان ترميم هذه الأضرحة والقبور هو من الدين لأنها مقابر لقوم صالحين.

وقد قلت للقوم المرافقين: إذا كان جنكيز خان وقومه من المغول قد هدموا هذه المنطقة التي فيها قبر قثم بن العباس وماحوله في عام ٦١٧هـ وتركوها خرابا يبابا لسنوات طو يلة إلى ان أعاد بناءها أو بناء بعضها تيمور لنك ومن جاؤا من بعده من خلفائه كيف نحكم بأن هذا القبر هو قبر قثم بن العباس رضي الله عنه وإذا حكمنا بأنه قبره وعرفناه فإن الأولى بنا أن نز يل عنه كل محدث حوله مما يخالف الدين ونتركه للناس يزورونه الز يارة الشرعية و يدعون له و يأخذون العبرة والموعظة من اجتهاده في جهاده وطلبه الشهادة في سبيل الله حتى قتل في هذه البقعة البعيدة بل النائية عن بلاده.

ومما تجدر ملاحظته أن المؤرخين ذكروا ان قثم بن العباس ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استشهد في معركة سمرقند التي قاد المسلمين فيها سعيد بن عثمان بن عفان في عام ٥٦هـ.

ومما يذكر ان بعض العلماء دفنوا في هذه الأمكنة إما لإعتقادهم خطأ بأن الدفن فيها مما يقرب إلى الله لأنها بجوار مدفن قثم بن العباس رضي الله عنه واما أن يكونوا دفنوا من غير وصية وانما هو تصرف لمن قاموا على تجهيزهم ودفنهم ومنهم العلامة قاضي زاده الرومي المشهور عند علماء الأحناف وكان موته في القرن التاسع الهجري.

كما توجد في هذه المنطقة الأثر ية بقايا مدارس قديمة خربة.

مرصد أولغ بك :

انحدرنا من منطقة (شاه زنده) المرتفعة أي الملك الحي بالعربية وهي تسمية غير صحيحة لأن قثم بن العباس رضي الله عنه لم يكن ملكاً في حياته بل ان كلمة (ملك) كما هي معروفة الآن لم تكن قد استعملت في اللغة العربية لمن يلي الأمر او يتولى على السلطة في عهده وانما كان يسمى الخليفة التي أصلها خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم. واما كونه حيا فان ذلك لاشك فيه لأنه شهيد والشهداء أحياء في قبورهم كما قال تعالى: **«ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون»** ولكنها حياة برزخية ليست كحياة اهل الدنيا ولذلك قال تعالى **«بل أحياء عند ربهم يرزقون»**.

واخترق الموكب حياً من أحياء سمرقند الأصيلة وكل أحيائها أصيل جليل. ومن أجل مافيه رؤية الأخوات (البخاريات) المسلمات وعلى رؤسهن المناديل الساترات. والبيوت المنفردة المبنية من الطين يتطاير منها غبار التاريخ.

قصدنا (مرصد اولغ بيك) الذي يقع في حي يسمى (كوجاق تيه) من مدينة سمرقند وهو منسوب إلى (ميرزا اولغ بك) حفيد تيمور لنك وكان ملكاً وعالماً وحكيماً بل محبا لجميع فنون العلم المعروفة وسبق ان ذكرنا المدرسة التي بناها في (ريجستان) وصار أحد المدرسين فيها.

وكان الى ذلك فلكيا محبا لرصد النجوم.

وصلنا إلى آثار المرصد فدخلنا من حديقة صغيرة ثم صعدنا درجا مرتفعا ولكنه اقل ارتفاعاً من الدرج الحجري الذي يوصل الى منطقة (شاه زنده) المرتفعة ولم يكن ارتفاعه عن وجود منازل تحته هدمت وبقيت انقاضها في مكانها وإنما هو ارتفاع طبيعي لتل ذي طين وحجر هش وبني المرصد فوق هذا المكان المرتفع في المدة الواقعة مابين عامي ١٤٢٥و ١٤٢٩م.

وجعل فيه أجهزة رصد وساعة شمسية وكان عمل جدولاً للنجوم التي انشأ هذا المرصد من أجل رصد حركاتها وبلغ مارصده بنفسه من النجوم والكواكب ووصفه وصفاً دقيقا ١٠١٨ نجما.

وقدر ان طول السنة الشمسية هو ٣٦٥يوما و٦ ساعات و١٠ دقائق و٨ ثوان اي بنقص دقيقة واحدة وثانيتين عما هو معروف علمياً الآن.

كما صنع جدولاً فلكياً سمي بالزيج السلطاني صار أساساً للدراسات الفلكية عند المتأخرين من المشتغلين بالفلك في الشرق المسلم. وكان يعمل معه في هذا الفن أحد علمائه وهو (علي قوشجي) الذي توفى في اسطنبول عام ١٤٧٤م.

ويبلغ طول المرصد ٥٠ متراً وارتفاعه ٢١ متراً على ثلاث طبقات، رأينا الدرج العظيم الذي يصعد من الطبقة السفلى إلى مافوقها ثم إلى أعلى المرصد الذي تعلوه قبة بلغ ارتفاعها ١٠ أمتار فوق نهاية الممر ويبدو هذا الدرج وماحوله كالطريق المنحوت في ممر جبلي إلا أنه مؤلف من جزئين بينهما ممر فيه مكان لآلات وأدوات مفقودة الآن. ثم شاهدنا غرف البحوث والمكتبة فيه.

وكل ماذكرناه هو آثار ذلك المرصد لأن أهل زمنه اتهموه بالزندقة والالحاد، والتقرب إلى النجوم وتآمروا عليه وقتلوه وقيل ان الذي قتله هو ابنه عبداللطيف وذلك في عام ١٤٤٩م وكل هذه المعلومات أو اكثرها مما أفضى به لنا دليل سياحي من الإخوة المسلمين أو من ابنائهم ثم من معلومات حصلت عليها من المتحف الآتي ذكره.

وبعد قتله هدم مرصده واخفى امره ولم يهتد أحد إلى مكانه حتى كان عام ١٩٠٨م حيث بدأت حفريات علمية في مكانه واستمرت إلى ان اكتشفت من أمره ما كان خافيا على الأولين.

ثم دخلنا الى متحف هناك خاص بالمرصد بالدرجة الأولى وان كان يحوي معروضات و يتضمن معلومات متعلقة بغيره من أمور هذه البلاد.



المؤلف عند مدخل مرصد أولغ بك في سمرقند

وقد انشيء هذا المتحف في عام ١٩٦٥م وفيه رسوم لما كان عليه المرصد مأخوذة من المعلومات التي اكتشفت فيه ومنها هيكله العام الذي كان عليه رسوم توضيحية لمجرى العمل فيه والآت وادوات فلكية قديمة وكتب مما ألف عن (أولغ بك) صاحب المرصد.

ومن ألطف مافيه وان شئت قلت إنه من أهم مافيه وان لم يكن في الأمر لطافة لكونه يتعلق بموتى وهو تمثال لجمجمتين بشر يتين احداهما جمجمة (اولغ بك) منشئ هذا المرصد والثانية لجمجمة جده (تيمور لنك) الشهير الذي دوخ كثيراً من بلدان العالم في وقته.

اما تمثال جمجمة تيمور لنك فيكاد يكون حقيقياً لأن الرسام الذي نحته حصل على جمجمة (تيمور لنك) من قبره فرسم لها هذا الرسم الذي يزعمون انه حقيقي او كالحقيقي ثم عمل تمثالاً له من ذلك الرسم ولكن بمقاييس دقيقة كما يقولون بحيث لايزيد عن الحجم الطبيعي للجمجمة الحقيقية.

وذكر مدير المتحف ان الذي رسم الجمجتين هو عالم روسي اسمه (حيزا سموك) وعاونه على ذلك علماء من ازبكستان من الاكاديميين.

ولم يخبرونا عن الطريقة التي رسم بها الرسام او المثال جمجمة (أولغ بك) وربما كان عثر عليها في قبره أيضاً لأنه مدفون بالقرب من جده (تيمور لنك).

وشاهدنا في المتحف رسوماً كثيرة تتعلق بهذه البلاد ومنها رسوم للملابس القديمة التي كان يلبسها الازبكيون في القديم وان لم تكن فيه منها نماذج محفوظة.

إلى خرتنك او خوجا امام اسماعيل :

خرتنك اسم قديم لبلدة قديمة مذكورة في كتبنا العربية الجغرافية واسمها الحالي عند العامة من أهل البلاد هو (خوجا امام اسماعيل) اي العالم الإمام اسماعيل والمراد به الإمام محمد بن اسماعيل البخاري صاحب صحيح البخاري وقد سمتها العامة باسمه الذي اثبتوا فيه اسم ابيه اسماعيل جهلاً منهم بأن اسمه المجرد هو (محمد) وان اسماعيل هو اسم والده، أو ظنا منهم بأن محمد اسماعيل اسم واحد مركب كما صارت الأسماء في بعض البلدان هذه الأزمان وتبعد بلدة (خرتنك) عن سمرقند بحوالي ثلاثين كيلو متراً.

وهذا أمر مرغوب فيه عندي بل انني طلبته لأنه يتيح لنا مشاهدة ارباض سمرقند اي أريافها القريبة منها إلى جانب رؤية مسجد كبير قديم البناء في بلدة خرتنك.

سار الموكب من سمرقند في الثانية الا ربعا من هذا الظهر قاصداً خرتنك مع طريق إزفلتية متوسطة الجودة ان لم تكن إلى الرداءة أقرب وبخاصة عند مقارنتها بما في أذهاننا عن الطرق الحديثة في الدول الغربية وفي بلادنا السعودية.

ولما خرجنا إلى الريف صار الطريق يسير على الضفة اليسرى لنهر يسمونه نهر سمرقند الأبيض أو (زارفشان) وهو شحيح المياه رغم ان مجراه واسع مما يدل على انه يشهد في وقت من الأوقات امتلاء بالمياه.

وأما ضفافه فانها تبدو كضفاف الوديان الصحراوية ليس عليها خضرة تذكر ولكن الخضرة والعمارة بالمزارع كانت موجودة خارجه مما يدل على أنها تشرب إما من الآبار أو من قنوات خاصة من مياه هذا النهر في الأماكن المنخفضة.

ومن هذه المزارع عدد من المزارع التعاونية الجماعية التي يسمونها الكلخوز.

ثم دخلنا الريف الحقيقي بعيداً عن المدينة وصار الخط يمر فيه وهو ريف تنقصه بهجة المنظر، وان كانت تظهر عليه المهارة الزراعية فالتربة لونها أشهب والاشجار قد اورقت ولكنها لم تخضر كلها وبعض المزارع لم تخضر لأن الوقت مبكر على ذلك.

ثم مررنا بالنهر الأسود (قراسو) وهو نزر المياه رغم سعة مجراه كالنهر الأبيض، واخبرونا ان سبب قلة المياه فيه في الوقت الحاضر انه يستمد مياهه في هذا الفصل من السنة من ذوب الثلوج في الجبال، ولم تغزر مياه الذوبان وأنها تكون غزيرة في أشهر الصيف حيث يذوب الثلج كله بعد ان كان يتحلب من الجبال شيئاً فشيئاً.

وهذا ذكرني بما رأيته تماما في تركستان الشرقية وبخاصة في عاصمتها (اورومسي) التي تشرب من ذوب الثلوج التي تبدأ مياهها في الذوبان في

فصل الربيع الذي يحين عندهم في أواخر ابريل مثل هذه البلاد او بعدها بقليل.

ثم صارت أشجار التوت التي عمتها الأوراق الوليدة من الربيع تحف بالطريق من جانبيه وحقول كثيرة ترى من الطريق وهي محروثة ولم تزرع بعد وذكروا انها تهيأ لزراعة القطن التي تنتج منه هذه الجمهورية مقادير كبيرة.

والأراضي المعدة لزراعة القطن هي أراض حكومية تزرعها الحكومة وهي تحصدها وتجني ربحها والأراضي في الاتحاد السوفيتي كلها مملوكة للدولة ماعدا قطعا صغيرة جداً، أعطيت للفلاحين لكى يزرعوها بما لايكاد يزيد عن حاجتهم وأسرهم غير المستقلين عنهم واذا زاد شيء من انتاجها عن حاجتهم او احتاجوا هم النقود باعوا من انتاج أراضيهم بما يشاؤنه شرط الا يفضي ذلك بهم إلى المتاجرة به بحيث يضمون إليه مثلا مايشترونه من جار أو فلاح آخر لأن ذلك يعتبر من الربح الشخصي المحرم في الاتحاد السوفيتي.

وترى من الطريق أشجار مورقة بل مزهرة بزهور بيض صغيرة ذكروا لنا أنها أشجار السفرجل.

ثم مررنا بقرية تسمى (داغ بيك) فيها مساحات واسعة مغروسة بأشجار الفاكهة المتنوعة عرفنا منها اشجار التفاح والسفرجل ومزارع العنب الذي لم تكمل اوراقه ظهورها بعد وليس كالعنب الموجود في سوق سمرقند الذي اكتملت اوراقه لأنه في موقع أدفأ من موقع هذه الأشجار المغروسة في الخلاء.

ورأينا ماذكرنا بالمزارع في بلادنا وهو حقول غير واسعة من البرسيم وهو الذي نسميه في بلادنا (القت) وهي تسمية عربية فصيحة بل هي افصح من كلمة برسيم الشائعة له. وذكروا ان هذا البرسيم من العام الماضي فهو عندهم كالذي عندنا يزرع و يظلون يحصدونه فتطلع له اوراق جديدة وهكذا

إلى نهاية عمره الذي يبلغ من سنتين إلى ثلاث عندهم وهو عندنا كذلك على اختلاف في طول عمره وقصره.

ورأينا (سَرْح) البقر وهي البقر التي يذهب بها احد الرعاة إلى المرعى يجمعها من البيوت والبساتين.

وذكر المرافقون انها أبقار شخصية اي مملوكة لأشخاص وليست مملوكة للدولة وكل واحد له في الغالب بقرة واحدة او بقرتان إذا كانت الأرض لأكثر من أسرة واحدة وقد يكون للشخص الواحد بقرتان وهذا قليل.

قالوا: واما الأبقار التي تكون للدولة فهي تربى في المزارع المملوكة لها وتكون بأعداد اكبر وكذلك النسبة للأبقار التي تربى في المزارع التعاونية والجماعية.

واستمرت أشجار الفاكهة في التزايد مع امتداد الطريق وظهرت بيوت الريف مبنية بالطين وبعضها ذو سقوف مسنمة وأخرى سقوفها ممالة على جهة واحدة اي أنها أتخذت شكل نصف السنام وليس كله وذلك هو مارأيناه في تركستان الشرقية قبل ذلك.

وبعض هذه البيوت الطينية مطلي كله أو جهته الأمامية وحدها بطلاء أبيض هو الجص أو مادة قريبة من الجص.

ثم وقف الموكب عند البوابة الخارجية لفناء مسجد خرتنك ويسمى جامع الإمام البخاري وحتى الساحة الخارجية المكشوفة تتميز بسعتها الزائدة ووجود أشجار ضخمة من أشجار الدلب معمرة ذكروا ان اكبر واحدة منها غرست عند أول بناء المسجد قبل خمسمائة سنة.

وجدنا في الاستقبال طائفة من الاخوة المسلمين منهم الشيخ عثمان بن رحيم جان إمام جامع الامام البخاري وخطيبه.

فقصدنا المسجد الذي هو المصلى في ركن من هذا الفناء الواسع ذي الأشجار العالية الضخمة فوجدنا في المسجد جماعة من المسلمين يبلغ عددهم حوالي ١٥٠ كلهم من كبار السن.

وبعد الصلاة تحدث اليهم الدكتور/ شمس الدين بابا خانوف مبينا لهم مهمة وفد رابطة العالم الإسلامي في هذه البلاد.

اعقبه الشيخ عثمان امام المسجد بكلمة قال فيها موجها كلامه الينا: لقد اخبرت المسلمين في صلاة الجمعة أمس عن قرب وصول وفد من بلاد الحرمين الشريفين ومن موطن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: إننا ونحن نراهم هنا نشعر كأنما رأينا اهل الرسول صلى الله عليه وسلم.

فعقبت على كلام الاخوين بالشكر على الترحيب، موضحاً هدف زيارة الوفد لبلادهم وتكلمت عن الرابطة وانها هيئة شعبية عالمية ثم توجهت إلى المسلمين بالنصيحة التي تتضمن الحرص على تربية أبنائهم على الإسلام حتى يكون فيهم من يعيد للمسلمين سيرة الامام البخارى في خدمة الثقافة الإسلامية والمسلمين في هذه الديار وتستعيد سمرقند وبخارى وغيرهما من المدن الإسلامية مجدها الإسلامي الخالد.

ثم علق امام المسجد الشيخ عثمان جان على كلمتى بالشكر والتقدير ودعا الى العمل على وقف الحرب بين ايران والعراق وقال: قتلى العراق وايران قتلانا، وطلب العمل على تحقيق السلام العالمي، ونبذ الخلاف بين الدول وتوثيق العلاقات الثقافية والودية بين الشعوب والدول في العالم ثم اختتم تعليقه برجاء أن يكرر الوفد زيارته لهذه المنطقة وان يعمل على زيادة الصلات الاخوية مع المسلمين في هذه البلاد.

وفي نهاية الاجتماع في المسجد قرأ صبي حفيد للشيخ عثمان جان إمام المسجد آيات من القرآن الكريم فأداها اداءً متوسطاً.

والمسجد ليس فاخر البناء وهو قديم باق على قدمه الا تجديد الطلاء ونحوه الذي ادخلوه عليه في عام ١٩٧٣م قبيل الاحتفال بمرور الف ومائتي عام على مولد الامام البخاري الذي احتفلوا به في هذه البلاد ودعوا وفوداً اجنبية للإشتراك في ذلك الاحتفال.

و يتميز بأعمدة غليظة متقاربة وسقف ليس بالعالي فهو مسجد معتاد وليس بالذي تأنق بانوه في بنائه ونظراً إلى كونه أصبح مقصداً للزوار من البلدان الإسلامية فقد رأيناهم يرممون اجزاء اخرى منه.

السلام على الإمام البخاري :

انتقلنا بعد ذلك للسلام على أبي عبدالله البخاري الامام العظيم الذي يكن له المسلمون الاحترام والتعظيم في جميع اقطارهم وامصارهم كيف لاوهو الذي جمع الأحاديث التي صحت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم واجتهد في ذلك حتى غدا كتابه أصح الكتب بعد كتاب الله عز وجل.

وذكرت في نفسي وانا امشي معهم قاصدين السلام عليه سنوات مضت عندما كنت في أول عهدي بالطلب فكنت أقرأ صحيح البخاري وحدي أحياناً وأحياناً اتذاكر فيه مع بعض الزملاء من طلبة العلم حتى كدت احفظه عن ظهر قلب وهو سهل الحفظ لأن أحاديثه عليها الاشراق والبهاء حتى يجزم المرء بأنها خارجة من مشكاة النبوة.

والشيء الذي آلمنا ان نجدهم قد جعلوا على قبره بناء مخالفين في ذلك ما رواه الامام البخاري نفسه الا أن الذي يخفف من وقع الألم في النفس انه لم يُبن على قبره بناء شاهق كالذي على اكثر قبور الأولياء والصالحين من القباب والابنية المعتنى بها وان كان ذلك لايعنى ان الذي عليه هو شيء يمكن السكوت عليه ولكن بعض الشر أهون من بعض.



السلام على الامام البخاري في قبره في خرتنك

فقد بنوا على قبره رواقاً متطامنا صغيراً. لذلك يصل المرء إلى القبر من دون باب وقد سلمنا عليه سلاما شرعيا ودعونا له بالمغفرة والرضوان والثواب الجزيل من الله تعالى قائلين السلام عليك يامحمد بن اسماعيل البخاري، السلام عليك ورحمة الله وبركاته اللهم اغفر له ونور ضريحه واجزه عن الاسلام والمسلمين خيرا..

مائدة بخارية :

والنسبة هنا إلى البخاريين اهل منطقة بخارى هذه التي نحن فيها وليست للإمام البخاري نفسه الذي مائدته أفخر الموائد وهي الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

لقد تركنا قبره في ركن من هذا الفناء الواسع الذي يضم المسجد، و يضم في احدي زواياه قبر الإمام البخاري منفصلاً عن المسجد، ثم غرفا وملاحق للمسجد وأماكن متعددة للوضوء وفي قسم منه غرفة كبيرة للمكتبة وغرفة أكبر منها لاستقبال الضيوف.

وسرنا ذاهبين إلى غرفة الضيوف فأشار الرفاق إلى زهور كبيرة نامية قد غرسوها اسفل حيطان الفناء الواسع وقالوا: هذه هي شقائق النعمان المذكورة في كتب التاريخ.

وكنت اعرف انها منسوبة للنعمان بن المنذر ملك الحيرة في الجاهلية.

ثم اجتزنا بظل شجرة ضخمة من أشجار الدلب العظيمة التاريخية ان صح ان من الأشجار اشجاراً تاريخية ولكن هذه كما قالوا هي تاريخية حقاً لأنها غرست عند انشاء المسجد قبل خمسمائة سنة.

ووسط الفناء الضخم بركة واسعة ليس فيها ماء كثير ومقاعد مرتفعة عليها المرافق وقد وضعت تحت الدلبة ـ شجرة الدلب ـ الكبيرة ليجلس عليها من يريد الجلوس في الهواء الطلق في فناء المسجد والجلوس في هذا المكان الأخضر الذي زاد من حسنه وقوعه بالقرب من نهر صغير اسمه (باي أريق) اي النهر المبارك.

دخلنا غرفة الضيوف فوجدنا فيها مائدة حافلة بالأطعمة من مقدمات المائدة وغيرها ومن ذلك أنواع من النقل ـ المكسرات ـ وعنب من ناتج العام الماضي وحمص وزبيب إلى جانب مياه غازية وعصير فواكه وشاي اخضر حليناه بالسكر النباتي.

ثم توالت أطباق المائدة والشيخ عثمان بن رحيم جان إمام المسجد يعللنا بنكته وطرائفه فهو خفيف الظل حاضر النكتة ذكرني ببعض الظرفاء الذين سجل التاريخ الأدبي العربي أقوالهم وأشعارهم من أهل هذه البلاد.

ثم جاؤا بخروف كامل مصلي اي منضج بتقريبه من النار دون أن يدخل فيها فجعل الشيخ عثمان يقطع منه و يوزع على الآكلين. وقد بدأ بألية الخروف يقطع منها قطعا صغيرة و يوزعها عليهم فيأكلونها على الطعام وقد اخبرناهم معتذرين أننا لانطيق أكل الشحم.

وكان نجم المأدبة هو الرز البخاري الأصيل لأنه مصنوع في البلاد البخارية العريقة ثم اتوا بعد العشاء بالحلوى والفاكهة وكانت مائدة شهية وزادها هناء مانثر عليها الشيخ عثمان من ظرفه ولطفه رغم ماقيل عن اسم عثمان أنه ليس من الأسماء الظريفة.

عقد النكاح الشرعي :

انقضت مائدة الغداء التي تباطأ القوم حولها من أجل الطعام والراحة. فقالوا : إلى حضور حفلة الزواج الشرعي وكنا عند الدخول إلى غرفة الطعام رأينا فتاة في ثياب العرس البيضاء بيدها باقة ورد وبجانبها شاب قد أخذ زينته وحولهما عدد من المرافقين من رجال ونساء وكانوا جالسين في كرسي امام أحد المقاعد العالية تحت شجرة الدلب الضخمة في فناء المسجد وقالوا لنا: انهم أتوا لعقد الزواج الشرعي في المسجد.

وكان الشيخ قد خرج لبعض أمره اثناء الغداء فظننته خرج لعقد الزواج ولكن تبين أن القوم يريدون أن نرى كيفية عقد النكاح الشرعي عندهم وحسنا فعلوا جزاهم الله خيرا، فقد جلسنا مع الشيخ على المقاعد الكبيرة العالية أمام الزوج وزوجته وكانا فرغا من عقد الزواج في المكتب المدني الحكومي المختص بذلك ثم جاءا إلى المسجد ليعقدا الزواج الشرعي فيه وهذه عادة متبعة عندهم وسبق ذكر أنموذج منها وهو ان يبدأ بالعقد القانوني المدني الحكومي الذي لايعترف بعقد شرعي بل لايعترف باي شرع او دين ولكن توثيق الزواج فيه أمر ضروري لأنه يثبت به عند الحكومة تسجيل الزواج.

واسم الزوج (محي الدين خداي جايده) واسم الزوجة (نزاكه بنت رحمن أو عبد الرحمن) وقد بدت الزوجة خجلة إذ استمرت خافضة رأسها وقد غطت وجهها بغطاء من قماش أبيض خفيف.

بدأ الشيخ عقد الزواج الشرعي بتلاوة خطبة النكاح المعهودة التي نعرفها في بلادنا لاتختلف عنها بشيء اذ تلا الآيات التي تحث على الزواج او

تذكره ومنها قوله تعالى «**يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً**».

وقوله (ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة). وقوله تعالى .(هو الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها).

ثم ذكر فضل التزاوج بين المسلمين وأسماه النكاح وانه من السنة ولذلك يجب على الزوج الا يترك زوجته ستة أشهر من دون مضاجعة.

وبعد الإيجاب والقبول المعهود في الزواج وكان مصوروا التلفزة المرافقون والمصورون والصحفيون يصورون ذلك مثلما كانوا يصورون جميع خطوات الوفد وحركاته دعا الشيخ عثمان دعاء لم يكن من المألوف لنا سماعه بخلاف ماسبق من اجراءات الزواج الشرعي فقال: اللهم ألف بينهما كما الفت بين آدم وحواء، ومحمد وخديجة الكبرى وعلي وفاطمة الزهراء.

ثم نصحها بالائتلاف وعدم الاختلاف وقال اعلموا أن اولادكما يتعلمون منكما الاخلاق فلتكن اخلاقكما حسنة فيما بينكما ثم التفت إلى الزوج وقال: لايجوز لك ان تمد يدك إلى زوجك بالضرب.



العروسان وذووهما والزوجة مغطية وجهها في مسجد الإمام البخاري في خرتنك

وطلب مني الشيخ عثمان الدعاء لهذين الزوجين فدعوت لهما بدعاء مناسب وقال انه من يمن الطالع لزواجهما هذا ان يحضره قوم من اخوتكم المسلمين من جيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكان الشيخ قد تحدث عن المهر بلغتها بما لم نفهمه وعن رضا ولى امر الزوجة وقد علمنا بعد ذلك ان الشيخ الذي يعقد الزواج في المسجد يتقاضى عن ذلك من الزوج مبلغا يتراوح بين ثلاثين روبلاً وخمسين روبلا.

الحديقة الكبيرة :

جلنا في حديقة كبيرة قريبة من المسجد خارج فنائه الذي هو كبير واسع وفي هذه الحديقة قاعة مبنية على الطراز التقليدي الفاخر في بناء هذه البلاد ومن ذلك ان جدر انها قد كسيت كلها بالفسيفساء حتى صارت تعطي لن يجلس فيها انطباعاً بأنه قد عادبه التاريخ إلى عنفوانه القديم في هذه البلاد لاسيما ان المقاعد نفسها كانت قد صنعت وصفت على طراز قديم.

وشربنا الشاي في هذه القاعة وسألتهم عن هذه الحديقة، فذكروا ان أرضها للمسجد، وقد علمت بعد ذلك أن هذا صحيح ولكنها الآن جزء من مزرعة جماعية وقد اخذت الأرض من المسجد على اعتبار أنها زائدة عن حاجته فأصبحت أرضاً حكومية ثم جعلتها الدولة مزرعة جماعية.

العودة إلى سمرقند :

بدأنا العودة إلى سمرقند مسرعين لأن لدينا موعداً مع جماعة من الاخوة المسلمين لصلاة العصر في مسجد هناك.

واعترض الطريق طريق آخر عليه لافتة مكتوب عليها انه يتجه إلى بخارى وتمنيت ان اسلكه لكي أرى بلدة الإمام البخاري التي طلبنا من السفارة السوفيتية في عمان عندما قدمنا جوازاتنا لاخذ السمات منها ان

تجعل بخارى في قائمة المدن التي سنزورها ولكنها لم تفعل ذلك، كما كنا ابرقنا لمكتب العلاقات الخارجية للادارات الدينية أن يضيفوا زيارتها إلى برنامج الزيارة المقترح من قبلهم فلم يفعلوا أيضاً واعتذروا بضيق الأيام المحددة للزيارة عن ذلك.

مسجد خوجة زد مراد :

قصدنا مسجداً اسمه (مسجد خوجه زد مراد) فاستقبلنا عند مدخل فنائه الواسع جماعة من أهله وحدثونا عن بنائه فذكروا أن الذي بناه هو السلطان عبدالله خان في القرن السادس عشر الميلادي وهو من سلالة تيمور لنك وجرى ترميم المسجد في عام ١٩٨٠م فأدى وفد الرابطة صلاة العصر جماعة خلف امام المسجد الحاج مصطفى قل ثم تحدث الدكتور/ شمس الدين بابا خان رئيس الادارة الدينية عن نشاط واعمال الادارة الدينية لمسلمى آسيا الوسطى وقاراقستان ثم تطرق إلى الصلات والعلاقات مع الرابطة واستضافتها السنوية لبعثة حج الاتحاد السوفياتي وعن اعمال الرابطة المختلفة لمساعدة المسلمين في كل مكان.

وردت عليه شاكراً وموضحاً الهدف من زيارة الوفد لبلادهم وشرحت لهم الصلات الثقافية الإسلامية التي تربط المسلمين ببلادهم ثم دعوت إلى أن تكون تلك الأمجاد التاريخية الإسلامية حافزا لهم على تربية ابنائهم واجيالهم على الإسلام واحكام الدين الحنيف وقد بكى بعضهم اثناء القاء كلمتى وبخاصة عند ماذكرت الاخوة الإسلامية والدعاء لهم بزيارة الحرمين الشريفين.

وذكر الامام مصطفى قل والمصلون معه يسمعون ان عدد الذين يحضرون للصلاة في الأوقات الخمسة المعتادة هو قليل في العادة ماعدا صلاة الفجر فيحضرها حوالي ١٢٠ مصلياً وذلك لكونها لاتصادف وقت عمل وأما الجمعة فانه يحضرها جمع عظيم يقدر بحوالي أربعة الآف كما قال.

وقبل الصلاة كان الإخوة اهل المسجد قد دعونا إلى مائدة من موائد الشاي التي تكون حافلة عندهم بالمكسرات والمشروبات والمأكولات الخفيفة وذلك في غرفة ملحقة بالمسجد واقعة في ركن من فنائه الواسع.

وقد جعلوا لغير المسلمين مائدة أخرى منفردة وهم المرافقون الاعلاميون وعددهم خمسة وذلك في غرفة أخرى ملحقة بالمسجد.

واحتجنا الوضؤ فوجدت أماكن للوضؤ صفا طويلا جداً يدل على صحة ماذكروه من كثرة الذين يشهدون صلاة الجمعة في المسجد ويحتاجون لاستعمال هذه الصنابير الكثيرة فوق محلات الوضؤ ومن الطريف ان بعضهم لحق بمن أراد الوضؤ من أعضاء وفدنا ومعهم أوراق التنظيف إلى جانب أباريق الوضؤ المتوفرة في المكان يريدون ان يستعملها من يجمع بين الا ثنين.

وقد تبادلنا الهدايا مع إمام المسجد وأهدينا أيضاً هدايا للمسجد نفسه منها تسجيل آيات القرآن الكريم وجهاز التسجيل الذي يصعب الحصول عليه في بلادهم.

وكانت صلاة الشيخ الأمام (مصطفى قل) خفيفة ولكنه أطال التسبيح والدعاء بعدها فكان يقول مثلا: (سبحان الله) يمدها مدا ثم يقول بعد سكتة قصيرة الحمد لله ثم الله أكبر ثم الدعاء الذي تكرر اكثر من مرة ثم قراءة آيات من القرآن الكريم فدعاء آخر بعده.

وهذه الأمور بعد الصلاة قد التزموا بها، أو التزم بها اكثرهم لايكادون يخلون بها حتى عدتها العامة منهم من الأمور التي لا تصح الصلاة كاملة الا بها.

والواجب على العلماء منهم ان يفهموهم ان المفروض هي الصلاة المكتوبة وحدها ومابقى فهو نفل يجوز فعله ويجوز تركه وان يتركوه هم

أنفسهم في بعض الأحيان تأكيداً لذلك حتى لايفهم القوم أن الصلاة طويلة ثقيلة بهذا الذي أدخلوه عليها.

وفي واجهة المسجد كتابات ظاهرة بالعربية منها (حسبنا الله ونعم الوكيل) و(نعم المولى ونعم النصير). وتحتها بالتركية: جزاع مسجد ومنبر. و(ابوبكر عمر عثمان وحيدر).

وهذه شعارات من شعارات اهل السنة التي أخذوا بكتابتها عندما ظهر التحدي الشيعي لأهل السنة على أيدي الصفويين واتباعهم في ايران واتخذت بعد ذلك تقليداً قديماً دون ان يكون هناك تحد.

مسجد خوجه أحرار :

أخذ الموكب يتأهب للتحرك من هذا المسجد واذا بأحد الشيوخ الطاعنين في السن يوقف الموكب ويمد يده اليّ بشيء ملفوف في قرطاس فأسرع اليه المرافقون يستفسرون فقال: هذا زبيب من بيتي أحب أن اهديه إلى رئيس وفد القوم الذي جاؤا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وأرجو قبوله.

فتسلمته وطلبت منهم ابلاغه شكرى له وتقديري لهديته.

وصلنا إلى مسجد خوجه أحرار في السابعة مساء ولم يكن الوقت وقت صلاة وإنما كان المقصود من الزيارة هو رؤية المسجد والاجتماع بالمسئولين عنه ومنهم امامه (رجب علي كريم) الذي كان في الاستقبال مع جماعة المتولين على المسجد وبعض المسلمين الذين يعتادون المسجد وتجولنا في المسجد الذي يتألف من قسمين احدهما بناء مفتوح من جهة الشمال الشرقي يسمونه: مسجد الصيف لأنهم يصلون فيه في وقت الصيف والثاني محجوز بحيطان مغلقة من كل الجهات يسمون مسجد الشتاء ويصلون فيه في فصل الشتاء.

وبجانب المسجد بجزئيه آثار بناء قديم لمدرسة كانت تعرف ايضاً كما يعرف المسجد باسم مدرسة خوجه أحرار.

و ينبغي التذكر هنا أنه لامجال لوجود المدارس الإسلامية الخاصة او التابعة للجماعات الإسلامية في الاتحاد السوفيتي ولايوجد في طول البلاد وعرضها أية مدرسة مسلمة ولو صغيرة ماعدا مدرسة مير عرب في مدينة بخارى وعدد طلابها ثلاثون طالباً لايز يدون لان الزيادة لابد لها من موافقة عليا في الاتحاد السوفيتي وتلك الجهة لاتر يد ذلك.

وغير معهد الإمام البخاري في طشقند الذي زرناه وتكلمنا على شيء من أمره في هذه اليوميات وعدد طلابه من أهل البلاد خمسون لايز يدون الا ز يادة جاءت بقرار من السلطات العليا تضمنت أر بعة طلاب من افغانستان ذات النظام الشيوعي الحالي وطالبين اثنين من ابناء المسلمين في بلغار يا ارسلوا بطلب من مفتى بلغار يا وبموافقة من حكومة تلك البلاد.

ثم تجولنا في حديقة المسجد الواسعة المزدانة بأشجار الفاكهة المورقة ومنها أشجار التوت والخوخ والمشمش والذي عجبت من ضخامة أشجاره هناك العناب وشجر من شجر الدلب الضخم المعمر.

وخارج عن المسجد ولكن داخل الفناء الملحق فيه قبر (خوجه أحرار ولي) الذي نسب إليه المسجد وقد كتب عليه تار يخ وفاته في عام ١٠٠٠هـ وحوله قبور بعض مشايخه وخلفائه.

وتجدر الأشارة إلى أن (خوجه) هذا هو زعيم صوفي مشهور وكان شيخا لطائفة النقشبندية الصوفية المعروفة وذلك حسبما قاله لنا امام المسجد (رجب علي كريم).

وفي النهاية دعونا إلى مائدة في إحدي الغرف الملحقة بالمسجد وهي التي تشبه موائد الشاي في كونها تضم أطعمة غير الأطعمة الرئيسية الا انه

لابد ان يكون فيها الخبز من أجل أن يأكل منه من يكون جائعاً من المدعوين وهنا رأيناهم وضعوا على المائدة خبزاً من خبز سمرقند المشهور وذكروا أنه لايفسد بمرور الأيام عليه حتى قالوا: إنه يؤكل حتى بعد مرور سنة على إعداده. واعلاه منقوش بنقوش بديعة هي في حد ذاتها يصح أن توصف بكونها لوحة فنية.

والواقع انها كذلك لأنهم فيما يظهر يطبعون على وجه الخبزة بمطبعة منقوشة فتنطبع تلك النقوش عليها.

وعاد الموكب إلى الفندق تتقدمه سيارتان عسكريتان احداهما السيارة المعتادة والثانية من أجل ان تفسح الطريق لمروره وهي تطلق النفير المميز الذي يجعل السيارات في الشوارع تخلي الطريق له.

وقد الغينا رحلة كانت مقررة إلى بلدة تبعد ٤٠ كيلو متراً من سمرقند اسمها (أوردد) وذلك بسبب ضيق الوقت اذْ قاربت الشمس ان تغيب.

وعدنا إلى فندق سمرقند الذي تركناه في الصباح فكان ما استرعى انتباهي فيه ان العاملات فيه من الروسيات الثقيلات الأجسام اللاتي لايعرفن من الانكليزية شيئاً، ولايعرفن كذلك من مجاملة السكان شيئاً بل انهن يؤدين واجبهن من دون ان يلتفتن ليرين أثر ذلك في وجوه نزلاء الفندق.

ومن الطريف في الأمر أنني عند ركوب المصعد وكان معنا بعض السياح وكان عددنا خمسة وقد كتبوا على المصعد انه لايحمل اكثر من اربعة اشخاص وفيه ثلاثة مصاعد متجاورة صغيرة من هذا النوع فقال لي الأمريكي انهم يريدون أربعة من وزن مثل نسائهم الروسيات العاملات في الفندق أما مثلي ومثلك فيمكن ان يحمل المصعد ستة.

مأدبة رئيس الطباخين :

ومن أولى من رئيس الطباخين بأقامة مأدبة حافلة؟

كان موعد العشاء في التاسعة قالوا إنه في بيت احد المسلمين من مواطني هذه البلاد وقد وصلنا إلى منزله الذي يقع في حي قديم لذلك لم تقف السيارات عند بابه تماماً بل سرنا على أقدامنا قليلاً فاستقبلنا الأخ الحاج (أحمد جان) وسلم علينا عدد من أولاده وأحفاده فهو في حدود السبعين من عمره وله عدد من الأولاد والأحفاد كما اخبرنا بذلك.

وجلسنا إلى مائدة طويلة في غرفة مستطيلة غير معتادة في مثل هذه البلاد السوفيتية التي تقدر الحكومة مساكن المواطنين التي تؤجرها لهم بالمتر مما استرعى انتباهي وجعلني أسأل الأخ احمد جان عن سر حصوله على هذا المكان الواسع على أنني لم أر من بيته غير غرفة الطعام هذه فقلت له: ان بيتك واسع إلى حد يلفت النظر؟ فأجاب بأن عدد اولاده واحفاده يبلغ اربعين شخصاً وإذا حضر الجميع في الأعياد فإنه يلزمهم مكان واسع.

وبهذا لم يجب الأخ أحمد جان على السؤال بطريقة واضحة لأنه في مثل هذه الظروف التي تكثر فيها الآذان المصغية لايمكن أن يكون الجواب الا بمثل ذلك.

وعندما أبديت اعجابي بالطعام الذي قدمه الأخ احمد جان فضلا عن وفرته وتنوعه أجاب المرافقون: لاعجب في ذلك لأنه رئيس الطباخين وقال آخر: إنه رئيس الطباخين في مطعم حكومي كبير.

مؤتمر صحفي :

كان الاخوة المضيفون وعلى رأسهم الدكتور/ شمس الدين بابا خانوف قد عرضوا على وفدنا عقد مؤتمر صحفي ولم أكن منشرحا إلى ذلك لأنه سيضطرنا إما للمجاملة وهو مالا نريده وبخاصة أنه سيكون له وقع سيء

في نفوس إخواننا المسلمين من أهل الإتحاد السوفيتي وهذا مالن نفعله مختارين أو للخشونة في التعبيرات ونحن ضيوف زوار في الاتحاد السوفيتي في أول اوقات الزيارة قد بقيت علينا أقاليم وجمهوريات ومدن عديدة في أنحاء بلادهم.

وعندما عدت للفندق هذا المساء في حوالي الساعة الحادية عشرة وجدت عدداً من الصحفيين ومراسل وكالة الأنباء السوفيتي وقال الاخوة انهم صحفيون محليون يرجون منك ان تعقد لهم مؤتمراً صحفياً في الفندق.

فكان الحديث في غرفتي وانصبت اسئلتهم على الهدف من الزيارة والانطباعات التي خرجنا بها ونحن نغادر جمهورية ازبكستان حيث يؤلف المسلمون الأغلبية من السكان حسب قولهم فأخبرتهم ان الزيارة جاءت استجابة لدعوة قدمتها الادارات الدينية في الاتحاد السوفيتي إلى رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة فلبت الرابطة الدعوة شاكرة حيث جئت على رأس وفد منها ونحن نأمل ان يكون في هذه الزيارة الأولى لأول وفد من رابطة العالم الإسلامي الأثر الحسن في التعاون الإسلامي الثقافي وتوثيق الروابط بين الجهتين وبخاصة أن رابطة العالم الإسلامي منظمه شعبية عالمية.

أما عن انطباعاتنا عن هذه الزيارة فالواقع أن هذه أول زيارة لنا للإتحاد السوفيتي ونحن نرجو ان تعقبها اتصالات عديدة حتى تكون الانطباعات اكثر شمولاً واكثر الماماً بالتفصيلات.

وسأل أحد الصحفيين الحاضرين قائلا: أنا فلان من مجلة محلية هنا أسأل عما إذا كنتم رأيتم ان ما قاله بعض الناس في خارج الاتحاد السوفيتي وخصوصاً في البلدان الإسلامية من أن جميع سكان الاتحاد السوفيتي من الشيوعيين؟.

وقد اورد هذا السؤال بصيغة الانكار فقلت له: إننا رأينا إخواننا المسلمين المؤمنين الذين ضاق بهم جامع زين الدين يوم الجمعة ولو كانوا

شيوعيين ملحدين لما حضروا إلى هذا المكان و بخاصة ان اكثرهم كانوا من كبار السن الذين يظهر التدين على وجوههم وسماتهم.

ثم إننا قرأنا مانشر في المؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعي السوفييتي من أن عدد أعضاء الحزب الشيوعي في البلاد هو قرابة ثمانية عشر مليوناً على حين ان مجموع عدد السكان قد بلغ مائتين وستة وسبعين مليوناً حسب آخر إحصاء.

ولكنني لم أسمع من يقول بأن جميع سكان الاتحاذ السوفيتي هم من الشيوعيين فقال إن وفد الحجاج السوفييت ذكروا لنا أن الحجاج الذين اجتمعوا بهم في موسم الحج كانوا يعتقدون ذلك وذكروه لهم. فقال آخر: ماهي الأمنية التي تتمناها للمسلمين السوفييت؟

فقلت: أتمنى ان يتلقى أبناء المسلمين وصغارهم تربية إسلامية تربطهم بماضيهم الإسلامي المجيد وتكون عاملاً على إعادة المجد السابق لهذه البلاد لأنني لاحظت ان معظم المصلين في المساجد هم من كبار السن و يندر وجود شبان و بخاصة من الصغار بينهم.

مع العلم بأن الإسلام لايمنع التقدم في العلوم التجريبية ولايعارض التصنيع بل يحض عليه كما أتمنى ان يزيد عدد المسلمين الذين نراهم في موسم الحج من الاتحاد السوفيتي فقد كنت قرأت احصاء رسمياً يذكر ان عدد المسلمين في الاتحاد السوفيتي يبلغ ٣٥ مليوناً ونحن لانرى الحجاج من البلاد السوفيتية يزيد عددهم على خمسة عشر رجلاً في المتوسط.

فالحج له فوائد كبيرة وفيه منافع للناس من أهمها التعارف فيما بينهم وبذلك تتعمق الاخوة والصداقة بين الجميع لأن أول شيء مهم في هذا الأمر هو اللقاء والتعارف.

يوم الأحد ١١ شعبان ١٤٠٦هـ ٢٠ ابريل ١٩٨٦م

مغادرة سمرقند :

غادرنا فندق سمرقند مع انبلاج الفجر في الساعة الخامسة والنصف وقد صلى بعضنا في الفندق وبعضنا لم يصل فيه احتياطا وإنما صلى في قاعة كبار الزوار التي يمكننا ان نصلى فيها براحة.

وقدموا لنا في قاعة المطار طعاماً مبكراً من طعام الافطار لأنهم يعرفون أن الطائرات السوفيتية لاتقدم لراكبيها أطعمة في المسافات القصيرة مثل رحلتنا التي تقدر بساعتين ونصف والوقت وقت إفطار.

ثم كان وداع الاخوة الكرام الذين رافقونا طيلة مقامنا في هذه البلاد البخارية وعلى رأسهم الدكتور/ شمس الدين بابا خانوف رئيس الادارة الدينية.

وعند الخروج الى ساحة المطار حيث تقف الطائرة كان الهواء يهب بارداً ممايدل على تغير في حالة الجو بعد أمس فذكروا ان درجة الحرارة الآن ٨ درجات مئوية وهي ترتفع كثيرا في وسط النهار ولن تصل إلى ماوصلت إليه أمس، لأن الأرصاد الجوية ذكرت أنه سيكون في منطقة طشقند وسمرقند هذا اليوم عواصف وامطار.

ثم قامت الطائرة في الساعة السابعة والثلث قاصدة مدينة (باكو) عاصمة جمهورية اذربيجان السوفيتية وانتهى بذلك الحديث عن الرحلة (في بلاد المسلمين المنسيين: بخارى وما وراء النهر) وابتدأ الحديث في بلاد بقية من المسلمين الذين يعيشون في الاتحاد السوفيتي وذلك في كتاب آخر سميته: «جمهورية أذربيجان السوفيتية».

والله الموفق للصواب وإليه المرجع والمآب.

إلى مدينة الإمام البخاري

كان أسفي بالغاً على عدم زيارتنا لمدينة الإمام البخاري (بخارى) في هذه الرحلة وان كنا زرنا الإمام البخاري في قبره في خرتنك وذلك رغم الحاحنا على مضيفينا بزيارتها وزيارة ترمذ مدينة الإمام الترمذي.

ولكن القوم هنا نقصوا عدد المدن التي سنزورها واحدة بعد أن كانوا وضعوا اسمها في جوازاتنا وقطعنا تذاكر السفر إليها وهي مدينة (قازان) عاصمة جمهورية تتارستان التي كانت تحكم جزءاً من روسيا ومنه إمارة موسكو التي اصبحت الآن عاصمة الاتحاد السوفيتي.

وغادرنا الاتحاد السوفيتي آسفين على ذلك ولم يدر في خلدنا ان الدهر سيضرب ضرباته من قريب وان بلاد المسلمين في الاتحاد السوفيتي ستفتح كلها للمسلمين كلهم عن قريب ومنها مدينة (بخارى).

وهكذا كان.

فقد قمت بجولة ثانية في الاتحاد السوفيتي بعد الجولة الأولى بأربع سنين فزرت فيها مدنا وأقاليم لم ازرها من قبل ومنها مدينة بخارى.

وقد قيدت في مذكراتي عنها أشياء قليلة احببت نقلها إلى هذا الكتاب رغم تأخرها التاريخي عن جملة مافيه ولكن من أجل أن تصدق التسمية على المضمون فيه وهو (بخارى وماوراء النهر).

يوم الاثنين ١٤١٠/١١/١٨هـ ١٩٩٠/٦/١م

من خوارزم إلى بخارى :

أرأيت بريق هذا العنوان الذي لم يكن يخطر لي على بال قبل نصف قرن من الزمان عندما كنت اقرأ في كتب العلماء والأدباء الخوارزميين والبخاريين.

وكان الحديث عن بلادهم آنذاك كالحديث عن كوكب المريخ في الوقت الحاضر.

فلم يكن يدور في خلدي ولا في بلدي ان أرى أحداً من أهل تلك البلاد فضلاً عن أن أذهب إلى هناك.

وكان الحديث عن تلك البلاد ومن فيها من العباد كالحديث عن فعلات الأجواد التي كنا نظن ان الزمن لايسمح لها بأن تعاد.

فكم وكم عرفنا من رجال الحديث الشريف في خوارزم وبخارى وكم من رجال الأدب من الشعراء والبلغاء من قرأنا أشعارهم أو روينا أخبارهم او طالعنا آثارهم كتبا ومؤلفات وها انا الآن متوجه من خوارزم إلى بخارى على هذه السفينة الهوائية التي لا تستيطع عفاريت الأساطير ان تجاريها أو تباريها فضلاً عن ان تحمل ماتحمله من أثقال ومن نساء ورجال.

صباح خوارزم :

كان صباح خوارزم مليئاً بالأماني التي تحققت من رؤية خوارزم والأماني التي أرجو ان تتحقق من زيارة بخارى.

ولذلك كنت استبطئ الصباح ليلة البارحة رغم حاجتي إلى النوم بسبب الجولة الطويلة في اليوم الذي سبقه في خوارزم وقد ذكرت ذلك في كتاب. «يوميات آسيا الوسطى».

وقد بدأ هذا اليوم بإفطار روحي مشبع هو الاطلاع على مسجد قديم في مدينة اوركينج عاصمة إقليم خوارزم في الوقت الحاضر اسمه (مسجد أخن بابا) وأخن بمعنى إمام وهذا المسجد من المساجد التي سلمت من الشيوعية فلم يغلق كما أغلق غيره من المساجد لانه كان من عادة الشيوعيين في أوقات طغيانهم أن يتركوا للمسلمين مسجداً او مسجدين في المدينة التي تكون عامرة بالمساجد، ويكون فيها في الغالب مابين مائة إلى مائتين منها. ثم كان بعد الغذاء الروحي طعام خوارزمي لذيذ في بيت صاحبنا ومضيفنا في خوارزم الشيخ احمد جان.

فقد أجلسنا الشيخ في دكان من بيته وهو الموضع المكشوف المرفوع عن الأرض و يسمونه القسم الصيفي لأنه مفتوح الهواء إلى جهة الشمال.

وهو بخلاف سائر البيت الذي أعد للجلوس في الشتاء في هذه البلاد الخوارزمية التي ترتفع درجة حرارة الصيف فيها حـ ى تصل إلى ٤٤ درجة عند الظهر وقد شعرنا فيها بالحر نفسه الذي كنا نشعر به في مدينة الرياض في الصيف ثم تنخفض درجة البرودة في الشتاء حتى العشرين درجة مئوية تحت الصفر.

ولا أزال اذكر ماقاله ياقوت الحموي رحمه الله عن برودة خوارزم حين قال:

وقد اجتهدت ان اكتب شيئاً بها اي خوارزم في الشتاء فما كان يمكنني لجمود الدواة حتى أقربها من النار وأذيبها، وكنت اذا وضعت الشربة على شفتي التصقت بها لجمودها على شفتي ولم تقاوم حرارة النفس الحار.

وقد صار الشيخ احمد جان وابناؤه يتعاونون على نقل الصحون الحافلة بالطعام حتى إذا ضاق بها الخوان على سعته وهو السفرة رفعوها فأتوا بغيرها تحوي الواناً من الطعام غير الألوان الأولى.

وقد أحضروا توتاً احمر غضا قطفوه لتوه من شجره لأن هذا الفصل هو فصل إدارك التوت في هذه البلاد وكانوا احضروا امس توتاً آخر أبيض الثمر وقالوا ان الفرق بين التوت الأحمر والتوت الأبيض أن التوت الأحمر يخفض ارتفاع ضغط الدم وان الأبيض يرفعه مع أنهما فاكهة واحدة ولكن من شجرتين مختلفتين.

في مطار اوركينج :

في التاسعة والربع من هذا الصباح كنا في مطار اوركينج عاصمة خوارزم واسمها العربي القديم كان (كاركينج) ذكرها به اهل المعاجم البلدانية من علمائنا لم تغير القرون منه إلا الحرف الأول اذْ كان كافا فصار همزة ولعله كان في الأصل همزة على ألسنة قومه الأقدمين ولكنه صار كافا في صحائف اسلافنا المؤرخين.

فكان حاكم اقليم خوارزم الأستاذ عبدالله اسكندر في المطار يودعنا كما استقبلنا نائبه فيه عند القدوم.



مع حكام خوارزم عبدالله اسكندر في مطار أوركينج على يمينه المؤلف فالشيخ محمد صادق وعلى يساره الأستاذ رحمة الله بن عناية الله.

ووجدناهم قد أعدوا في قاعة كبار الزوار في المطار مائدة عليها الكعك اللين (الكيك) وقوارير من المياه المعدنية المحلية ومن عصير الفاكهة.

وقد جرى حديث مهم مع الحاكم عن تاريخ هذه البلاد ومن أخرجته من العلماء والأدباء والصلحاء والزهاد وكيف ان تاريخها الثقافي والعلمي في كتبنا العربية يرقى إلى اكثر من الف ومائتى عام على حين ان الشيوعيين قد اوحوا لأهلها انه يبدأ منذ دخول الشيوعية إليها قبل ٧٣ سنة.

إلى بخارى :

ودعنا حاكم خوارزم ومعه عدد من ائمة المساجد والموظفين إلى سلم الطائرة السوفيتية وهي طائرة صغيرة ذات محركين مروحيين ولذلك تعتبر بطيئة في طيرانها وذكروا أن المسافة هي بين خوارزم وبخاري ٤٠٠ كيلو متر تقطعها الطائرة في ساعة واحدة وتحمل هذه الطائرة ٥٢ راكباً وتعمل فيها مضيفة روسية صهباء لم تؤد اي عمل للركاب وإنما رأيتها تسأل الركاب عن وجهتهم أهي بخارى ام سمرقند؟

وذلك ان هذه الطائرة ستتجه بعد بخاري إلى سمرقند ثم كانت تكتب العدد على كفها لتخبر به الطيار أو ربما تخابر به في اللاسلكي.

وكان معنا طول الرحلة في هذه البلاد المسلمة العريقة الشيخ الجليل المفتي محمد صادق محمد يوسف رئيس الادارة الدينية لآسيا الوسطى وقازاقستان وهو إلى ذلك عضو في مجلس السوفيت الأعلى وهو مرجع لجميع أئمة المساجد والعاملين في الحقل الإسلامي في هذه البلاد ويجيد العربية وصديق لنا قديم.

ومن الطريف في الأمر ان أحد رفقائنا في الطائرة كان جالساً خلفي انا والشيخ محمد صادق الذي كان جالساً بجانبي فجاءت إليه المضيفة وأمرته بالقيام عن الكرسي الذي هو فيه وجلست مكانه وقد أشارت الى كرسي آخر قالت له: اجلس هناك.

ومثلها مثل سائر المضيفات في طائرات الاتحاد السوفيتي الكثيرة لا تعرف الابتسام ولا المجاملة في الكلام للركاب مثلها في ذلك مثل العاملات في الحقول الأخرى اللاتي يعملن وكأنهن الآلات المسخرات.

فوق نهر جيحون :

نهضت الطائرة في العاشرة ضحى من المطار فصارت تطير مباشرة فوق نهر جيحون الذي ورد فيه الأثر «سيحون وجيحون والنيل والفرات من أنهار الجنة».

وسيحون وجيحون كلاهما واقع في هذه البلاد البخارية وإن شئت قلت: التركستانية وان شئت العراقة التاريخية قلت: بلاد ما وراء النهر لأن المراد بالنهر في التعبير نهر جيحون هذا الذي يؤلف اعلاه الحدود مابين بلاد الاتحاد السوفيتي وبلاد الأفغان في الوقت الحاضر.

و يسمون نهر جيحون هذا (أمو دار يا) ومعناها النهر..

وقد رأينا نهر جيحون من الطائرة كما رأيناه أمس من على ظهر القارب جم المياه واسع المجرى يسير في أرض صحراو ية لولا وجوده فيها لما اختلفت عن الصحاري الأخرى الا بالأشجار الكثيرة المتفرقة التي تتغذي جذورها على ذوب الثلوج عندما يسيلها وقت الربيع.

وتنطلق من نهر جيحون قنوات عديدة بعضها كبير واسع يكاد يكون نهراً صغيراً في حجم نهر بردى في دمشق وبعضها صغير. وللحكم الشيوعي في آسيا الوسطى وان كانت هذه التسمية ليست دقيقة كل الدقة باع ظاهر في شق القنوات ومجاري المياه إلى حيث الأماكن المحتاجة للمياه.

وقد قال القوم الخبيرون ان القنوات التي اخذت من نهري جيحون وسيحون قبل ان يصلا إلى منتهاهما في بحيرة خوارزم التي يسميها المتأخرون من مثقفي قومنا المقلدين بحيرة (أرال) قد أثرت على هذه البحيرة التاريخية

بـل الأزلـيـة فصار لايردها الإ أقل من نصف ماكان يردها من مياهها على مـر الـعـصـور وكـان للـسـدود الـتـي أقيمت أيضاً على النهرين ماحجز مياها عـظـيـمـة عـن الـوصـول إلى تلك البحيرة إضافة إلى ماعمر حولها من أراض بـالـزراعـة او بـالـقنوات فحجز ذلك ماكان يأتي إليها و يغذيها من مياه ذوب الثلوج.

حتـى أثـر ذلك في محتوياتها وهي مليئة بالمعادن فصار ماتبخره الشمس في الصيف أضعاف ما يصل إليها من ذوب ثلوج الشتاء.

فـتـركـزت فيـها المـعـادن وتبخرت غازاتها فأشاعت في الجواء التي حولها السموم ولوثت الهواء الطلق.

وانـضـاف إلـى ذلك ماكانت التجارب الذرية السوفيتية تسببه من غبار ذري ومـن غـازات سـامـة اذ كـانـت مـنطقة التجارب الذرية السوفيتية في (فازاقستان) لاتبعد كثيرا عن منطقة البحيرة.

وقد أخبرنا اخوتنا المسلمون عن التقارير التي صدرت عن جهات مختصة عارفة وتتضمن احصاءات مرعبة عن انتشار الأمراض الناشئة عن التلوث في هـذه المـنـطـقـة من الأمراض السرطانية إلى امراض الأطفال ولو كانت مثل هذه الأمور في بلاد ديمقراطية متقدمة كالبلدان الأوروبية الغربية لما وصلت الأمـور فيـها إلـى هـذا الحـد لأن الـصـحـافـة ووسائل الاعلام وممثلي الشعب يثيرون ذلك و يضغطون على الدولة لايقافه.

ولـذلـك لم يـعـرف عـامـة الناس بحجم هذه الكارثة التي تتعلق بتلويث الـبـيـئة في هذه المنطقة منطقة بحيرة خوارزم (أرال) إلا بعد ان خفت قبضة الإرهاب الشيوعي عن رقاب الناس ورفعت الكمامات عن افواههم.

و يـنـبـغي الانتباه الى أن كلمة (ارال) في اسم هذه البحيرة ليست لها علاقة بجبال اورال فهى بعيدة عن تلك الجبال وليس في ارال اسمها واو.

وعندما اوغلنا في الطيران فوق منطقة جريان نهر جيحون ظهرت لنا مستنقعات منه في هذه الأرض الصحراوية.

كان بالسيارة أفضل :

عندما رأى الاخوة من أهل خوارزم شغفي في الاطلاع على كل مايتعلق بحاضر هذه البلاد ومقارنة ذلك بما كنت قرأته او اطلعت عليه من أخبارها في صغري اشاروا على بالسفر إلى بخارى بالسيارة وقالوا وهم يشيرون إلى السيارة التي كنا نتنقل عليها وهي سيارة حكومة رسمية سوداء اللون ان الطريق هي ٤٠٠ كيلو متر يمكنكم ان تقطعوها اذا اسرعتم في اربع ساعات.

وكان عرضا سخيا، لولا ان الوقت كان ضيقا بالنسبة إلي.

وقد تمنيت ان أكون بالفعل سافرت بالسيارة لأنني من اطلالة في الطائرة بعد سحاب حجب الرؤية بعض الوقت رأيت الأرض صحراء تشبه أرض الصحراء عندنا وكل أرضنا صحراء الا أنها اكثر منها اشجاراً سواء منها الاشجار الكبيرة كالطلح وما اشبهه من الأشجار او الاشجار الصغيرة اللاصقة بالأرض.

وتخيلت هذه الصحراء تدوسها أقدام العلماء والصلحاء من اعلام الإسلام وهم يغذون السير لطلب العلم، و يرحلون في ابتغاء المعرفة أو يهجرون ملذات البقاء عند الأهل والعيال لمجرد ان يلتقوا بمحدث رفيع الاسناد أو ليظفروا برواية جزء فيه حديث من أحاديث الغرائب او حتى من أحاديث العوالي وهي الاحاديث التي تروى بسند عال بمعنى ان عدد الرواة الذين يكونون بين الراوي من المحدثين وبين الرسول صلى الله عليه وسلم يكون اقل من عدد الرواة الذين يروون الحديث غيرهم.

اما الشعراء البلغاء والأدباء فان أبياتاً قالها أحدهم كانت لا تزال ترن في أذني وقد حفظتها منذ مايقرب من نصف قرن وهو يتشوق إلى خوارزم

عندما كان مقيما في نجد وها أنا الآن أفعل عكس مايفعله فأتشوق في نفسي إلى نجد ونحن في خوارزم قال:

أأبكاك لما أن بكى في ربى نجد سحاب ضحوك البرق، منتحب الرَّعْد

له قطرات كاللآلئ في الندى ولي عبرات كالعقيق على خدي

تلفت منها نحو خورزم والهاً حزيناً ولكن اين خورزم من نجد؟

وبينما كنت غافياً عما في الطائرة في استعراض هذه الأمجاد التاريخية للثقافة العربية الإسلامية لم اشعر الا بالمضيفة الروسية معها الضيافة الوحيدة وهي كأس عصير الفاكهة تناوله لي وعلى وجهها عبوس غريب ولم تنتظر حتى انتبه إليها وآخذه منها وإنما ناولته لجليسي المفتى الشيخ محمد صادق ليناولني إياه مع ان يده اليمنى كانت مشغولة بكأسه.

أما الركاب فانهم مختلطون مابين روس واوكرانيين وكلاهما من الأوروبيين بل ان بعضهم يجعل العنصرين الروسى والاوكراني كليهما من السلافيين وبين وطنيين بخاريين وإن شئت الدقة قلت آسيويين أو سطين نسبة إلى آسيا الوسطى التي تضم خوارزم وبخارى.

والفرق ظاهر بين الأوروبيين وهؤلاء الآسيويين الاوسطين اكثرمما هو ظاهر بين العرب الشماليين كالسوريين اللبنانيين والتونسيين مثلا وبين الأوروبيين الجنوبيين كالاسبانيين والبرتغاليين.

فالمسلمون هنا يتميزون عن الأوروبيين بالسمرة الواضحة إضافة إلى التقاطيع التي يمكن ان نوضحها لبني قومنا الذين يعرفون البخاريين بأنها بخارية.

فوق بخارى :

تدنت الطائرة قليلاً إلى الأرض وهي لا تزال بعيدة نسبياً عن مدينة

بخارى وذلك لكونها مروحية صغيرة ذات سرعة بطيئة بالنسبة إلى الطائرات النفاثة وهذا من حسنات الركوب فيها فرأينا آثار زراعة حقلية واسعة ربما كانت للقمح الشتوي وهو الذي بذر في أول الشتاء في مثل هذه الأرض التي ينزل عليها الثلج فيغمره حتى إذا ذاب الثلج في الربيع نبت القمح وقد أكسبه الثلج خصوبة اضافة إلى الندى.

والقرى الريفية طينية لاتكاد تميز البيوت فيها من الأرض العارية من النبات لأنها مبنية من طين الأرض نفسها.

ثم كثرت القرى المزروعة التي تكثر فيها المساحات الخضر وصارت تتكاثف كلما قاربنا الوصول إلى بخارى حتى صارت القرى الزراعية متصلة وكلها تكون البيوت فيها مجتمعة متلاصقة تحيط بها المزارع فصدق ذلك ماكان في ذهني مما ذكره مؤلفونا القدماء عن القرى الكثيرة التي تتبع مدينة بخاري.

وتبدو الطرق الزراعية في هذه القرى ترابية وسط خضرة الأشجار.

ثم ظهرت قناة واسعة تحمل المياه إلى هذه القرى الزراعية البخارية وعندما قربت الطائرة وهي تتدلى إلى قرب المدينة ظهرت حقول القمح الذي أدرك فصارت ذا لون أصفر ولم تحصد بعد.

وقبل ان تلامس الطائرة المدرج رأينا السيارات في شوارع المدينة كثيرة على البعد بالنسبة إلى السيارات القليلة التي تكون موجودة في العادة في مدن الاتحاد السوفيتي مثله في ذلك مثل البلدان الاشتراكية الاخرى.

الوصول إلى مطار بخارى :

بدت الأرض التي تحيط بمدارج المطار بعد أن نزلنا فيه كأنها الصحراء في آخر وقت الربيع فالأعشاب يابسة والأشجار الصحراوية اللاطئة بالأرض كشجر الهرم ونحوه موجودة بقرب المدارج وهي خضراء خضرة كاملة.

وقد هبطت الطائرة في مطار بخارى في الحادية عشرة والنصف بعد طيران من اوركينج عاصمة خوارزم الى بخارى استغرق ساعة واحدة.

وكان أول ما لاحظناه أن الهواء في هذه الساعة المبكرة من القائلة فيه سموم حار يشبه السموم الذي يكون في بلادنا في مثل هذه الساعة من نهار الصيف.

وذلك رغم الفارق في مقادير المياه والأراضي المزروعة في هذه المنطقة وفي بلادنا الا أن بعد هذه المنطقة عن البحار وغلبة الجو الصحراوى عليها جعلها تبدو كذلك.

وجدنا في الاستقبال عند سلم الطائرة حاكم بخارى الأستاذ عبيد الله ناصروف.

والشيخ مختار عبدالله مدير مدرسة ميرعرب في بخارى.

ولم نتأخر في المطار وإنما اركبونى سيارة رسمية سوداء وركب معي حاكم بخارى، والمفتى الشيخ محمد صادق محمد يوسف وتبعتنا سيارة أخرى فيها بعض الرفاق.

في مدينة بخارى :

سارت السيارة على طريق مزدوج لابأس به من حيث الزفلتة إلا أنه غير واسع ويفصل بين طريق الذاهب والآيب مجرد خط وقد زرعوا جانبيه ببعض الحشائش التي تزينها بعض الأشجار ولم ار فيها زهوراً.

وكان أول مااسترعى انتباهي في الطريق امرأة مسلمة كبيرة السن قد وضعت على رأسها (غترة) مثل التي على رأسي.

وقد دخل الطريق إلى المدينة بسرعة لأنه قريب منها ولذلك رأينا الابنية السكنية الكبيرة التي تتألف من شقق عديدة وهي حكومية تبنيها

الحكومات الشيوعية وتؤجرها على الناس لأنهم لايستطيعون ان يبنوا لهم مساكن بأنفسهم. ثم كثرت رؤية المارة في الشارع من الروس والاكرانيين وتبين بعد ذلك ان عددهم في مدينة بخارى كثير بخلاف قرى بخارى فعددهم فيها قليل.

والمدينة جميلة مرتبة الشوارع كثيرة الأشجار الخضر التي يؤلف بعضها حدائق في المدينة رغم كونها لاتقع على نهر كبير وإنما تقع على نهر زرفشان الذي اصبحت مياهه لاتكفي ولاتصل المدينة كلها وقد مدت لها قناة من نهر جيحون (امودار يا) منذ عهد قريب.

واللباس الغالب على الناس الذين رأيناهم في المدينة هو العالمي المسمى بالافرنجي.

فندق بخارى :

انزلونا في غرف من فندق بخارى وهو فندق جيد ذو مداخل فخمة تتقدمه باحات مكشوفة واسعة.



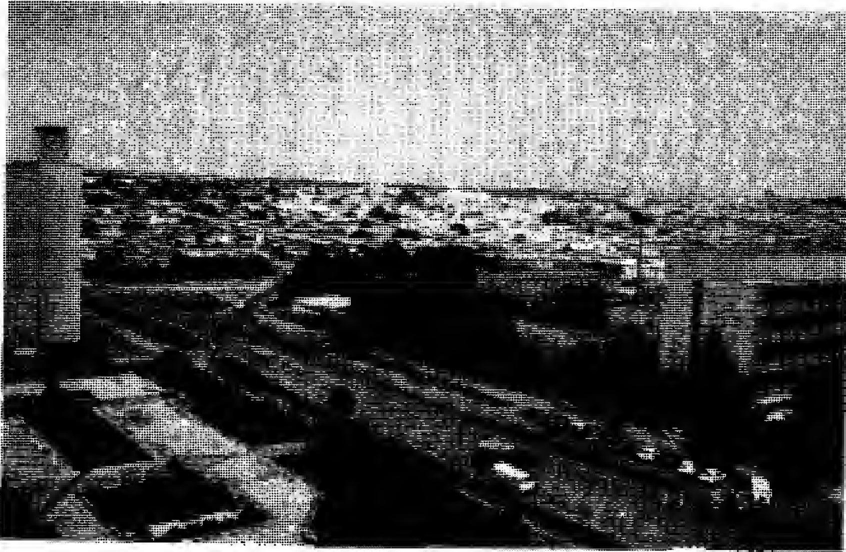
المؤلف واقف في شرفة فندق بخارى التقطها أحد المرافقين ويبدو جزء من المدينة من النافذة

أمـا غرفه فإنها ليست واسعة وقد انزلوني في جناح مؤلف من غرفة للنوم وغـرفـة استـقـبـال مؤثثة تأثيثاً لابأس به ولاطابع له في مدينة تاريخية مسلمة كنت اتوقع ان يكون كل مافيها مستوحى من ذلك.

والـشيء الوحيد الذي يدل على عراقتها وطابعها الخاص صحون واباريق واكواب من الخزف التركستاني قد وضعوها في خزانة في الغرفة.

وفـي الـغرفة ثلاجة كبيرة فيها ماء معدني وعصير من عصير الفاكهة وقد وضـعـوا فـي مـائـدة فـي الغرفة فاكهة من فاكهتهم المحلية التي ادركت الآن وهـي المـشـمـش والـكـرز جـريا على عادتهم في تقديم فاكهة من فاكهتهم للضيف إذا كان الوقت وقت وجود فاكهة والا قدموا له نقلاً وهو المكسرات كالفستق والبندق ومعه الزبيب.

وتـقـع غرفتي في الفندق في الطابق التاسع وتطل شرفتها على منظر أنيق من ساحة واسعة مشجرة جميلة التقطت لها من الشرفة عدة صور.

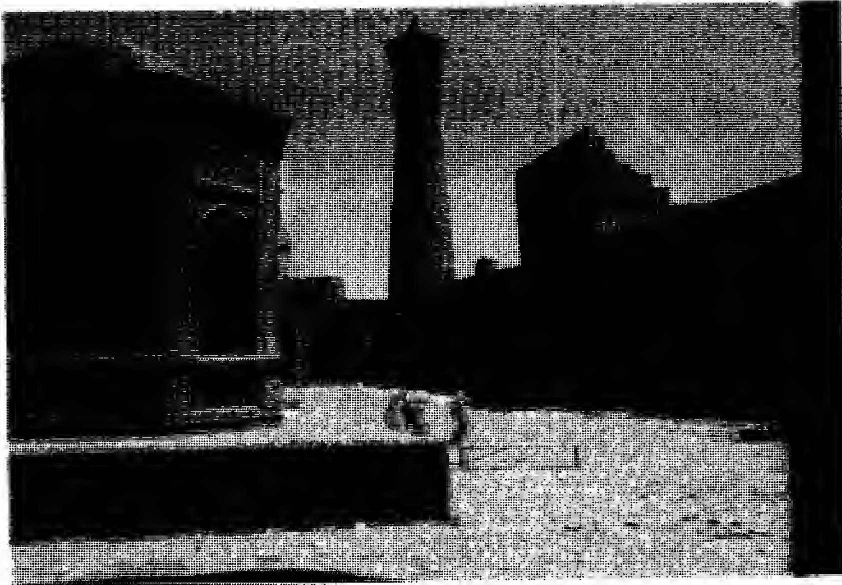


التقط المؤلف هذه الصورة للقسم الفاخر من مدينة بخارى كما يبدو من شرفة الفندق

جولة في مدينة بخارى :

لم نستطع أن نخصص لمدينة الإمام البخاري إلا سحابة هذا اليوم وذلك بسبب ازدحام البرنامج واتساع هذه البلاد المسلمة العريقة.

لذلك لم نلبث الا قليلاً في الفندق حتى غادرناه في جولة في مدينة بخاري صحبنا فيها عدد من أهل بخارى المشايخ ومعنا أيضاً في طول الرحلة وعرضها المفتي الشيخ محمد صادق محمد يوسف رئيس الادارة الدينية في آسيا الوسطى وقازاقستان وهو خبير بهذه المنطقة لأنها من ميدان عمله.



داخل جامع كالان وتبدو منه منارة كالان شامخة

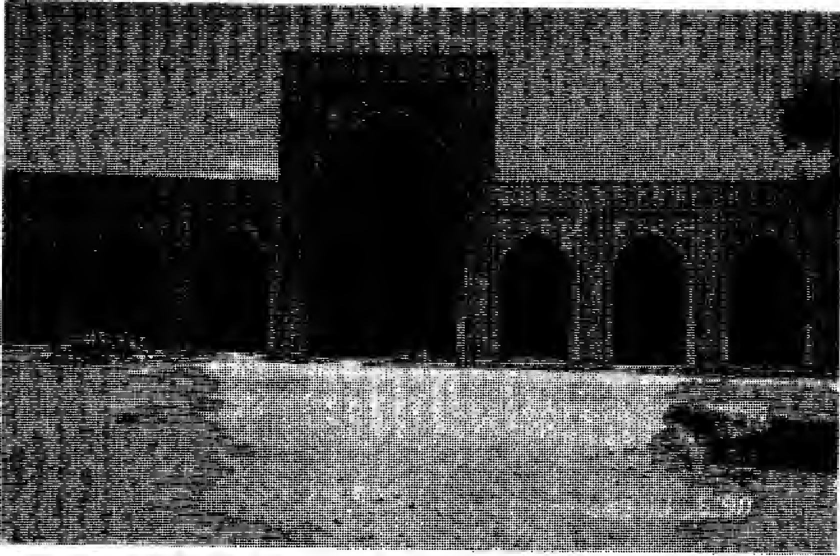
الجامع الكبير :

وهذه ترجمة لاسمه ويلفظون بها (جامع كالان) وكالان معناها الكبير وقد يسمونه جامع بخارى الكبير.

وهو كبير حقا ويكفي أن تعرف أنه يتسع لتسعين الف مصل مع أنه الآن أصغر مما كان عليه في الماضي.

وكبره يعطيك دليلاً واضحا على كبر مدينة بخاري في القديم بل ضخامة حجمها بالنسبة لما هي عليه الآن فسكانها الآن يبلغون ٢٨٠الفاً أي أن عدد الرجال الذين يصلون في الجامع اذا كان جميع الرجال يؤدون الصلاة واذا كانوا يؤدونها فيه دون غيره من المساجد هم أقل من العدد الذي كان يستوعبه هذا الجامع الكبير القديم.

عندما دخلنا لهذا الجامع هالنا صحنه الواسع المستطيل باتساعه وإحاطة الاروقة التي تقام فيها الصلاة ومع ذلك كان في القديم اكبر مما هو عليه الآن.



إحدى بوابات جامع كالان كما تبدو من الداخل

وقد ذكروا ان طوله البالغ وازدحامه بالمصلين كان إبان ازدهار مدينة بخارى قبل أن يخربها التتار عند هجومهم على هذه البلاد المسلمة الواقعة فيما وراء النهر عام ٦١٦هجرية وقد خربوه فيما خربوه من مدينة بخارى فتقلص عدد سكان المدينة حتى لم يكد يبقى فيها منهم أحد ومن لم يمت هرب منها إلى الارياف أو إلى أماكن اكثر منها أمنا ثم جدد بناؤه اكثر من مرة حتى صار على ماهو عليه الآن من الروعة والعظمة وبناؤه الحاضر كان على يد

الأمير عبدالله الشيباني من ذرية تيمور لنك في القرن العاشر الهجري.

فالصحن الواسع محاط بأروقة واسعة من جميع الجوانب، الا أن بعضها اوسع من بعض فمثلاً الجزء الشمالي الشرقي الذي يقابل القبلة اكثر عمقاً واكثر اتساعاً للمصلين من الجوانب الأخرى.

وقد بني في عقود إسلامية الطراز مما تميز به طراز البناء في تلك المنطقة وبخاصة بواباته ذات العقود العالية، وأعمدته الرشيقة وكان موضعه مسجداً صغيراً أسس في عهد قتيبة بن مسلم الباهلي في أوآخر القرن الأول الهجري.

جامع الإمام البخاري :

ويصح أن يسمى هذا الجامع الكبير بجامع الامام البخارى أيضاً فقد كان البخارى يحدث الناس فيه، اي يروي لهم الأحاديث التي ضمنها كتابه (الجامع الصحيح) وغيره من كتبه.



جانب من الساحة الداخلية لجامع كالان في بخارى

وكان الناس الذين يتلقون عنه الحديث من الكثرة بحيث لايستطيع صوته ان يبلغهم فكان له ثلاثة من المبلغين وهم الذين يتلقفون مايقوله و يعيدونه ليسمعه الناس الذين لايجدون مكاناً بالقرب من الامام البخاري لكثرة المجتمعين حوله وقد قيل ان الإمام البخاري حدث في هذا الجامع الكبير بأكثر من ٩٠ الف حديث من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وطبيعي أنه ليس كل تلك الأحاديث من الأحاديث الصحيحة المذكورة في صحيحه لأن أحاديث الصحيح كلها مع المكرر منها لايزيد عددها على ٧٣٩٧ حديثاً.

ولكن الإمام البخارى له مؤلفات غير الجامع الصحيح المعروف بصحيح الإمام البخاري بلغنا منها عدة منها: التاريخ الكبير والتاريخ الصغير، والأدب المفرد، وكتاب خلق أفعال العباد.

خروج الإمام البخاري من بخارى :

لخروج الإمام محمد بن اسماعيل البخارى من مدينة بخارى التي اكتسبت فخراً به على العصور بل اكتسبت كل هذه المنطقة من بلاد ماوراء النهر وحتى بلاد تركستان كلها مجداً بهذا الإمام العظيم لم تمحه الدهور علاقة بسماع الحديث في هذا الجامع الكبير.

فقد كان الإمام البخاري يحدث الناس فيه مجتمعين لافضل لأحد على أحد عنده الا بمقدار مايحصله من العلم. ومايصدق علمه من العمل بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ومايثمره ذلك من صلاح وتقى للمرء ينعكس على اعماله وسلوكه.

فأراد أمير بخارى أن يجعل أولاده يسمعون الحديث على الإمام البخاري فأرسل إليه يسأله ذلك..فأبدى الإمام البخاري ترحيبه بأولاد الأمير كما

كان يبديه بغيرهم فهدفه هو إبلاغ الحديث إلى كل من يستطيع ابلاغه إليه. غير أن الأمير استنكف أن يحضر أولاده مع ذلك الجمع العظيم الذين يسمعهم الإمام البخارى حديثه، ورأى في نفسه أنه وهو الأمير جدير بأن يأتي الإمام البخاري إلى قصره معززاً مكرماً حتى يسمع منه أولاد الأمير ومن اراد الأمير ان يكونوا معهم من حاشيته.

فامتنع الإمام البخاري عن القدوم إلى قصر الأمير، وقال: العلم يؤتى إليه ولايأتي إلى الناس ثم إذا ذهبت إلى قصر الأمير وقصرت سماع الحديث على أولاده ومن يريد معهم كيف يصنع سائر الناس الذين حضروا إلى بخارى من اقاصي البلاد وادانيها إذا ماتركت إقراء الحديث في المسجد الكبير وهل يقبل الأمير أن احضرهم إلى قصره ليسمعوا مع أولاده ان كان في قصره متسع لهم مثل المتسع الذي في المسجد الجامع؟

قالوا فغضب الأمير على الإمام البخارى، ومنعه من إسماع الحديث في المسجد الجامع نكاية به حين لم يخص او لاده بوقته دون سائر الناس فلم يسمع الامام البخاري لقوله، فتوعده الأمير وعرف الامام البخاري بصدق وعيده. فخرج مغاضباً له من مدينة بخارى قاصداً مدينة سمرقند ولكن واليها منعه من الإقامة بها مجاملة لأمير بخارى فذهب إلى أقارب له في (خرتنك) حيث مرض ومات هناك في عام ٢٥٦هـ عن ٦٢ سنة. وقد زرنا قبره في خرتنك كما سبق.

عود إلى الحديث عن الجامع الكبير:

بقي هذا الجامع الكبير (جامع كلان) بمثابة الجامعة الإسلامية يقصده الناس للصلاة و يتجه إليه طلبة العلم حتى حل البلاء الشيوعي الملحد بالبلاد فصادره من بين ماصادره من جوامع ومدارس وأماكن يذكر فيها اسم الله.

واتخذه الشيوعيون مستودعاً لاشيائهم وقالوا للناس ما اعتقدوه بأنه لن يعود جامعاً يذكر فيه اسم الله ولا جامعة تدرس فيها العلوم الإسلامية كما كان من قبل.

ولكن الله خيب ظنهم وكذب قألهم فعاد الجامع إلى المسلمين جامعاً يشهد بعراقة هذه البلاد في الإسلام و يذكر فيه اسم الله أثناء الليل وأطراف النهار.

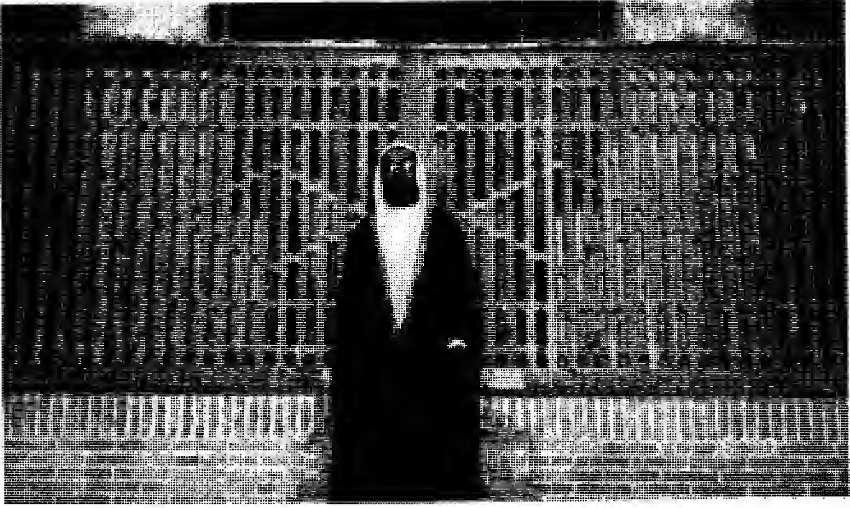
وذلك حين استعاده المسلمون قبل أقل من سنة واحدة ولكن الشيوعيين كانوا قد خربوا منه ماخربوا وما لم يخربوه منه اهملوه حتى خربه الزمان.

فأخذ الاخوة المسلمون الآن في إصلاح ما افسده الإلحاد منه ولكن ذلك يحتاج إلى جهد ومال تقصر قدرتهم عن توفيره.

فأخبرناهم ان في امكان رابطة العالم الإسلامي ان تساعد في تعميره وترميمه وما عليهم إلا ان يقدروا مايحتاجونه من مال لذلك الغرض وأن يفصلوا الغرض منه تفصيلاً ثم يعطونا ذلك أو يرسلونه الينا في الرابطة ونحن سنقدم ان شاء الله إسهاماً طيباً في ذلك.

وقد اخبرونا ان المسجد صلي فيه صلاة العيد بعد اعادته للمسلمين لأول مرة فبلغ عدد المصلين ستة الآف وفي العيد الذي بعده صلى فيه ثمانية الآف مصل.

هذا وقد صلينا الظهر في الركن الشمالي من الجامع المسقوف ووجدناهم فرشوه بمطارح وهي التي تحشى بالقطن و ببسط صوفية وذلك اتقاء للبرد كما أنهم جعلوا فيه مدافئ تعمل بالنفط.



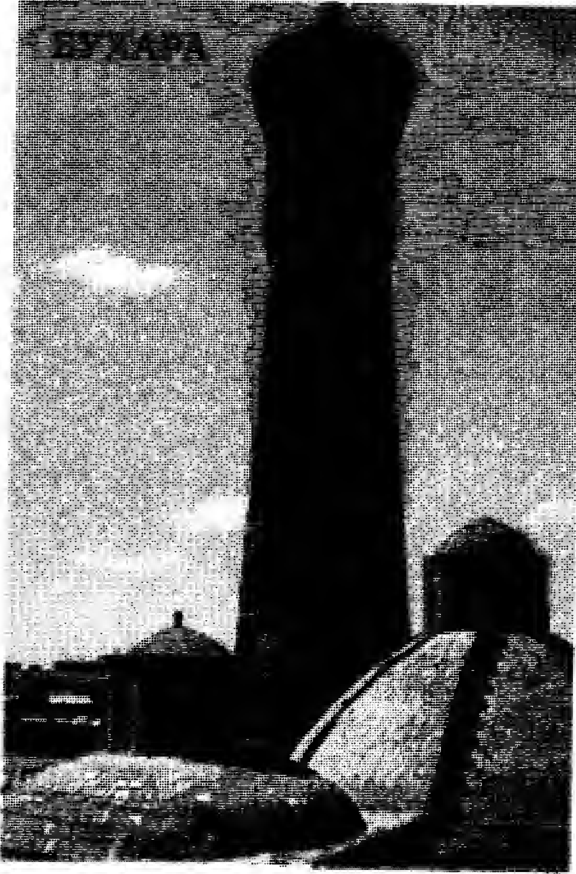
المؤلف أمام موضع المحراب في جامع كالان

وذكروا بهذه المناسبة ان درجة البرودة تنزل في الشتاء الى ٢٠ درجة تحت الصفر واحياناً تنخفض إلى ٢٥درجة وهم يصلون الصلوات الخمس في هذا الجزء الصغير المفروش في المسجد واما سائره فإنهم يعملون في ترميمه وجعله صالحاً للصلاة أيام الجمع والأعياد.

منارة كلان :

والمراد بكلان كما سبق الكبير فهذه المنارة عجيبة فهى عالية يبلغ ارتفاعها ٤٨ متراً وفيها ١٠٨ درجات يحتاج من يصعد من اجل ان يؤذن فيها إلى ان يصعد كل هذه الدرجات و ينزل منها.





منارة كالان في بخارى

وهى مدورة منقوشة بل مزوقة، وقد قاومت القرون فلم تؤثر فيها وقد صارت الآن معلماً من معالم مدينة بخاري توضع على البطاقات والمنشورات السياحية

وهي واقعة خارج المسجد الجامع الكبير ولكنها ملاصقة له.

مدرسة مير عرب.

ومعناها مدرسة الأمير العربي:

وهو أمير عربي كان وزيراً للسلطان عبيد الله الشيباني الذي هو من خلفاء التيموريين فليس له رغم اسمه علاقة ببني شيبان من العرب وكان الأمير العربي هذا رجلاً عمرانياً كما كان أسلافنا العرب يقولون عن أمثاله فهو يحب العمارة وذكروا من مآثره أنه حفر موارد كثيرة في الصحراء لكي يتزود منها المسافرون الماء.

وهذه الموارد على هيئة سراديب أو برك من الماء تحت الأرض، من أجل حفظ مياهها عن التبخر وصيانتها من التلوث بالاقذار والأكدار.

وفي موقعة من المواقع بين الملك عبدالله الشيباني واعداء له من الايرانيين

قادها الوزير (مير عرب) اي الأمير العربي او بالترجمة الحرفية (أمير العرب) وان كانت هذه الترجمة غير مرادة، انتصر الوزير على الايرانيين فكافأه الملك بأن اجزل له المال الذي أراده الوزير من أجل العمارة فبنى هذا الجامع الكبير بمعنى جدد بناءه والمنارة الكبيرة ومدرسة عظيمة البناء لا تزال باقية وهى مدرسة مير عرب، وجعل المدرسة مقابلة للجامع تقع إلى الشرق منه، وبنى المنارة هذه بين الجامع والمدرسة.

مدرسة مير عرب :

بعد التجول في الجامع والالتفاف حول المنارة والتقاط الصور التذكارية حولها دخلنا إلى مدرسة (مير عرب) وهذا هو اسمها الرسمي الآن من بوابة عالية بلغ ارتفاع القبة التي تزين مدخلها (٣٠) متراً اي مايساوى ٨ طوابق تقريباً. في أقواس فوق المداخل مشابهة من حيث الهندسة لمداخل الجامع وبواباته وللأبنية التي خلفها التيموريون في سمرقند.

المسلمون أولاً :

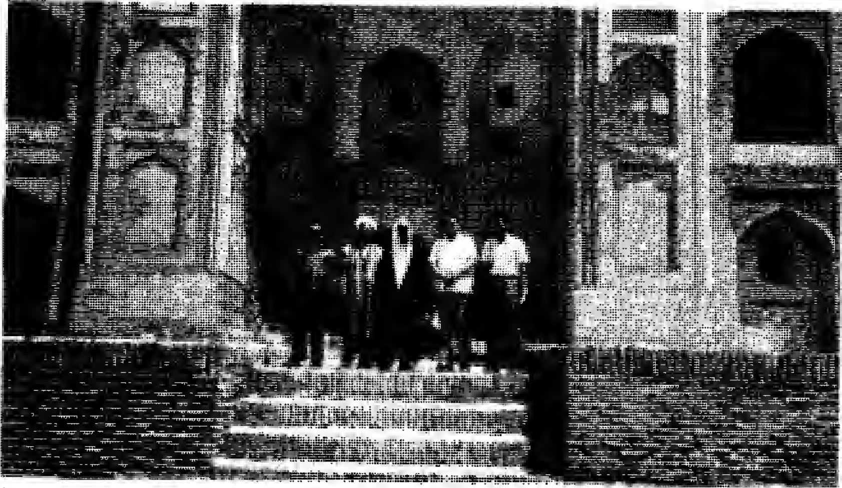
عند ماوصلنا (مدرسة مير عرب) كان هناك سياح من الأوروبيين في



صورة تذكارية للوفد داخل جامع كالان

جولة سياحية فأوقفوهم وقالوا للدليل الذي معهم: إنه لايمكن لهم ان يدخلوا قبلنا ثم ذهبوا بهم إلى مكان آخر حتى انتهينا من زيارة المدرسة.

دخلنا مع البوابة التي يرتفع سقفها ٣٠ متراً وهى نفسها مرفوعة عن الأرض عدة أمتار إلى صحن المدرسة الذي تتربعه اربع بوابات ذات عقود عالية كلها لايقل ارتفاعها عن ٣٠ متراً وان كان بعضها على هيئة بوابة لكنه ليس فيه باب. ووجدناهم كتبوا لافتات ترحيب بنا بالعربية والروسية.



على بوابة مدرسة مير عرب من اليمين الاستاذ ايمن حبيب فالاستاذ حاتم قاضي فالمؤلف فالشيخ مختار عبدالله فالاستاذ رحمة الله بن عناية الله

والمدرسة تدور كلها على هذا الصحن المبلط بالحجارة المهذبة دائرة بالصحن ولايوجد غير ذلك فجميع مرافق المدرسة داخل هذه الدائرة وذلك أعطاها منظراً أنقياً جميلاً يجمع إلى الجمال الفخامة والارتفاع.

وكل ذلك في طراز إسلامي من الاطرزة التي اكتسبت صفات خاصة في هذه البلدان (البخارية) اي في منطقة ماوراء النهر كلها.

والغريب ان المرء إذا نظر إلى الغرف المحيطة بهذا الصحن وجدها تبدو من طابقين لكن تبين أنها من أربعة طوابق فقد جعلوا فوق كل غرفة غرفة أخرى و يبلغ عدد الغرف فيها (١٠٤) غرف ولكنها في معظمها صغيرة.

ومن الطريف في الأمر ان ابواب الغرف منخفضة يحتاج من يدخل منها إلى أن يطاطئ رأسه ذكروا لنا أن هذا مقصود من أجل ان يتعلم طالب العلم التواضع فينخفض رأسه عند الدخول وهي غرف صغيرة ذكروا أنها بنيت في الأصل لإقامة الطلبة.

وبعد جولة في غرف المدرسة وأركانها وجدناهم في ادارة المدرسة وعلى رأسها الشيخ الحاج مختار عبدالله مدير المدرسة قد اعدوا الغداء في مكتبة المدرسة وتضم كتباً جمة مابين مطبوع ومخطوط باللغات الثلاث التي هي العربية والاوزبكية والفارسية. فكان غداء بخاريا وهو الذي يمتاز بالسخاء والكرم ومعهما الدسم الكثير في الطعام، شأن كثير من اهل البلدان الباردة الذين عرفوا من تجاربهم ان الدسم يدفئ عن طريق تكوين طبقة دهنية فوق الجلد ثم صار الاكثار منه تقليداً متبعاً وان لم يرد الآكل ذلك.

حديث عن مدينة بخارى :



الغداء في مكتبة مدرسة مير عرب والشيخ مختار عبدالله (واقف إلى اليسار)

وبينما كانت الصحون تتعاقب تترى على المائدة كان الشيخ مختار عبدالله يحدثنا حديث الخبير عن مدينة بخارى فهو وان كان أصله من فرغانه فإنه مولود في بخارى وقد سلخ من عمره احدى وثلاثين سنة في العمل وقد تقاعد قبل مدة قريبة ويتقاضى راتباً تقاعدياً عن مدة خدمته تلك يبلغ مائة وثلاثين روبلاً وكان راتبه قبل التقاعد ٢٨٢ روبلاً.

وهذا مبلغ ضئيل بالنسبة إلى الرواتب عندنا اذا نظرنا إلى القيمة المصرفية المجردة للروبل فالدولار يصرف بستة روبلات ونصف للسياح ويسمون ذلك سعراً تشجيعياً وهو في السوق السوداء اي الحرة بـ١٥ روبلا الا أن الصرف الرسمي للدولار لايزال من الناحية الرسمية بثلثي روبل اي أن الروبل يساوى حوالي دولار ونصف تقريباً ولكن لا أحد يشتريه بذلك من الأجانب او السياح.

والمهم هنا قيمة الروبل داخلياً ومايوفره لحامله من خدمات حكومية في بلد شيوعي تهيمن الدولة فيه على كل شيء فهو كبير القيمة من هذه الناحية حيث يحتاج البيت المتوسط في مصاريف الماء والكهرباء إلى اربعة روبلات في الشهر واجرة البيت نفسه من ١٥ روبلاً إلى ٢٠ في الشهر وعلى هذا فقس.

إلا أن الحال اخذت تبدل الآن بعد سياسة (البرو ستيريكا) التي تعني إعادة البناء فأخذت الحرية الاقتصادية تبدو قريبة وقد شمل ذلك أشياء بالفعل مثل الترخيص للفلاح ببيع انتاجه والترخيص لكل جمهورية ان تكون حرة في بيع انتاجها دون ان يشترط ذلك موافقة موسكو وكانت موسكو تتصرف قبل ذلك بالمحاصيل تنقلها من جمهورية إلى جمهورية بالسعر الذي تحدده.

ونعود إلى الحديث عن بخارى فنكرر ماذكرناه من ان عدد سكانها يبلغ الآن ٢٨٠ ألف نسمة ونذكر مالم نكرره وهي ان بخارى مدينة عريقة حتى

يقال ان تاريخها يصل إلى الفى سنة قبل الإسلام.

وكانت قبل ذلك اكثر سكاناً مما هي عليه الآن فعلى سبيل المثال ولمناسبة الحديث عن المدارس كان في بخارى ١١٣ مدرسة والآن ليس فيها الا ٣٣ مدرسة فقط.

وبعد الغداء الهني ذهبنا إلى مسجد في المدرسة وهو صغير نسبياً خاص بالطلبة الذين يقيمون داخل المدرسة رغم قربها من الجامع الكبير.



داخل مسجد مدرسة مير عرب بجانبي الاستاذ أيمن حبيب

وعندما دخلناه شعرنا ببرودة داخله رغم كونه غير مكيف ولكن طريقة بنائه بالآجر الذي بنبت منه مدرسة (مير عرب) كلها وكونه ذا قبة عالية جعل الجو داخله أكثر لطفاً من الجو في المدرسة الذي كان شديد الحر مثل ماكان عليه الجو في (خوارزم) أمس.

وقد أدينا الصلاة فيه مع عدد من الاخوة الموظفين في المدرسة والقيت في المسجد كلمة بالعربية لم يترجمها أحد لأن القوم من مدرسين وطلاب كلهم يعرف العربية.

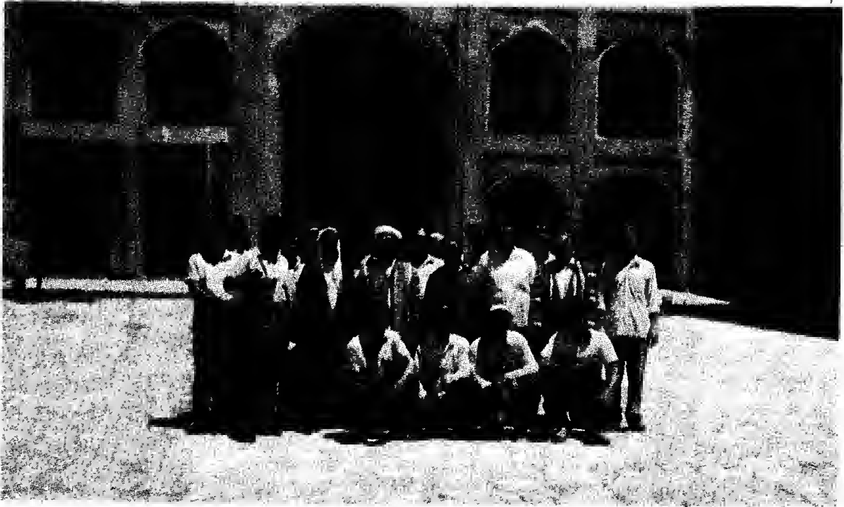
وقد اعلنت فيها تقديم خمسة الاف دولار تبرعاً فورياً من الرابطة للاسهام في ترميم هذا الجامع مع استعداد الرابطة للنظر في تقديم تبرع اكبر بعد ذلك.

ويبلغ عدد الطلاب في مدرسة (مير عرب) الآن حوالي (٩٠) طالباً وكان العدد طيلة السنوات الماضية لم يزد على ٣٠ طالباً لأن الزيادة تتطلب قراراً من الحكومة في موسكو وهي لا توافق على ذلك.

هذا مع أنه لايوجد في الاتحاد السوفيتي في السنوات الماضية غير هذه المدرسة الا معهد الإمام البخاري الذي يضم ٥٢ طالباً.

فكيف يكفى هذا العدد الضئيل من الطلبة الذي لم يكن يتجاوز المائة لخدمة ٥٠ مليونا من المسلمين في الاتحاد السوفيتي؟

على ان الأمر اختلف الآن مابين زيارتنا الأولى لهذه المنطقة وزيارتنا الحالية فجرى السماح ببناء فصول دراسية في المساجد الجديدة كما بنى معهد كبير في دوشنبه عاصمة جمهورية تاجيكستان.

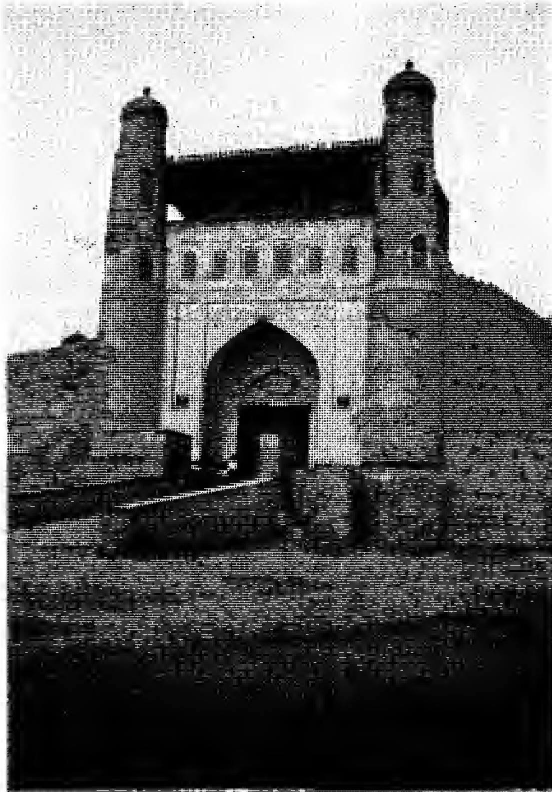


صورة تذكارية مع طلبة من مدرسة مير عرب في صحن المدرسة

واخذ الناس وبخاصة من الشبان والأطفال يقبلون على دراسة الدين الإسلامي ولله الحمد.

قلعة آرك :

وقد تسمى قلعة الأمراء وهي قلعة حصينة كبيرة تقع في مكان مرتفع وكان يسكنها حاكم المنطقة مع وزرائه وقواده وقضاته ووجهاء دولته وهي مثل من الأمثال على ماهو موجود في هذه المنطقة ومعروف عنها منذ القديم من وجود أمثال هذه القلاع التي لايكون المعنى دقيقاً إذا قلنا انها قلعة وإنما هي مدينة للسلطان واعوانه ليكون منعزلاً عن العامة في السكن متحصناً عن البغاة والمعتدين.



وكان أسلافنا العرب يسمون مثل هذه القلعة باسمها الأعجمي (قهندز) لأنهم لم يكونوا يعرفون مرادفاً له بالعربية ومنهم — على سبيل المثال — ياقوت الحموي الذي نقل قبل ثمانمائة سنة عن صاحب كتاب الصور قوله في بخارى: انك إذا علوت قهندزها لم يقع بصرك في جميع النواحي إلا على خضرة متصلة خضرتها بخضرة السماء فكأن السماء بها مكبة خضراء مكبوبة على بساط أخضر.

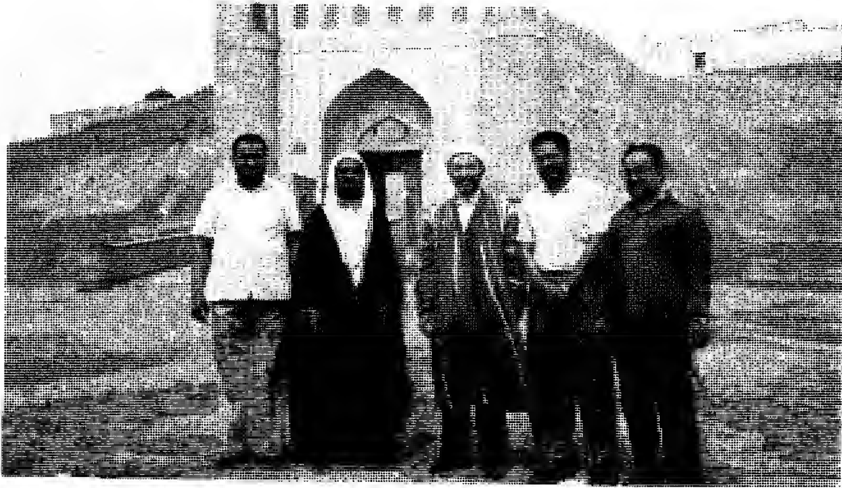
وقال ياقوت نفسه: ولها (قهندز) خارج المدينة متصل بها مقداره مدينة صغيرة وفيه قلعة بها مسكن ولاة خراسان من آل سامان وكان.عدد سكان هذه القلعة يبلغ ثلاثة الآف نسمة وفيها عدة مساجد والآن لايستعمل منها الا مسجد واحد.

وكان آخر من سكنها من الملوك والأمراء الأمير عالم خان بن عبد الأحد.

وتستعمل في الوقت الحاضر متحفاً و يأتي إليها الزوار لمشاهدتها هي ولرؤية ماتحتويه من المعروضات.

وبناؤها الخارجي رث ماعدا بوابتها العالية فأما سورها فإنه على طراز قديم أعلاه داخل اكثر بكثير من أسفله فيخيل إليك إذا نظرت إليه أنه مائل وهو بالفعل مائل إلى الداخل ابتغاء للقوة له.

ولم يكن الوقت يسعفنا بالدخول إليها والتجول في أنحائها ولكنني اكتفيت بما رأيته في مثيلتها أمس في مدينة خيوه في خوارزم فاكتفينا برؤية مدخلها والتقاط صور عندها.



صورة تذكارية مع الشيخ مختار عبدالله أمام بوابة قلعة آرك في بخارى على يمينه المؤلف فالاستاذ حاتم قاضي وعلى يساره الاستاذ أيمن حبيب فالأستاذ رحمة الله بن عناية الله

وأمام هذه القلعة (أو القهندز) ميدان واسع ذكروا أنه كان يستعمل ساحة للأعمال التي يريد الأمراء ان ترى وتشتهر ومن ذلك قتل المجرمين وقطع ايدي السارقين وتأديب المخالفين فكان ذلك يتم أمام أعين الجماهير التي تأتي لمشاهدته فهي هنا مثل ميدان الصفاة في الرياض التي اعتاد الناس على ان يروا الأحكام الشرعية في القصاص تنفذ فيه بالقتلة والمجرمين.

وتقابل هذه القلعة في جانب الميدان الكبير مدرسة الطب التي تقع في مبنى أثرى ذي هندسة إسلامية جميلة.

ضريح السامانيين :

واصلنا الجولة في مدينة (بخارى) العريقة فكانت الفقرة التالية من البرنامج زيارة (ضريح السامانيين) هكذا يسمونه مع انه في الحقيقة هو قبر الأمير الساماني اسماعيل بن أحمد الساماني المشهور الذي كان أميراً على بخارى وماحولها من تلك المنطقة.



ضريـــــــــح السامانيــــــــــن

ذكروا ان هذا البناء الذي على القبر قد مضى عليه الآن قرابة الف سنة وأنه مبنى تاريخي نوهت به (اليونسكو) التابعة للأمم المتحدة وعدته من الآثار التاريخية العالمية وهو بناء غير مرتفع مبنى بالآجر المعقود وكان قبل ذلك مزخرفاً من الخارج الا ان طلاءه الخارجي قد ذهب وبقى البناء بالآجر باقياً على الدهر.

وقد نوهوا بأن هذا البناء كان قبل وصول جنكيز خان وقومه المغول إلى بخارى وتخريبهم المدينة وان هذا البناء قد سلم منهم فلم يخرب ربما كان ذلك لكونه على قبر وانهم لا يهتمون الا بتخريب الأشياء التي تتعلق بحياة الناس ومعلوم أن اسماعيل الساماني مات عام ٢٩٥هجرية.

وقد رأينا نوعاً من الملح قد تسرب إلى اسافله فذكروا لنا أنه يشكل خطراً على هذا المبنى الأثرى وانه لم يكن موجوداً إلا في العصر الحديث حيث شقت قناة غير بعيدة منه فصار الماء بتسرب من خلال الأرض إليه ويركبه هذا الملح وهم الآن يعالجون لحمايته منه.

ومن الطريف في أمر هذا الضريح ـ إن كان في الموت طريف ـ ان اسماعيل الساماني قد بناه ليدفن فيه قبل موته وانه ـ فيما ذكروا ذبح عجلاً وامر بتوزيع لحمه على عدة أماكن فيَ بخارى ليختار أصلحها هواء ففسد اللحم في مدة معينة الا ماكان منه في هذا المكان فبنى ضريحه فيه، واوصى ان يكون مدفنه.

ومن النواقص فيه انهم لم يذكروا على الضريح تاريخاً مكتوباً لوفاة الرجل ولا أعماله ولا حتى العام الذي تم فيه البناء قال الاخوة ان الروس لايريدون ان يذكروا البخاريين بأمجادهم الإسلامية العريقة.

بئر أيوب :

وهي بئر تحت الأرض ينزل إليها بدرج قصير ثم يدلى إليها بدلو ليؤخذ منها الماء ولأهل المدينة فيها اعتقاد عجيب واعجاب واسع حتى قال لي

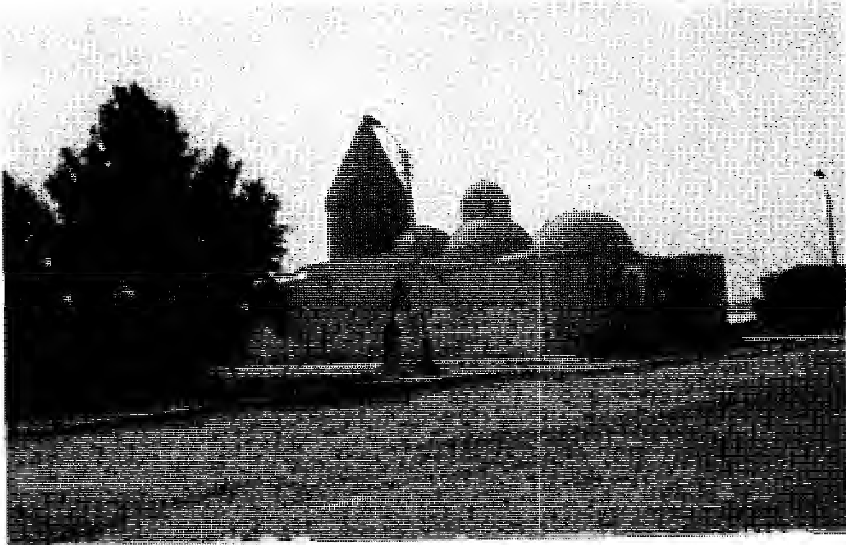
الإخوة المرافقون ان الناس هنا يعتقدون انها دواء لكل داء، وقال أحدهم : إن ماء بئر ايوب ينفع لأي شيء يشربه الناس من أجله.

فقلت لهم: كأنهم يضاهئون بذلك ماء بئر زمزم الذي ينفع لما شرب له كما في الأثر «ماء زمزم لما شرب له».

وعمق البئر ستة أمتار وجدنا عنده رجلاً وامرأة مكلفين به يخرجان الماء منه و يسقيان الناس، و بعضهم يرش منه على ثيابه او بدنه.

وقد اختلفوا في (أيوب) الذي نسب هذا البئر إليه فقال بعضهم انه النبي ايوب الصابر عليه السلام وهذا هو كلام العامة والمتمعلمين وأهل التحقيق يذكرون ان الصواب أنه طبيب إسمه ايوب كان يعالج الناس بهذا الماء مع أدو ية أخرى ولكنه كان ينسب الفعل للماء وقال أخرون انه ايوب السختياني من أهل الحديث.

وعلى هذه البئر قبة أثر ية ظاهرة وليس بقربه بناء بل هو واقع في ميدان واسع يرى من اكثر جهاته.



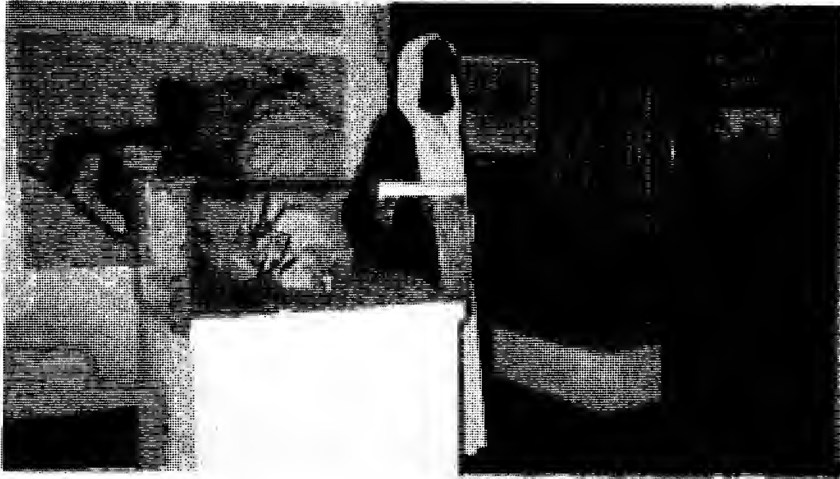
المبنى على بئر أيوب من الخارج

وقد اشغلوا الساحة الصغيرة داخل هذا البئر برسوم ايضاحية واحصاءات لحالة السقيا بالمياه في مدينة بخارى في القديم فذكروا أن بعض الجهات كان يجلب الماء إليها بأنابيب من الفخار تشبه انابيب الحديد الحالية الا أنها أوسع منها وان الماء الذي يجلب بها يأتي من الوادي عندما يسيل بالسيل فيخزن في برك تحت الأرض وتستعمل طول السنة.

وأشاروا الى أن البرك والصهاريج هنا كثيرة واسعة حتى ان بعضها بلغ مبلغاً كبيرا من السعة وانه كان في مدينة بخاري وضواحيها ١١٤ حوضا او بركة من البرك التي تخزن فيها المياه.

كما نوهوا بأن الحمامات أيضاً كانت تجلب اليها المياه من بعيد وأنه كان في بخارى ١٧ حماماً في العهود المتأخرة اما في العصور القديمة فهى اكثر من ذلك بكثير وقد أبرزوا أهمية المياه في هذه البلاد التي تعتبر صحراوية لولا وجود نهر جيحون وأنهار او ينابيع صغيرة للمياه تتكون من ذوب الثلوج فصوروا قافلة من الإبل كانت تحمل المياه وتجلبها إلى الأماكن التي لا تصل إليها مياه النهر إذا قل الماء في البرك والصهاريج.

وقد التقطت صوراً لها.



وسائل إيضاح جلب الماء في القديم في مبنى بئر أيوب في بخارى

وعلى ذكر الإبل اقول: ان ابلهم هي من ذوات السنام الواحد مثل الابل عندنا إلا أن شكلها يشبه اشكال الابل ذات السنامين التي رأيتها في الصين وفي تركستان الشرقية وذكرت ذلك في كتابي (داخل أسوار الصين) (وفي مهد الترك).

فهي اكثر اوباراً من ابلنا واقصر قوائم بمعنى أنها اقل ارتفاعاً على الأرض وهذا أمر عللته في ذهني بشدة البرودة في الشتاء.

وحتى القرب — جمع قربة — وهي التي ينقل بها الماء هي تشبه القرب التي كانت معروفة عندنا.

وكذلك وجدناهم عرضوا جراراً فخارية كبيرة كانوا يضعون فيها الماء، ويدفنونها تحت الأرض في الصيف ليبرد فيها الماء، وذكرت هنا ما رأيته في تركستان الشرقية المعروفة الآن بسنكيانغ وكونهم يحفظون الفاكهة كالبطيخ ونحوه تحت الأرض فيبقى الى الموسم الآخر بدون ان يفسد.

وقد تذوقت ماء البئر فوجدته غير خالص العذوبة وقالت المرأة التي تجذب الماء في البئر تمن أية أمنية لك عند ماتريد شرب الماء وسوف تتحقق.

وكاد بعض الرفقة يمزح معها لولا ان الموضع لايسمح بالمزح فيقول: أتمنى ان اتزوجك ليرى أثر ذلك عليها.

وقبل الإنتهاء من حديث الماء ينبغي ان ننوه ان نهر (زرفشان) كان يصل إلى بخارى في القديم ولكنه انقطع الآن قالوا: أهل سمرقند قطعوه.

ولاشك ان هذا ليس بالدقيق — فقد شاهدت مياهه ضحلة في سمرقند وإنما كان سبب انقطاعه كثرة استنزافه في الزراعة قبل ان يصل إلى بخارى.

وقد شقوا الآن قناة كبيرة من نهر جيحون (امودار يا) إلى منطقة بخارى من مسافة تبلغ ١٢٠ كيلو متراً.

وبعد ذلك تجولنا في حديقة واسعة كلها أشجار ظليلة كأنما البلدة على نهر من الأنهار ثم مررنا بالفندق والتقطنا صوراً تذكارية مع المرافقين عند بابه وأذكر أنني عندما مانزلت من المصعد نزلت معي امرأتان من العاملات في الفندق فاشارت احداهما إلى غترتي وهى البيضاء على رأسي وقالت: هذه لباس المرأة (خاتون) عندنا فلم تلبسها؟ تقول ذلك كالمنكرة للبسها على الرجال.

وقد أفهمها احدالرفاق أن النساء لايلبسنها في بلادنا وإنما يلبسها الرجال خلاف ماهو هنا.

ضواحي بخارى :

كتب طلبت من الاخوة واضعي البرنامج ان أرى ريف بخارى وضاحية من ضواحيها من أجل الاطلاع عليها كما اطلعت أمس على ريف خوارزم حيث سافرنا من اوركنج إلى خيوه التاريخية ثم انتقلنا بعد ذلك إلى جمهورية تركمانستان وقد ذكرت ذلك في كتاب «يوميات في آسيا الوسطى».

استجاب القوم لرغبتنا وذكروا ان ذلك سيكون خلال زيارة للمنطقة التي فيها مسجد بهاء الدين النقشبندي.

تركنا وسط مدينة بخارى الجيد إلى ضواحيها التي ليس في جوانب شوارعها أرصفة وإنما هي مساحات صغيرة استغلوها للزراعة وخاصة في غرس الفاكهة فترى أشجار العنب والتوت والمشمش مثمرة في المنطقة التي يكون فيها رصيف في العادة اي فيما بين البيوت وبين الشارع.

وبعضهم زرعوها بالخضروات كخضروات البطيخ وذلك اغتناماً منهم

لـلأرض لأن الحكومة الشيوعية لاتعطي من الأرض للناس الا مقادير ضيقة، واما الباقي فإنه لها.

إضافة إلى قلة ذات اليد مما جعل سكان البيوت يستفيدون من زراعة تلك الأماكن الواقعة أمام بيوتهم.

وهذا أيضاً ماكنت رأيته في خوارزم بصفة تكاد تكون عامة لجميع بلدانها واما في ضواحي مدينة طشقند فإنه موجود في بعض الأماكن من ضواحيها وأمام البيوت السكنية في اريافها القريبة.

والشوارع التي مررنا بها في ضواحي بخارى جيدة يتألف الطريق الرئيسي الذي سلكناه من مسار للذاهب وآخر للآيب بينهما جزيرة فيها حشائش غير معتنى بها. وانما فيها شجر من أشجار الظل.



الطريق في ريف بخـــــارى

والظل مطلوب لأنها حارة في الصيف بل شديدة الحرارة واظن الحرارة هذا اليوم لاتقل في الظهر عن ٤٠درجة مع انه ليس أحر أيام الفصل واننا

لانزال في اول فصل الصيف ولذلك رأينا الأطفال في الشوارع بالسروال القصير وحده من اجل شدة الحر.

والسيارات التي تسير في هذا الطريق قليلة واكثرها سيارات نقل.

قصر العارفين :

وصلنا منطقة تسمى (قصرى عارفان) اي قصر العارفين وكانت تسمى قبل ذلك (قصر هندوان) فغير اسمها بسبب وجود قبر الشيخ بهاء النقشبندي فيها. و يسمونه النقشبندى البخاري ومعنى النقشبندي: صانع النقش او النقاش، لأن بند عمل ونقش هى كلمة النقش بالعربية قيل سمي بذلك لأنه كان ينقش الأقمشة ولكن بعد أن اشتهر صلاحه وعرف بتصوفه ذكروا انه ينقش القلوب بالمعرفة التي هي عند الصوفية معرفة الانسان بربه ومحبته له و يراد من ذلك ترك العوائق الدنيوية والانقطاع إلى الله تعالى.

وقفنا عند باب المنطقة التي فيها مسجد النقشبندي التي تسمى (قصر عارفان) اي قصر العارفين بالفارسية لأن بخارى كانت ولاتزال ميدانا للغة الفارسية فهي الآن احدى اللغات الرئيسية التي يتكلم بها أهل بخارى بخلاف بقية آسيا الوسطى التي تتكلم لهجات متفرعة من اللغة التركية القديمة أما أهل تاجيكستان فيتكلمون الفارسية لغة وحيدة لهم.

وجدنا في المكان الشيخ عبد الغفور بن عبدالرزاق امام جامع النقشبندي وهو متخرج من مدرسة (مير عرب) في بخارى ومثقف ثقافة دينية واسعة و يعرف العربية جيداً.

ووجدنا المسجد أشبه بالمركز و يسمون ذلك كله خانقاه والمسجد وحده (خانقاه مسجد)والخانقاه أشبه بالوحدة السكنية ففيه ٤٠ غرفة مخصصة لسكن طلبة العلم واعاشتهم لكى يتفرغوا للطلب. وكان الامراء والأثرياء ينشؤن هذه الخانقات و يوقفون عليها الأوقاف التي تدر عليها الريع الذي يكفي لعمارتها وكفاية المقيمين بها من طلبة العلم.

وكان الشيوعيون قد صادروه حيث خرب المسجد او كاد وبخاصة قبته التي تبدو من الداخل عالية جداً محكمة في عقود من الفخار كلما ارتفعت ضاقت يشد بعضها بعضاً من دون أي شيء آخر من حديد او غيره كما كان ذلك طراز البناء عندهم في العهد الإسلامي الزاهر. وقد تأثرت من زلزال أصاب المنطقة فهم يرممونها الآن.

وجدنا في المنطقة جماعة كثيرة من الرجال والنساء أغلبهم من كبار السن جاؤا لزيارة النقشبندي.

وبعضهم كنا رأيناهم أمس في مسجد في مدينة خيوه وكنت خطبت فيهم فعرفوني وعرفتهم.

ذكروا ان بناء المسجد والخانقاه في عهد الأمير عبدالله الشيباني.

وبجانبه منارة المسجد وهي منفصلة عنه على عادتهم في بناء مآذن المساجد منفصلة عنها وهي جميلة على الطراز الذي عليه (منارة كالان) بجانب الجامع الكبير في بخارى ولم تتأثر من الزلزال.

قبر النقشبندي :

ليس في الجامع ولا الخانقاه قبر وإنما قبر النقشبندي في مكان منفصل عنه تفصله مسافة ليست قليلة وان كانت تضم الجميع منطقة واحدة الا انها عدة أماكن من ابنية مكشوفة فيها الأشجار الباسقة وفيها عدة أشياء مهمة مثل بركة للماء ومكان لماء الشرب وصحون مفروشة بالرخام من الحجارة المهذبة أو من الآجر المرصوف بعناية واحكام.

وفيه أيضاً القبر ليس عليه بناء وإنما يرتفع عن الأرض بحوالي المتر أو نحوه وهو منفصل عن جميع الأشياء الموجودة في المنطقة وقد اخبرونا انه كان عليه بناء ولكنه هدم كله ولم يبق منه الا حوالي المتر والربع وقد قيل لنا ان هناك فكرة لاعادة البناء على القبر فأشرت على الشيخ عبدالغفور أن يقاوم

ذلك والا يتحمل امام الله وزر هذه البدعة المنهى عنها وهى البناء على القبور فذكر انه يعرف ذلك.

وقد كتبت قرب القبر لوحة حديثة بالعربية منها: هذا قبر محمد بهاء الدين النقشبندي البخاري ولد في شهر محرم عام ٧١٨للهجرة في قرية (قصر عارفان) نسبه إلى جعفر الصادق له مؤلفات (حياة نامه) و(دليل العاشقين) شعر بالفارسية ووفاته لسنة ٧٩١هجرية.

وقد كتبت هذه اللوحة في عام ١٣٩٠هـ ومما جاء فيها بخط الشيخ عبدالغفور عبدالرازق قوله: إنه لايجوز سؤال الشيخ النقشبندي ولا غيره شيئاً من الحاجات ولايجوز سؤال ذلك الا من الله سبحانه وتعالى وانما ينبغي زيارة القبور للعظة والاعتبار وتذكر ما كان عليه العلماء والعارفون بالله تعالى للاقتداء بافعالهم بالخير مع علم توجه القلب بالدعاء او الرجاء لغير الله تعالى. وقد شكرته على ذلك الذي كتبه بعدة لغات ودعوت له بالتوفيق.



نساء بخاريات في منطقة قصر العارفين

مسجد عبدالحكيم :

في هذه المنطقة الزاخرة بالمساجد رأينا مسجداً صغيراً ولكنه فاخر البناء مرتفع السقف اسمه (مسجد عبدالحكيم قش) بني قبل ٣٠٠ سنه فيما قالوا.

وقد رأينا قطعا قليلة من السقف منقوشة بالذهب الذي ذهب اكثره وبقى مانقش على بعض الخشب منه.

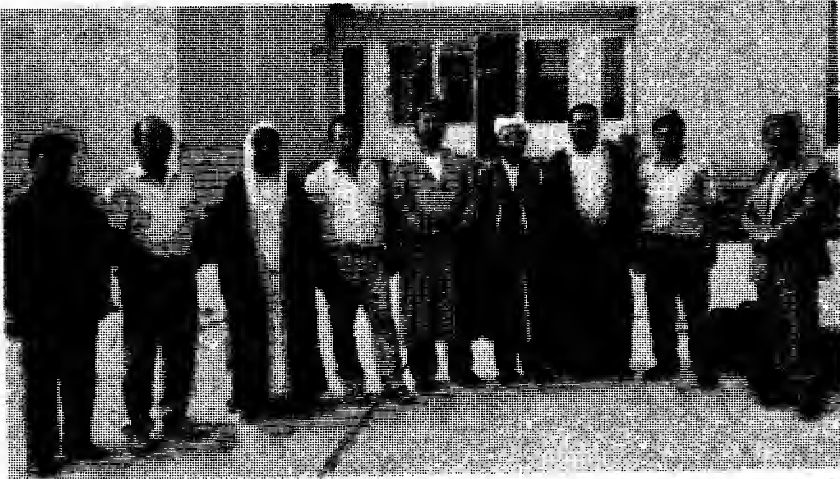
وهو يقع منفصلاً عن القبر فيما بينه وبين مسجد الخانقاه تفصل بينهما مساحة من الفراغ غير المسقوف.

ذكروا ان بانيه عبدالحكيم كان وزيراً لأمير بخارى في عهده.

مغادرة بخارى :

اسرعنا الذهاب إلى مطار بخارى لأن موعد مغادرتها إلى طشقند عاصمة جمهورية اوزبكستان قد أزف.

فوجدنا حاكم بخارى الذي كان قد استقبلنا عند الطائرة في القدوم



وفد الرابطة مع حاكم بخارى عبدالله ناصروف وهو الثالث من اليسار على يمينه المؤلف وعلى يساره المفتي الشيخ محمد صادق، عند توديعه الوفد في مطار بخاري

وهو (عبيد الله ناصروف) اي عبيد الله بن ناصر لان (اوف) في آخر الاسم تعنى (ابن) باللغة الروسية حضر للمطار لتوديعنا جزاه الله خيراً ومعه بعض الموظفين.

فانتظرنا مليا في المطار ثم حان موعد الدخول إلى الطائرة فودعنا الحاكم عند سلم الطائرة وقد منعوا الركاب كعادتهم قبل أن نركب ونجلس في الطائرة ثم أذنوا لبقية الركاب بالصعود.

وقد غادرنا بخارى إلى طشقند في الساعة السابعة عند الغروب والحديث عن الوصول إلى طشقند ومابعدها في تلك المنطقة في كتاب «يوميات آسيا الوسطى» والله الموفق.

(خاتمة عن بلاد ما وراء النهر[1])

عُرِفَتْ (بخارى وما وراء النهر) في العصور الحديثة ببلاد «التركستان.» وتركستان: اسم مركب من كلمتين، الأولى كلمة «ترك» وهو اسم عام لشعوب واقوام العنصر التركي الذي مهده الاصلى هو وسط آسيا منذ القدم، والثانية (ستان) وهى كلمة فارسية معناها ارض أو بلاد وبهذا يكون معنى (تركستان) بلاد «الترك» ويجرى على نسقها في التركيب والمعنى (توران) وقد استعمل القدماء هذا الاسم جغرافيا ومصطلحاً سياسيا، وغلب استعمال اسم تركستان عبر عصور التاريخ بوجه خاص في الدلالة على آسيا الوسطى التي تقطنها القبائل التركية ذات المنشأ والاصل الواحد التي تجد في هذا الاسم معنى قومياً يربطها بماضيها التاريخي والوطني الذي جمع ووحد قبائل الترك كلها تحت راية واحدة في دولة (كوك تورك) التي اطلقت على جميع الاقوام التي تنتمي إلى عنصر واحد ولغة واحدة اسم (ترك).

هذا الاسم القومي الذي يحمل في طياته معنى الاتحاد والكيان السياسي والبعد التاريخي لجميع قبائل او شعوب تركستان كان ولايزال مجال صراع طويل بين الصين وروسيا اللتين تحاربانه وتحظران استعماله على الوطنيين التركستانيين الذين يصرون على الالتزام والتمسك به لأنه رمز على وحدة الشعب التركستاني المسلم الذي قطعت اوصاله سياسة التفريق والتمزيق التي مارسها الروس والصينيون.

فالصين التي فيها الجزء الشرقي منها المعروف (بتركستان الشرقية) ومساحتها ٧٣٤٧٥٠ كم٢ الغت في عام ١٨٨٤م استعمال اسم تركستان الشرقية واسمتها سنكيانغ أو شنجانغ ومعناها الأرض المكتسبة الجديدة وتسميها حالياً الصين الشعبية «مقاطعة او يغور ــ شنجانغ الذاتية الحكم».

---

(١) أسهم في إعداد هذه الدراسة الاستاذ/ رحمة الله بن عناية الله (سكرتير) وفدنا إلى الاتحاد السوفيتي فله الشكر.

أما الاتحاد السوفياتي الذي فيه جزءها الغربي المعروف بتركستان الغربية ومساحتها ٤٠٠ ٣٩٩٣ كم² وتمثل خمس مساحة الاتحاد السوفيتي الكلية فقد الغى استعمال اسم تركستان عام ١٩٢٤م وقسم البلاد الى خمس جمهوريات قبلية هي :

١ ــ جمهورية اوزبكستان وعاصمتها طشقند ومساحتها ٤٤٩٫٦٠٠ كم² وسكانها ١٧٫٩٧٤٫٠٠٠ نسمة في عام ١٩٨٥م وتتبعها جمهورية قره قلباقستان الذاتية الحكم وعاصمتها ناخوس.
٢ ــ جمهورية تركمانستان وعاصمتها عشق آباد ومساحتها ٤٨٨٫١٠٠ كم² وسكانها ٣٫١٨٩٠٠٠ نسمة في عام ١٩٨٥م.
٣ ــ جمهورية تاجيكستان وعاصمتها دوشنبه ومساحتها ١٤٣٫٠٠٠ كم² وسكانها ٤٫٤٩٩٫٠٠٠ نسمة في عام ١٩٨٥م.
٤ ــ جمهورية قازاقستان وعاصمتها الما أتا ومساحتها ٢٫٧٥٣٫٨٠٠ كم² وسكانها ١٥٫٨٤٢٫٠٠٠ نسمة في عام ١٩٨٥م.
٥ ــ جمهورية قيرغيزستان وعاصمتها فرونزه واسمها الاصلى بش بك ومساحتها ١٩٨٫٥٠٠ كم² وسكانها ٣٫٩٦٧٫٠٠٠ نسمة في عام ١٩٨٥م.

وقد اطلق العرب الفاتحون اسم «ماوراء النهر» على اراضي تركستان التي تقع شمال نهر جيحون وهو النهر الذي يعرف حالياً باسم امودار يا وكان اقليم الصغد وهو صغد بانا القديمة دُرَّةَ هذه الأراضي التي كانت تعد احدى جنان الدنيا الاربع في خصب و يسار وقد تنافست سمرقند وبخارى على ريادته وقيادته فامتازت الأولى بالزعامة السياسية وحظيت الثانية بالمكانة الدينية، وكانت لها الشهرة في ذلك، كيف لا؟ وهى البلاد التي انجبت إمام الحديث الشريف ابي عبدالله محمد بن اسماعيل البخاري (١٩٤ــ٢٥٦هـ) صاحب الجامع الصحيح الذي يعد اوثق الكتب واصحها بعد كتاب الله عز وجل، وغطت شهرتها على كلمة تركستان التي تفاخر

ابناؤها بالانتساب إلى بخارى، فهم البخاريون وهم التركستانيون، وعرفت تركستان الغربية ببلاد بخارى، كما عرفت تركستان الشرقية باسم بخارى الصغرى، وهكذا اصبحت معروفة ايضاً في آسيا واوروبا.

تركستان الغربية وجغرافيتها :

تركستان الغربية بلاد شبه صحراوية تغطي معظم أنحائها سهول رملية يمتاز مناخها بقلة المطر حيث يقل سقوطه عن ١٠ درجات في المتوسط والصيف شديد الحرارة والشتاء شديد البرودة وتهب عليها الرياح الشمالية الباردة والعواصف الثلجية وتعتمد في الحصول على المياه من ذوبان الثلوج على الجبال الواقعة على حافتها الشرقية.

ويجرى نهرا اموداريا وسرداريا من الجبال إلى واديين خصبين تفصل بينهما جبال آلاى ثم يعبران صحراء قيزيل وهما في طريقهما إلى بحر أرال ويتميز سطح بلاد بخارى بالآتي:

(أ) الصحارى واهمها هى صحراء بتباك دالا بين نهر سارى سو وبحيرة بلخاش ومساحتها ١٨٠٫٠٠٠ كم٢ وصحراء قراقوم ومساحتها ٣٥٠٫٠٠٠ كم٢ وصحراء قيزيل قوم ومساحتها ٣٠٠٫٠٠٠ كم٢ وصحراء مرزا جول ومساحتها ١٠٫٠٠٠ كم٢.

(ب) الجبال وأهمها سلسلة الجبال التي تمتد على حدود تركستان الغربية وهي:
جبال موغوزجارى في الشمال والتاى في الشرق وآلاى وبامير وكويت داغ في الجنوب والشرق وكذلك جبال تنفرى قاغ (تيان شان) وفيها اعلى قمتين يصل ارتفاعها إلى ٧٤٩٥ مترا و٧١٣٤مترا.

(جـ) البحيرات : وتوجد اكثر من ٢٥٫٠٠٠ بحيرة ولكن أهمها هو: بحر قزوين ومساحته ٤٠٦٫٧٠٠ كم٢ وبحيرة ارال ومساحتها ٦٦٫٤٥٨ كم٢ وبحيرة ملخاش ومساحتها ١٧٫٦٦٠ كم٢ وايسبق كول ومساحتها ٥٫٨٩٥ كم٢.

(د) الوديان: تشتهر تركستان الغربية بالوديان و يوجد فيها اكثر من ٣٠ وادياً هاماً واكثرها شهرة: وادي فرغانة الذي مساحته ٨٠٠٠٠٠ر٨٠ كم[٢] و يرتفع عن مستوى سطح البحر بمعدل ٩٠٠ متر و ينتج ثلث قطن الاتحاد السوفيتي و٣٥٪ من الحرير فيه وهو بمثابة الحديقة المركزية لتركستان.

(هـ) الانهار: فيها عدد من الانهار والوديان كبيرة ولكن ثمانية منها يزيد طول كل منها عن الف كيلو متر وهي نهر اورال ١٠٦١ركم ونهر توبول ١٢٠٠ر١ كم ونهرا يشيم ٢٠٠ر٢كم وايرتيش ١٨٠٠ر١ كم ونهر جو ١٠٣٠كم ونهر ايلى ١٢٨٠كم ونهر سرداريا ٥٢٩ر٢كم وهو نهر سيحون ونهر امو داريا ٤٨٠ر٢كم وهو نهر جيحون.

تركستان الغربية وثراؤها :

عرفت بلاد تركستان الغربية منذ القدم بثرواتها المعدنية والصناعية والزراعية والحيوانية، فمثلا غزو الصين لبلاد فرغانه عام ١٠١ق.م كان طمعا في الحصول على خيولها الجياد التي عرفت لديهم بالخيول السماوية وتذكر كتب الجغرافيا العربية من غلاتها اللازورد والياقوت والفيروز والذهب والفضة والحديد والنحاس والنفط والنوشادر، والفراء بأنواعها واجودها مثل فراء السمور والفنك وابن عرس والثعالب وجلود الارانب والسناجب.

أما حاصلات اقليم بخارى وما وراء النهر فكانت عديدة ومتنوعة حيث يصدر منها البسط والثياب الرخوة والفرش التي كانت تفرش في حجرات الضيوف.

واكثر ما اشتهرت به سمرقند الكاغد و يعمل فيها ثياب خز وديباج وقز مطرزة بخيوط من الذهب والفضة وتعرف بالاطلس السمرقندى واقمشة ممرجل.

وكان الصفارون يصنعون القدور العظيمة من النحاس وغيرهم يعملون

الرحال والسيور واحزمة السرج وكذلك اصناف القماقم والقناني وغير ذلك من الغلات الارضية والامتعة المصنعة التي تعكس غناء وثراء تركستان الغربية.

ولاتزال تركستان الغربية تحتل موقعامها في اقتصاديات الاتحاد السوفياتي.

وتؤلف الركن الاساسي في صناعات الحديد والصلب والمعادن والفحم والغاز الطبيعي والبترولي وبالاخص في صناعة الاجهزة الالكترونية والطائرات المتطورة وبعض انواع الاسلحة الحديثة، كما تزدهر فيها صناعات النسيج والأغذية والمواد الاستهلاكية.

وعلى العموم فان تركستان الغربية تعتبر السلة الغذائية والاقتصادية في الاتحاد السوفيتي مما يجعلها تحتل المرتبة الثانية في مراتب الدول الصناعية في آسيا وهذا لايعني ان الشعب التركستاني اصبح شعباً صناعياً اذ ان نسبة العمال الفنيين والصناعيين من التركستانيين هى نسبة قليلة، فالسكان المحليون لايزالون يمارسون الزراعة وتربية المواشي في الدرجة الأولى وانما يقوم بجزء كبير من ذلك العمال المهجرون من روسيا واكرانيا.

ويقدر انتاج الفحم الذي يوجد في ٥٠ موقعاً بحوالي ٤٥٪ من انتاج الاتحاد السوفيتي وقد وصل إنتاجه في قازقستان وحدها ١١٨٫٥ مليون طن عام ١٩٨٢م كما يوجد النفط في ٨٠ حقلاً واهمها حقول امبا ــ اورال التي تسمى باكو الثانية لغزارة الانتاج وحقول نفط داغ وانديجان وآق توبا ومانقى شيلاق ويقول السوفيت أن مخزون النفط في ما نقى شيلاق يعادل مساحة فنزويلا.

كما يعتقد الخبراء بأن حقول النفط في منطقة نفط داغ هى من أكبر حقول النفط في العالم وقد بلغ انتاج الزيت الخام ١٩٫٣ مليون طن في قازاقستان وحدها عام ١٩٨٢ وغاز تركستان الغربية يقدر بنصف مخزون غاز

الاتحاد السوفيتي و ينتج حقل غازي قرب مدينة بخارى حوالي ١٢ر٨٪ من غاز الاتحاد السوفيتي سنوياً و يستخرج خام الحديد من ٩٠٠ منجم و يصل مخزون خام الحديد والمانجنيز إلى ٨٢٪ من كامل مخزونها في الاتحاد السوفيتي.

وتعتبر منطقة قاغاندا في قازاقستان من اهم مناطق انتاج الحديد والصلب في الاتحاد السوفيتي اذ تصل طاقة انتاج كل منها إلى حوالي ٥ر٤مليون طن. وبالاضافة إلى ذلك يوجد النحاس والرصاص والزنك واليورانيوم والنيكل وغير ذلك من المعادن التي لايتسع المجال لسرد انتاجها ومناطقها في هذه العجالة.

أما الانتاج الزراعي فانه ليس اقل شأناً من المعادن، اذ بلغت مساحة الاراضي الزراعية ٢٦٥ مليون هكتار عام ١٩٧٧، يستخدم ٤٢ر٢٠١ر٠٠٠ هكتار لزراعة الحبوب التي بلغ في قازاقستان محصولها ٣٤مليون طن عام ١٩٨٢م، كما وصل محصول القطن إلى ٩ر٣مليون طن في اوزبكستان عام ١٩٨٢م بما يقدر بحوالي ٩٥٪ من قطن الاتحاد السوفيتي كما تنتج كامل محصول الاتحاد السوفيتي من الحرير.

وتقدر الثروة الحيوانية بحوالي ١٦ر٧٨٩ر٥٠٠ ماشية و٦٢ر٨١٠ر٠٠٠ غنم عام ١٩٨٣م وتبلغ مساحة المراعي التي تملكها مزارع الدولة بحوالي ٢٢٦ر٣ مليون هكتار والتي تمتلكها المزارع التعاونية بحوالي ٣٩ر٢ مليون هكتار.

تركستان في الإسلام :

لقد كانت معركة «نهاوند» التي عرفت بفتح الفتوح بعد انتصار العرب المسلمين عام ٢١هـ بحق نصرا للاسلام اذ تقدم جنده يحملون راية التوحيد نحو الشرق وهم يتعقبون يزدجرد آخر الاكاسرة الساسانيين الذي التجأ إلى مدينة «مرو» حاضرة اقليم خراسان وسار إليه الاحنف بن قيس وفتحها عام ٢٢هـ ثم فريزد جرد إلى «بلخ» حيث استنجد بملوك الصين

والترك والصغد وجاءته الجموع الكثيرة وحلم باستعادة ملكه ولكن النصر كان حليف المسلمين اذ سقطت مدينة بلخ بيدهم عام ٢٢هـ وهكذا حكم العرب في خراسان واتخذها المسلمون قاعدة لغزواتهم لفتح بلاد ماوراء النهر واستهل ذلك الاحنف بن قيس بفتح طخارستان.

ثم عبر عبيد الله بن زياد نهر جيحون وفتح بيكند وحاصر بخارى فصالحه اهلها عام ٥٤هـ ولكن ملكتها دنشاد خاتون نقضت الصلح فسار إليها والي خراسان سعيد بن عثمان بن عفان فاغار على بخارى وانتصر عليهم كما اغار على سمرقند ويقال ان قثم بن العباس بن عبدالمطلب قد استشهد في سمرقند عام ٥٥هـ وهو ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم وله فيها ضريح يسمى (شاه زنده) اي السلطان الحي كما تقدم.

والواقع ان الحكم الإسلامي لم يستتب في ماوراء النهر الاعلى يدي قتيبة بن مسلم الباهلي حيث اسلم على يده ملك بخارى وبنى اول مسجد في بخارى عام ٩٤هـ وكانت بلاد ماوراء النهر اقليماً يرتبط اداريًّا بوالي خراسان الذي كان يتبع والي المشرق في العراق في عهد الخلافة الاموية، ثم صارت ادارته ترتبط بالخلافة العباسية ولكن في أواخر عهدها استقل طاهر بن الحسين احد قواد المأمون من التاجيك بحكم خراسان عام ٢٠٥هـ/٨٢٠م ثم اسس احمد بن اسد بن سامان الدولة السامانية في بلاد ماوراء النهر عام ٢٦١هـ/ ٨٧٤م وهذه الدولة التي تعد اول دولة اسلامية محلية في تركستان اهتمت بالعلم والثقافة وغدت مدنها مراكز علم وعرفان في عهدها الذي استمر إلى عام ٩٩٩م.

وقد ادى دخول الاسلام بفكره الحى وانتشار اللغة العربية وآدابها في تركستان إلى إحداث تغييرات جذرية في المجتمع التركستاني وإلى إحداث تطور اجتماعي وفكرى ساعد في تكوين ثقافة اسلامية رائعة ساهمت في ايجاد حضارة انسانية متميزة لايزال المؤلفون على مر العصور يمجدون روادها الذين في مقدمتهم على سبيل المثال لا الحصر الامام ابوعبد الله محمد بن

اسماعيل البخاري صاحب الجامع الصحيح في الاحديث والشيخ عبدالقاهر الجرجاني وصاحب الكشاف جار الله الزمخشري وصاحب مفتاح العلوم يوسف السكاكي والعلامة سعدالدين التفتازاني والمعلم الثاني ابونصر الفارابي والرئيس ابن سينا وخالد بن عبدالملك المتخصص الكبير في مرصد الخليفة العباسي المأمون و بنو موسى بن شاكر الخوارزمي اشهر رياضي العهد العباسي وابوالريحان البيروني.

والواقع ان تركستان التي اعزها الله بالاسلام جاهد ابناؤها على نشره شرقا وغرباً فقد حمله السلطان محمود الغزنوي والامير محمد ظهير الدين بابر إلى الهند وحمله الاو يغور إلى الصين والسلاجقة إلى أوروبا ولعب رجالاتها أدواراً سياسية وعلمية هامة في حياة دول الإسلام في مختلف بقاع العالم.

وفي القرن العاشر الميلادي ظهرت دولتا قره خان وهى أول دولة تركية اسلامية في تاريخ تركستان فيما بين ٩٣٢ — ١١٦٥م والغزنوية ٩٦٢ — ١١٨٦م التي عرفت بفتوحاتها الاسلامية في الهند ثم مالبث ان ظهر السلاجقة (١٠٣٨ — ١١٥٧م) وهم من قبائل الغز التركية على مسرح الاحداث وبلغوا اوج مجدهم في عهد السلطان ملك شاه بن الب ارسلان.

ولكن ملكهم تمزق بعد ذلك ونشأت في تركستان دولة خوارزمشاه في غربها (١١٩٣ — ١٢٢١م) ودولة قره خيتاى في شرقها (٩٠٧ — ١٢١٣م) ثم ظهر في مسرح التاريخ المغول بقيادة جنكيز خان واكتسح دولتي الاو يغور وقره خيتاى عام ١٢١٠م وهزموا خوارزمشاه عام ١٢٢١م واستولوا على تركستان كلها وتوجهوا بغزواتهم نحو الشرق والغرب واسس جنكيز خان بالرعب مملكة واسعة لم تدم له ولكنه قسمها بين ابنائه الاربعة، وكانت تركستان من نصيب ابنه جغتاى خان.

ونجح التركستانيون في تحويل المغول الذين حكموهم من الوثنية إلى نور الإسلام وعلموهم الكتابة والثقافة وتوطدت الوشائج والصلات بينهم بالزواج

والاندماج ونزع الامراء والزعماء المحليون الى الاستقلال وتشكيل دو يلات لهم واستقل تيمور بن تورغاي الذي عرف بتيمور لنك و ينتسب إلى قبيلة برلاس و يعمل مستشارا للأمير الياس خوجه ادغلان بحكم سمرقند عام ١٣٦٩م ثم توجه بغزواته نحو سور يا و بلاد الا تراك الآن وروسيا والهند ولكنه مات وهو في طر يقه لفتح الصين عام ١٤٠٤م.

و بعده تداعت مملكته وانقسمت إلى دو يلات صغيرة متناحرة أدىٰ صراعها وتنافس امرائها على سدة الحكم إلى تمز يق كيان تركستان وتفتيت وحدة شعبها حيث ظهرت خانية القازاق في شمال تركستان عام ١٤٦٥م ثم تحطمت إلى ثلاث دو يلات صغيرة متنافرة ثم خانية الاوزبك عام ١٥٠٥م ولكن مالبثت ان تجزأت ايضاً إلى خانية خيوه عام ١٥١١م وخانية بخارى عام ١٥٩٩م وخانية خوقند عام ١٧٠٠م.

الاحتلال الروسي لتركستان الغربية :

ان تمزق دولة تيمورلنك وعجز خلفائه عن حفظ كيانهم ووحدة بلادهم ادى الى نزاعات قبلية وصراعات طائفية وتنافس الامراء والرؤساء والزعماء على الحكم والامارة وعدم تورعهم عن الاستعانة بالاعداء على محاربة بعضهم بعضاً مما اتاح للقياصرة الروس استغلال ذلك في تحقيق توسعهم الاستعماري ببث الدسائس والمكايد فوقعت خانيات القازاق الثلاث واحدة تلوى اخرى في ايدي الروس عام ١٨٥٢م والخانية مملكة صغيرة يلقب حاكمها بلقب (خان) بمعنى ذلك.

و بدل ان تهتم خانيات خيوه و بخارى وخوقند بهذا الخطر الروسي القادم الذي بات يهدد وجودهم اشتغل امراؤها بالحروب فيما بينهم واستعانوا بروسيا على بني جنسهم في معاركهم الداخلية التي بدأت عام ١٨٥٣م مما جعل الروس يبررون احتلالهم بعقد الحماية الروسية على خانيتي خيوه و بخارى عام ١١٨٣م.

ثم استولى الروس على خانية خوقند والحقوها بروسيا عام ١٨٧٦م واستمر التركمان في مقاومة الغزو الروسي الى ان وقعت روسيا وايران اتفاقية بينهما تجعل نهر اترك حدا فاصلاً بينهما في ١٨٨١/١٢/٩م.

ثم اكمل الروس احتلالهم تركستان الغربية بالمعاهدة التي ابرموها مع بريطانيا وهى معاهدة بامير التي رسمت حدودها في عقدة بامير وافغانستان والاعتراف بمصالح كل منهما في الجانب الذي يحتله من البلاد وذلك في ٢٧اغسطس ١٨٩٥م.

وبعد ان انتهت روسيا القيصرية من عمليات الغزو العسكري لخانيات تركستان الغربية وقضت على القوات الوطنية احكمت سلطتها الاستعمارية من خلال الادارات التالية:

اولاً : ولاية السهوب العامة التي شكلت في أراضي خانيات القازاق في شمال تركستان الغربية في ٢٥مايو ١٨٩١م وقد اشتمل نظام هذه الولاية عل ١٦٨ مادة تمكنت روسيا بموجبها من الغاء حكم جميع الامراء والحكام المحليين القدماء.

ثانيا : ولاية تركستان العامة ضمت جنوب وشرق تركستان الغربية فيما عدا محميتي خيوه وبخارى وجرى تنظيم امور هذه الولاية بالقانون الصادر في ٢يونيه ١٨٨٦م الذي يحتوى على ٣٣١ مادة تبرمج سياسة الحكم الروسي في تركيز سيطرته وتحكمه في جميع مصالح الشعب المسلم وتصرفاته تحت ادارته المباشرة وانهاء جميع اشكال الادارات السابقة.

ثالثا : محمية إمارة بخارى :

وبعد حروب غير متكافئة لصد الغزو الروسي اضطرت إمارة بخارى إلى توقيع اتفاقية قبول الحماية الروسية في ٢٨سبتمبر ١٨٧٣م وحصلت روسيا بموجبها على حق الاشراف على سياستها الخارجية وعلى حرية التجارة فيها وانشاء مكتب سياسي لمراقبة النشاط

السياسي والإقتصادي في الإمارة وكان الممثل الروسى المقيم يتصرف في جميع شئون الامارة بدون استثناء حتى إنه يملك حق اعدام المواطنين المحليين اذا تعرضت مصالح روسيا للخطر. وقد الغى الجيش الاحمر إمارة بخارى بالاستيلاء عليها في ٢٥/٣/١٩١٨م..

رابعاً : محمية خانية خيوه :

بدأت حركات روسيا القيصرية للاستيلاء على خانية خيوه عام ١٧١٧م ويقال ان القيصر الروسي بترو الأول قد اوصى قبيل وفاته (بمعاقبة خانية خيوه) لشدة مقاومتها الغزو الروسي وماكبدهم من خسائر بشرية ومادية. بيد ان الضعف الذي اصابها من كثرة الحروب بسبب الفتن الداخلية والمعارك التي دارت بينها وبين الامارات المجاورة هز كيانها العسكري واضعف قوتها فاضطرت ايضاً إلى توقيع اتفاقية خضوع لحماية روسيا بعد ان نجحت القوات الروسية في الاستيلاء على معظم ممتلكات الخانية في ١٢ اغسطس ١٨٧٣م.

وقد تحدد نفوذ وسلطات الخان مع تزايد الوجود العسكري الروسي والاداري وكانت شعبة امواردريا وهو نهر جيحون التابعة لوالي تركستان العام تشرف على كل قرار يتخذه الخان محمد رحيم ملك خانية خيوه الذي توفى في ١٦ اغسطس ١٩١٠م وعلى خلفه اسفنديار خان الذي خلعه الجيش الاحمر واستولى على خانية خيوه تماما في ٢٥ يناير ١٩٢٠م.

السيطرة الشيوعية :

إبان الثورة الشيوعية التي اندلعت ضد الحكم القيصري في روسيا في عام ١٩١٧م كانت في تركستان الغربية ثلاث تيارات سياسية رئيسية هى:

١ ــ الجبهة الروسية الديمقراطية التي لم يكن لها أثر يذكر في تقرير مستقبل

تركستان الغربية.

٢ ـــ حركة تحرير تركستان القومية التي تزعمها المثقفون التركستانيون بهدف تحقيق استغلال تركستان الغربية تماما.

٣ ـــ الحركة البلشفية التي كانت تعمل للاحتفاظ بتركستان الغربية داخل التركيب الموجود للاتحاد السوفييتي.

واشتعلت ثورة التركستانيين الوطنية في عام ١٩١٦م واستطاع الثوار تأسيس حكومة تركستان المستقلة في طشقند في اوائل عام ١٩١٧م بيد ان الحركة البلشفية التي تزعمها العمال الروس دفعت بالجيش الاحمر إلى احتلال طشقند في ١٥نوفبر ١٩٧٧م وهو نفس التاريخ الذي وقع فيه لينين وستالين على بينهما الشهير المتضمن اعطاء المسلمين من شعوب الديمقراطية القيصرية، حق تقرير المصير وحق الانفصال التام عن الاتحاد السوفيتي ولكن الجيش الأحمر كان يتصرف تصرفاً مطلقاً في تقوية سيطرته على البلاد الاسلامية بامر وتوجيهات القيادة الشيوعية وما كانت بيانات وتصريحات زعمائهم الا عملية تخدير وخدعة لاستغلال الفرصة لفرض الحكم الشيوعي.

وبناء على قرار المؤتمر السوفييتي السادس الذي عقد في ١٥اكتوبر ١٩١٨م تشكلت جمهورية تركستان السوفييتية الاشتراكية الذاتية الحكم ولم تكن في الواقع تمثل حكماً ذاتياً او ادارة حرة، بل كان الزعماء السوفييت يقصدون بهذه اللعبة توجيه ضربة قاضية إلى التركستانيين الوطنيين لو أد حركتهم في فصل تركستان عن روسيا وبخاصة ان العمل الوطني قد تجدد بنشاط وكفاح ثوار (باسمه جى) بعد ان انضم إليهم الجنرال انور باشا القائد التركي الذي قدم إلى تركستان الغربية بهدف تشكيل حركة وطنية تعمل على تحرير تركستان من الحكم الشيوعي والتوسع البريطاني ونجح الوطنيون والثوار في تكوين حكومات وطنية هى:

١ ـــ جمهورية خوقند تركستان الوطنية في ١٩١٧/١٢/٩م.

٢ — جمهورية الاش اوروا الوطنية في ١٩١٧/٧/٢٦م.
٣ — جمهورية بخارى الشعبية في ١٩١٨/٣/٢٥.
٤ — جمهورية خيوه (خوارزم) الوطنية في ١٩١٨/٩/٣٠م.

غير ان القيادات الشيوعية كانت تراقب هذه الحركات الوطنية بمزيد من الخوف من ان تتمكن من تحقيق استقلال تركستان الغربية عن السيطرة الروسية، ولا فرق بين القياصرة الروس او الشيوعيين مادام الأمر يتعلق بفرض السلطة الأجنبية في تركستان الغربية، فاستولى الجيش الأحمر على جمهوريتي خوقند والاش اوروا في اواخر عام ١٩١٨م.

وفي موسكو عاصمة الاتحاد السوفييتي وقعت القيادة الروسية الشيوعية على اعتراف بالحكم الذاتي مع جمهورية بخارى الشعبية في ١٤مارس ١٩٢١م ومع جمهورية خيوه الوطنية في ١٣ سبتمبر ١٩٢١م وذلك امتدادا لوضعهما السياسي الذي كان قائماً في شكل محمية خانية خيوه ومحمية إمارة بخارى في العهد القيصري.

ولكن الزعامة الشيوعية لم تراع حقوق هذه الاتفاقيات والمواثيق ولم تقبل رؤية هاتين الجمهوريتين قائمتين خارج نطاق السيادة الشيوعية مباشرة فاستولى الجيش الاحمر على خيوه في ١٩٢٤/٩/٢م وعلى بخارى في ١٩٢٤/٩/٢٠م.

ولكن لم يتوقف كفاح التركستانيين لنيل إستقلال بلادهم وبدء عملهم بتحقيق حكم ذاتي لهم يؤدي تدريجياً إلى التحرر التام، فقدم الزعماء التركستانيون اقتراحاً إلى لينين يتضمن انشاء جمهورية تركستان السوفياتية وجعل طشقند عاصمة لها، الا ان لينين كان مترددا باديء ذي بدء بتقديم الاقتراح إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي لاتخاذ قرار بشأن ايجاد وحدة ادارية واحدة لعموم تركستان الغربية أو تقسيمها إلى وحدات ادارية صغيرة وفي ١٩٢٤/١/١٨م، صدر قرار اللجنة الذي يتضمن الغاء جمهورية

تركستان السوفيتية الاشتراكية الذاتية الحكم وانشاء جمهوريات اشتراكية لقبائل القازاق والأوزبك والقيرغيز والتركمان والتاجيك.

ورسمت الحدود بينها بشكل واضح بحيث وجدت جماعات من الاوزبك في جمهوريتي تاجيكستان وقيرغزستان وجماعات من التاجيك في اوزبكستان وتركمانستان، كما جزئت انظمة الرى الطبيعية والقرى بين الجمهوريات المختلفة بطريقة بات من المستحيل ادارتها الا عن طريق سلطة تفوق سلطات هذه الجمهوريات.

ولم يكن في وسع اية دولة مستقلة استقلالا صحيحاً ان تتسامح حتى ولو لاسباب ادارية مع هذا التداخل المعقد في اراضيها ولاسيما في منطقة وادي فرغانة وبهذا صارت السلطات الشيوعية تشجع كل قومية محلية على التفكير بعلاقاتها الدولية مع الحكم الروسي فقط، ويجرى الفصل نهائياً من الناحية السياسية بين الشعوب التي تربطها إلى بعضها الكثير من الوشائج العرقية والثقافية واللغوية والتاريخية، وتعاد كتابة تاريخها بحديث يغالي في اظهار الفروق القبلية والتاريخية بينها، و يدخل التبديل والتحريف على لغاتها بحيث تبدو بعيدة عن بعضها وعن اللغة الام. وهى التركية القديمة التي كانت قد تفرعت منها تلك اللغات.

سياسة التهجير والاستيطان الروسي :

بدأت روسيا القيصرية تمارس سياسة تهجير الروس وتوطينهم في مناطق المسلمين منذ أن وطئت اقدامهم تركستان الغربية، فقد وصل عدد المستوطنين الروس فيها ١٠٠ر١٩٥٠و عام ١٩١٤م واصبح عدد المستوطنين الروس ٩٫٣١٢٫٨٢٥ نسمة في عام ١٩٧٩م واوضح مثال لسياسة التهجير والاستيطان الروسي في جمهورية قازاقستان السوفيتية التي بلغ سكانها ١٤٫٦٨٤٫٠٠٠ نسمة في عام ١٩٧٩م يتوزعون كما يلي :

القومية	عددها	نسبتها
القازاق	٥ر٢٨٩ر٠٠٠	٣٦٪
التتار	٣١٣ر٠٠٠	١ر٢٪
الاوزبك	٢٦٣ر٠٠٠	١ر٨٪
الاويغور	١٤٨ر٠٠٠	١٪
الاذاريون	٧٣ر٠٠٠	٠ر٥٪
المسلمون الصينيون	٢٢ر٠٠٠	٠ر٢٪
الروس	٦ر٨٧٢ر٠٠٠	٤٢٪
الاوكرانيون	٨٩٨ر٠٠٠	١ر٦٪
الكوريون	٩٢ر٠٠٠	٠ر٦٪
نيلوروسين	٢٩٨ر٠٠٠	٢٧٪
آخرون	٧١٤ر٠٠٠	٧ر٧٪

ويظهر الجدول ان القازاق وهم سكان هذه الجمهورية الأصلاء هبطت نسبتهم إلى ٣٦٪ فقط بينما زادت نسبة الروس إلى ٤٢٪ ويمثل السكان المسلمون الاصليون العنصر الريفي بنسبة ٧٩٪ بينما يكون المستوطنون الأوروبيون اغلبية سكان المدن حيث تصل نسبتهم إلى ٧٠٪ من جملة سكانها.

وينطبق نفس الوضع على جمهورية قيرغزستان السوفيتية التي هبطت نسبة سكانها الاصليين إلى مادون ٥٠٪ من تعدادها العام البالغ ٥ر٥٠٠ر٠٠٠ نسمة عام ١٩٧٩م.

ومع تدنى نسبة الوطنين في كلتيها فقد اصبح المهجرون الروس بحكم عددهم هم اصحاب القرار والشأن في ادارة هاتين الجمهوريتين السوفيتيين اللتين تتمتعان بحقوق وقوانين فيدرالية تعني أنهما متساويتان نظاماً مع بقية الجمهوريات التي يتكون منها الاتحاد السوفيتي كما حدث عندما اصدرت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في قازاقستان قرارها بعزل رئيسها محمد

كونايـيـف الـقـازاقي وتعـيين بـدلا مـنـه غـينادى كولبين الروسي بتاريخ ١٦/١٢/١٩٨٦م.

الغزو الثقافــي :

لم يـكـن تهجير واستيطان الروس في آسيا الوسطى المسلمة ينتهي بتوليهم منـاصـب ومـراكـز الادارة والـقـيـادة فـحـسـب، بـل كـان الهدف هو التأثير الاجـتـمـاعي والفكري والعنصرى على التركستانيين وتغيير هويتهم الاسلامية وبـدأ ذلك بـالـغـاء الحـروف الـعـربية التي استعملها التركستانيون منذ ان شـرفهم الله عز وجل بالإسلام وفرض استعمال الجدية لاتينية محرفة بدلاً منها وذلـك فـي عـام ١٩٢٨م ثم الـغـيـت تلك الابجدية اللاتينية وفرض بدلاً منها الابجـديـة الـسـلافية الروسية المعدلة بعلامات تلائم الاصوات التركية في عام ١٩٤٠م.

وبـذلـك نـفـذ الـسـوفـيـيـت رغـبـة المـسـتـشـرق والمنظر القيصرى ف. أ. ايلميفسكي الذي طالب بالغاء الابجدية العربية في تلك البلاد المسلمة لقطع صـلات المـسـلـمين بـتـراث اجـدادهـم ومـنـع اتـصـالهم الثقافي والفكري مع اخوانهم المسلمين في العالم.

وفي مارس ١٩٣٨م فرضت اللغة الروسية اجبارياً في مدارس تركستان الغربية وجعلت شرطاً اساسياً للالتحاق في مؤسسات التعليم العالي.

وفي عام ١٩٥٦م اصبحت الروسية هي اللغة الرسمية في بلاد المسلمين ولاشـك فـي أن تـدريـس الـروسـيـة اخـذ يـقـلـل مـن أهمـيـة اللغات القومية وتـدريـسـهـا فمثلاً في جمهورية قير غيزستان يدرس الاطفال بلغتهم ١٢ حصة فـي الـصـف الأول و٤ حـصـص فـي الـصـف الثاني فقط بينما بقية الحصص كلها باللغة الروسية.

وإلـى جـانـب هـذا فقد تم ادخال الكلمات الروسية في اللغة الأوزبكية بـدعـوى الـتـطـور والثقافة المدنية ولزوم استعمال المصطلحات العلمية والدولية

وبلغت نسبتها حوالي ١٨٪ من جملة مفردات اللغة الأوزبكية.

وفي عام ١٩٥٠م تم تحويل أسماء الاشخاص تقريباً إلى صيغتها الروسية باللواحق «اوف» و«ييف» و«فيتش» كما في بابا خانوف وسعيد فيتش وكذلك اسماء كثير من الأماكن فقد تمت تسميتها بأسماء روسية جديدة مثل عاصمة جمهورية قرغيزستان التي سميت فرونزه باسم القائد الذي احتلها مع ان اسمها الاصلى هوبش بك.

اما الادب التركستاني فقد تحولت مهمته إلى وسيلة دعائية للايديولوجية الشيوعية وبث الالحاد والترويج المستمر لفكرة فضل الشيوعيين على شعب تركستان في ايجاد ضروريات المعيشة لهم والاعراب لهم عن الشكر والعرفان بالجميل.

وقد هوجمت مؤلفات عدد كبير من الكتاب والشعراء التركستانيين بسبب افكارها الإسلامية والقومية، وكانت جهود السوفيت في التأثير على الحياة العقلية تستهدف في الدرجة الأولى التقاليد القومية التركستانية لاصرارها على ان العادات الاجتماعية يجب ان تنطوى على معنى اشتراكي شيوعي. وقد هوجم الشاعر التركماني قربان نساخانوف على قصيدته «انك تركماني» لأنه اغمض عينيه عن «الحقيقة التاريخية» وهى ان ضم تركستان إلى روسيا هو الذي انقذ الشعب التركماني من العبودية والخراب وان الفضل يعود إلى الثورة الشيوعية لما حققته من الانجازات على حد زعمهم.

كما ادى تزايد الزواج المختلط بين المسلمين وغيرهم إلى إضعاف الروح الإسلامية وحسب احصاء اكاديمية علوم قازاقستان فان نسبة الزواج المختلط بلغت ٢٠٪ من مجموع عدد الزواج المسجل البالغ ٣٫٩٠٠٫٠٠٠ عقدا في عام ١٩٨٦م و يسجل الاولاد الذين ينتجون عن هذا الزواج المختلط بين المسلمين او المسلمات و بين الروسيات والروس في القومية الروسية.

النظام السياسي في جمهوريات تركستان الغربية :

مر التنظيم السياسي في جمهوريات تركستان الغربية بمراحل متعددة ومتباينة حسب التغييرات السياسية التي حدثت في الاتحاد السوفيتي.

فقد حول النظام الذاتي إلى اتحاد فيدرالي له نظام مميز في تشديد الرقابة والسيطرة على الجمهوريات السوفيتية كما حدث فيما بين عامي ١٩٢٥م — ١٩٤٥م ثم تناقصت السيطرة المركزية مع توسيع حدود السلطات المحلية في جمهوريات السوفييت خلال أعوام ١٩٥٥م — ١٩٦٢م.

وفي عام ١٩٦٣م بدأت مرحلة ثانية عادت فيها الجمهوريات إلى حظيرة السيطرة المركزية المتشددة. وهو عهد الرئيس برجينيف وخلفه وقد امتدت هذه الفترة طويلاً وتدخلت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي في اقالة وتعيينات رؤوساء الجمهوريات والحكومات مثلما حدث بشرف رشيدوف — رئيس الحزب الشيوعي في اوزبكستان وعضو المكتب السياسي المركزي الذي اغتيل ٣٠ أكتوبر ١٩٨٢م وكذلك محمد كوناييف رئيس اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في قازاقستان الذي اقيل من منصبه وعين بدلا منه غينادي كولبين الروسي بتاريخ ١٩٨٦/١٢/١٦م كما سبق وكانت جميع التعيينات والترشيحات القيادية والادارية لاتتم الا في موسكو عاصمة الاتحاد السوفيتي.

والمجالس السوفيتية العليا في الجمهوريات وهى اعلى اجهزة الحكم فيها ليس لها وظيفة إلا تنفيذ القوانين التي يصدق عليها مجلس السوفييت الاعلى للاتحاد السوفيتي فمثلاً النظام القضائي الذي يطبق في جمهوريات تركستان الغربية هو واحد في جميع ارجاء الاتحاد السوفيتي والمحكمة السوفيتية العليا في موسكو عاصمة الاتحاد السوفييتي هى صاحبة السلطة في اعادة النظر في اي أحكام تصدر عن محاكم الجمهوريات القومية.

واما سلطة تطبيق القانون وتنفيذ احكامه فمسندة إلى النيابة العامة بصفتها جهازاً مركزياً للاتحاد السوفييتي وجاء في المادة ١١٦ من دستور جمهورية اوزبكستان السوفييتية ومثلها في بقية جمهوريات تركستان الغربية ان: تؤدي فروع النيابة العامة في الاتحاد السوفييتي وظائفها مستقلة عن سائر اجهزة الحكومات المحلية وبذلك تخضع فروع النيابة العامة لسيطرة السلطة المركزية في موسكو مباشرة وحتى يتم ذلك فإن وكلاء النيابة المحليين يتم تعيينهم عن طريقها ويسألون أمامها مباشرة، ويترتب على هذا الوضع ان السلطات التشريعية في الجمهوريات القومية (المستقلة) لا سلطات لها على اجهزة النيابة العامة في بلادها على الاطلاق ولا حتى من الناحية الادارية.

أما النظام الفيدرالي لاتحاد جمهوريات السوفييت فإن حقيقته وحدة مركزية صارمة، فالقوميات الكبيرة التي تؤلف جمهوريات مستقلة متكافئة والقوميات الصغيرة تؤلف جمهوريات أو مناطق ذاتية الحكم أو تتمتع باستقلال داخلي ضمن جمهوريات مستقلة وتقوم سيادة الجمهوريات اساساً على عدد من الافتراضات الشكلية المجردة. فالتعبير الارفع لسيادة جمهوريات مستقلة يتلخص في حقها بأن تنفصل بحرية عن الاتحاد السوفييتي، كما جاء في المادة (١٥) من دستور جمهورية أوزبكستان السوفييتية، ولكن لم يوضح القانون الاجراءات الدستورية التي يمكن عن طريقها تحقيق انفصالها عن الاتحاد السوفييتي اذا شاءت، وهذا مالا تقربه المصادرالسوفيتية ايضاً.

ويجعل من المستبعد ان يكون هناك اي احتمال في ان تطلب جمهورية من جمهوريات الاتحاد السوفيتي الانفصال بواسطة اجهزتها السوفيتية الرسمية التي يشرف الشيوعيون. على تكوينها مما يجعل هذا الحق من الناحية العملية وكأنه لا وجود له، وحتى ولو وجد احتمال طلب الانفصال فان المادة (١٤٦) من دستور الاتحاد السوفييتي تعارض هذا الحق، اذ تنص المادة على انه يجب موافقة ثلثى اعضاء المجلس السوفييتي الأعلى المركزى وهو المجلس الذي يطغى عليه العنصر الروسي أو أنصاره.

أما المطالبة بالانفصال خارج المجالات الرسمية فأمر يستوجب العقوبة القضائية حيث ينص قانون العقوبات على ان أي تحريض أو دعاية يقصد منها إضعاف الدولة السوفيتية أو الانقضاض عليها، تعرضان مقترفهما لعقوبة سجن تتراوح مدتها بين ستة أشهر وسبع سنوات.

وبينما يستمر الادعاء الاعلامي بأن الاتحاد السوفيتي يتكون من اتحاد فيدرالي لجمهوريات متكافئة فان الحزب الشيوعي السوفيتي هو النواة القيادية لجميع تنظيمات الطبقة العاملة الرسمية والعامة ولايعتبر اتحاداً فيدرالياً لأحزاب متفرقة وانما يعتبر حزباً مركزياً واحداً هو المسئول عن جميع اعمال الحزب الشيوعي في جميع جمهوريات الاتحاد السوفييتي.

الاسلام والمسلمون في جمهوريات تركستان الغربية :

الحديث عن موقف الشيوعية من الدين الذي تعده مخدر الشعوب وافيونه ومن الدين الإسلامي خاصة الذي تعتبره العدو اللدود معروف منذ ان ظهرت الشيوعية ونظرياتها التي لا تنشأ ولا تعيش الا في تربة الالحاد العفنة، والشيوعية التي نتجت عن فلسفة نبعت من أصول يهودية وصليبية حاقدة وضعت نصب عينيها محاربة المسلمين واستئصال الإسلام بكافة اساليب الاضطهاد والتعسف الذي تراوح بين العنف المادي والتسامح الظاهري المشوب بالضغوط المعنوية والاقتصادية والفكرية والاجتماعية ويمكن تقسيم المراحل التي مرت على المسلمين كالآتي :

١ ــ دور الإعداد السياسي وفرض الحكم الشيوعي فيما بين ١٩١٧ ــ ١٩٢٩م: حيث قام الحزب الشيوعي في السنين الاولى بعد اغتصاب الحكم بالتسامح في أمور الدين الإسلامي وأئمته في محاولة منه لاضعاف المقاومة الوطنية والدينية بين المسلمين وازدادت الدعاية القائلة بعدم وجود تناقض بين الشيوعية والإسلام واخذت الصحافة السوفيتية تغالى في مدح الروح الديقمراطية في الدين الإسلامي

وافاضت الاجهزة الشيوعية في مدح ائمة الدين الإسلامي والتقرب منهم واستمر هذا الوضع إلى أن شعر النظام السوفييتي بثبات اقدامه وتركيز قواته العسكرية.

٢ ــ دور الاضطهاد والعنف المادى ضد الاسلام وائمته ومؤسساته فيما بين عامي ١٩٢٩م ــ ١٩٤١م :

كان بدء مصادرة الاملاك الزراعية وتحويلها إلى مزارع جماعية هو الاشارة إلى بدء الهجوم الشيوعي ضد الإسلام، إذ صادرت السلطات الشيوعية جميع الاوقاف التي اوقفها المسلمون على المساجد والمدارس ومساكن الفقراء والأرامل والايتام واغلقت اكثر من ٦٣٠٠ مدرسة دينية اسلامية ومايزيد عن ٦٠٠ معهد اسلامي عال، وجرى تصفية المحاكم الشرعية التي كان عددها ٣٤٢ محكمة في اوزبكستان عام ١٩٢٢م.

كما اغلقت المساجد وعددها ٢٥ ألف مسجد وتم تدمير اكثرها وتحويل بعضها إلى مستودعات واسطبلات ونواد ليلية وكذلك جرت محاكمات تشهيرية أوسرية لرجال الدين ومدرسيه في جميع أنحاء البلاد بصفتهم اعداء الشعب ومحرضين ضد النظام الجماعي وصدرت ضدهم احكام متنوعة بالاعدام والاعتقال والاشغال الشاقة والنفي إلى معسكرات السخرة.

ويصعب تقدير عدد من لاقوا حتفهم منهم ولكن ورد في بعض المعلومات ان الارهاب الشيوعي تسبب في قتل ٥٠,٠٠٠ شخص من ائمة الدين الإسلامي عام ١٩٤٠م وادى هذا إلى منع المسلمين من ممارسة شعائرهم الدينية مثل الصلاة والصيام والختان كما تم مصادرة جميع المصاحف والكتب الاسلامية واتلافها ومعاقبة كل من يضبط متلبساً بقراءتها.

وجندت جميع الأجهزة الاعلامية والثقافية والتعليمية في الهجوم ضد الإسلام ومبادئه وشخصياته وكان القصد من هذه الحرب الشرسة

هو استئصال الاسلام ومحو التقاليد الوطنية واحلال عادات وثقافات غريبة في حياة المسلمين مثل الغاء الاحتفال بعيدى الفطر والاضحى وإبدال ذلك بإقامة الاحتفالات الباهرة بعيد رأس السنة الميلادية وترويج المسكرات والاختلاط الجنسى.

٣ ــ دور التظاهر بالتسامح الديني واستخدامه في خدمة السياسة ١٩٤١ ــ ١٩٦٤م بعد نشوب الحرب العالمية الثانية وعلى اثر تقدم القوات الالمانية النازية نحو موسكو عاصمة الاتحاد السوفيتي قام الحزب الشيوعي وحكومته السوفيتية التي يرأسها جوزيف ستالين حينذاك بتطبيق المبدأ القائل (الغاية تبرر الوسيلة) وخفت الحملات المسعورة ضد المسلمين واتجه الحكم إلى تخدير الرأى العام باعلانه (حرية الدين) والاعتراف برجال الدين ودورهم في حياة الناس وعملت السلطات الشيوعية على احتواء المسلمين وممارستهم الدينية في الادارات الدينية التي احدثتها لادارة ماكان لايزال متبقياً من المساجد.

وفي ديسمبر عام ١٩٤٨م عقد مؤتمر اسلامي لجمهوريات تركستان الغربية في طشقند عاصمة أوزبكستان حضره ١١١٥ مندوباً وانتخب المؤتمرون الشيخ بابا خان عبدالمجيد خان البالغ من العمر ثمانين عاماً مفتياً لمسلمي تركستان الغربية ثم اصبح رئيساً للادارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان في مقرها (طشقند).

كما افتتحت مدرسة مير عرب الإسلامية في بخارى عام ١٩٤٨م وتلاها معهد الإمام البخارى الإسلامي في طشقند عام ١٩٥٦م وشارك رجال الدين التركستانيون في وفود اسلامية توجهت لاداء فريضة الحج وزيارة بعض البلدان الإسلامية بهدف الدعاية الاعلامية عن الحرية الدينية التي يتمتع بها المسلمون في تركستان الغربية وبقية بلدان الاتحاد السوفييتي.

وكان بالطبع هذا هو الوجه الدعائي لسياسة الاتحاد السوفييتي في

موقفه من الدين، اما الوجه الحقيقي فقد اعلنه مولانا عبدالوهاب عضو الوفد الباكستاني الذي زار طشقند في ٣٠ يونيه ١٩٥٧م حيث ادلى بعد رجوعه من الاتحاد السوفيتي بالبيان التالي :

ان ملاحظاتي الشخصية لحياة المسلمين في الاتحاد السوفيتي اقنعتني بأن الحكومة السوفيتية لم تكتف بأن جعلت من المتعذر على المسلمين القيام بواجباتهم الدينية ومنعت تدريس العلوم الدينية للنشء الحديث في البلاد، بل إنها قامت بمحاربة الثقافة الإسلامية بانتظام.

ونشرت في نفس الوقت مجلة الإسلام الصادرة في كراتشي بتاريخ ٢٣ أغسطس ١٩٥٧م حديثا لوفد العلماء القائل بأن وضع السكان المسلمين في الاتحاد السوفيتي يمكن ان يعتبر انذارا للعالم الإسلامي الحر، لما قد تجلبه الشيوعية معها في حالة انتشارها.

وفي الحقيقة كان انهيار الجبهة الروسية امام تقدم القوات الألمانية النازية وتطلع شعوب الاتحاد السوفيتي إلى المشاركة مع الالمان في غزوهم لروسيا وحاجة الحكم الشيوعي إلى تجميع قواه داخلياً واستقطاب دعم الحلفاء امريكا وبريطانيا وفرنسا لدحر القوات الغازية ثم مد النفوذ وفرض التأثير على الشعوب لمواجهة النفوذ الغربي هي العوامل التي دفعت الحكم الشيوعي السوفييتي إلى تطبيق سياسة المهادنة في تحقيق اهدافه فيما يتعلق بعلاقته بالمسلمين داخل الاتحاد السوفيتي وخارجه.

٤ ــ دور الاضطهاد المعنوى والثقافي وتنظيم استخدام الدين في السياسة والإعلام اعوام ١٩٦٥ ــ ١٩٨٦م:

لم يتغير موقف السلطات السوفييتية نحو الدين بل انتظمت سياستها نحوه والحديث هنا عما تنفذه اجهزة الحكم الشيوعي من اجراءات فعلية وممارسات ملموسة، ولا قيمة لما يتضمنه دستورها من مواد في حرية الدين لأن الانظمة في الدول الشيوعية هى بما تمارسها لا بما تعلن عنها، ويمكن وصف هذا الدور بالآتى :

(أ) تكثيف الهجوم الإلحادى ضد الدين وتجنيد كافة الاجهزة الثقافية والاعلامية والتعليمية لمحاربته وانتقاده وبث النظريات المادية والتعاليم الماركسية والمبادىء الشيوعية في عقول الناس وتجديد ثقافة الشعب بالفكر المادى.

إلى جانب حظر طبع أو نشر اى مادة اسلامية يستفيد منها عامة المسلمين ومنع دخول المطبوعات الإسلامية وحظر التعليم الديني والتربية الاسلامية في كافة المجالات ومعاقبة كل مخالف لما ذكر حسب النظام الذي نص على تحريم الدعاية والتعليم الديني وتجريم فاعله.

(ب) الانتقال من عقوبات القتل والاعتقالات لمعاقبة المتدينين إلى عقوبات اقتصادية بطرد العمال من اعمالهم وحرمان الموظفين من علاواتهم وترقياتهم وحرمان ابنائهم من التعليم والرعاية الصحية وقطع المواد الغذائية عنهم والتشديد عليهم بالاعمال الشاقة.

(جـ) فتح بعض المساجد بزعم انها مراكز ترفيهية واجتماعية للمسلمين المتقاعدين والمسنين والعجزة لقضاء اوقات فراغهم وممارسة نشاطاتهم الاجتماعية والثقافية.

(د) إعداد جماعات من ابناء المسلمين لمتابعة ومراقبة نشاط المسلمين وتوجيه العمل الاسلامي بما يتناسب مع سياسة الحكومة السوفيتية ويحقق اهدافها و ينفذ تعليماتها و يؤدى إلى احكام سلطاتها.

(هـ) توجيه العمل الاسلامي الرسمي بشكل اساسي لخدمة اغراض الاعلام الخارجي وسياسة الاتحاد السوفييتي الدولية وتمثل في الاتى :

* طبع القرآن الكريم والكتب الإسلامية باللغة العربية باعداد محدودة لاستعمالها في الإهداء الخارجي ومنع تداولها لغير

المنتسبين للادارات الدينية وترويج مجلة (المسلمون في الشرق السوفييتي) بعدة لغات بهدف الدعاية الرسمية لحرية الدين الإسلامي ونشاط العاملين المسلمين وهيئاتهم.

* تكثيف ارسال وفود الادارات الدينية الإسلامية إلى اقطار العالم والاقطار الإسلامية خاصة ودعوة الشخصيات والهيئات الإسلامية لزيارة اوزبكستان بصفة خاصة بغية الدعاية الإعلامية لما حققه النظام الشيوعي والحكومة السوفييتية من انجازات والادعاء بما كفل للمسلمين من حريات دينية واجتماعية.

* تنظيم المؤتمرات والندوات الإسلامية وتوجيه الدعوات لمختلف الهيئات والشخصيات الإسلامية للمشاركة فيها واستغلالها بشكل رئيسي لتأييد اهداف السياسة الخارجية للاتحاد السوفييتي، وليس في ذلك مايعالج احوال المسلمين ويلبي حاجاتهم ولا تتطرق تلك المؤتمرات إلى ظروف المسلمين في الاتحاد السوفييتي وضرورة تأمين مطالبهم في النشاط الإسلامي، ومن ذلك:

— مؤتمر اتحاد وتضامن الشعوب المسلمة من اجل السلام في طشقند وقد حضره ممثلون من ٢٤ دولة مسلمة.

— المؤتمر الاسلامي بمناسبة مرور ١٢٠٠ سنة على وفاة الامام البخارى الذي عقد في مدينة بخارى في شهر اغسطس عام ١٩٧٤م، واشتركت فيه ٢٥ دولة اسلامية وهيئات اسلامية من ضمنها رابطة العالم الإسلامي.

— الاحتفال بمرور ٣٠ عاماً على انشاء الادارة الدينية لمسلمى آسيا الوسطى وقازاقستان في طشقند في اكتوبر ١٩٧٦م، حضره ممثلون من اليمن الجنوبي وسوريا والمغرب والاردن وتونس والهند وباكستان.

— الاحتفال بمرور عشرة أعوام على اصدار مجلة «المسلمون في الشرق السوفييتي» في طشقند في ٣يوليه ١٩٧٩م حضره ممثلون

من ١٥ دولة منها اليابان والحبشة وبلغاريا.

ــ ندوة مساهمة مسلمى الاتحاد السوفييتي في تطور الفكر الإسلامي الذي ادى إلى تحقيق السلام والتطور الاجتماعي في دوشنبه عاصمة تاجيكستان في سبتمبر ١٩٧٩م حضرها ممثلون من ٣٠ دولة.

ــ الاحتفال بدخول القرن الخامس عشر الهجري في طشقند في ذى القعدة عام ١٤٠٠هـ وحضره ممثلون من ٢٧ دولة.

وقد استغلت هذه المؤتمرات للدعاية الاعلامية بأن المسلمين يعيشون بحرية دينية كاملة في الاتحاد السوفييتي وانهم يشاركون العالم الإسلامي في قضاياه الفكرية والثقافية، بل والسياسية لأن هذه المؤتمرات كانت تندد دوما بالامبريالية وامريكا واسرائيل وجنوب افريقية العنصرية. وزعماء الادارة الدينية في هذا الصدد يرددون تصريحات ساسة الحكم في الاتحاد السوفييتي.

الصحوة الإسلامية :

ان التقارير الصحفية وانطباعات الزائرين المسلمين وغيرهم علاوة على استقصاءات الحكومة السوفيتية والاحداث التي يعلن عنها بين فينة واخرى عن اعتقال ومحاكمة بعض المسلمين بسبب انشطة دينية وكذلك الدراسات الغربية تفيد كلها بأن اساليب الاضطهاد الديني وعمليات الاستئصال والتذويب العنصري والثقافي لم تؤد اهدافها في القضاء على روح الإسلام في نفوس المسلمين، بالرغم من قوتها وبطشها. بل أذكت في نفوسهم الغيرة والحمية للاسلام وايجاد السبل والاساليب التي تمكنهم من ممارسة بعض شعائره وتعلم بعض احكامه في بيوتهم ومنتدياتهم سرا ويمارسون بعض احكامه الاجتماعية جهرا ويعتبرونها مميزاتهم وعاداتهم القومية.

وقد اظهرت الدراسات الاخيرة ان ٨٠٪ من سكان جمهوريات تركستان الغربية لايزالون متمسكين بايمانهم ومواظبين على أداء الشعائر الدينية التي

يعتبرونها جزءا من واقعهم القومي، كما اثبتت الوقائع ان الشبان مهما كانت ثقافتهم الحديثة وتلاحمهم بالمجتمع السوفييتي يرفضون ظواهر الترو يس (اي الصفة الروسية) و يتمسكون بشخصيتهم الاسلامية وارثهم التاريخي كما اظهرت التقارير بأن بعض اعضاء الحزب الشيوعي وموظفي الدولة الكبار الذين يظهر عليهم تمسكهم بالتعاليم الشيوعية في فترة عملهم يعودون إلى دينهم حينما يبلغون سن التقاعد وهو ٥٥ عاما وعندما يسأل احدهم عن ذلك يجيب: انا مسلم لان الكافر يصبح اضحوكة بين الناس، انا مؤمن لأنى مسلم انا مسلم لأن والديَّ كانا مسلمين ولايجوز مخالفة الوالدين.

يقول الدكتور لازاريني من جامعة نيواوليز في محاضرة القاها في الندوة العالمية الثانية لآسيا الوسطى في لندن بين ٧ ــ ١٠ ابريل ١٩٨٧م : ان سياسة العنف التي مارستها السلطات السوفيتية لنشر الالحاد محلياً تحولت لصالح الإسلام محليـاً لزيادة رد فعل المسلمين وخارجياً لاعتبارات عالمية اسلامية بصرف النظر عن وقوع رجال الدين تحت الادارة المباشرة والضغط السياسي لرجال الحزب الشيوعي فانهم يتسللون من السياج الحديدى المضروب حولهم ليعملوا على بث رسالتهم الاسلامية، وبهذا يعملون على تكذيب الادعاء السوفييتي القائل بتغلب الماركسية اللينية على تعاليم الإسلام.

وتقوم الادارات الدينية الرسمية بطبع القرآن الكريم و بعض الكتب الاسلامية باللغة العربية أولاً لاستخدامها هدايا يقدمونها إلى الشخصيات والوفود الإسلامية التي يقابلونهم في داخل أو خارج الاتحاد السوفييتي، وثانياً لأن مسلمي الاتحاد السوفييتي لايستطيعون قرآءتها والاستفادة منها بعد ان فرضت عليهم الابجدية الروسية ولغتها.

ولم تطبع هذه الادارات التي يفترض اهتمامها بالثقافة الاسلامية كتباً اسلامية باللغة والابجدية التي يستخدمها عامة المسلمين حتى الآن. لكن الهيئات السرية التي تزاول نشاطها خفية بين المسلمين في القرى والنوادى

تقوم بنسخ الكتب الدينية وتوزيعها بين المسلمين فمثلاً نشرت جريدة اوزبكستان في عددها الصادر بتاريخ ٢٤ يونيه ١٩٨٤م مقالاً عنهم بعنوان «الملائكة المحتالون» ثم نشرت خبراً في ٢٤ اغسطس ١٩٨٤م مفاده ان مروان بولات من كلخوركستان كان يبيع الكتب الدينية سرا امام جامع خوجه زومراد في سمرقند وكانت ابنته جميلة قمر البالغة من العمر ٤٥ عاماً تساعده في ذلك، فالقت اجهزة الحزب الشيوعي القبض عليهما مع اربعة آخرين وصادرت الدولة املاكها وحكمت على الأب بالسجن خمسة اعوام وعلى البنت بالسجن سبع سنوات.

ومما يظهر حقيقة انتشار الاسلام بين من يسمون انفسهم اعضاء الحزب الشيوعي في جمهوريات تركستان الغربية بالرغم من محاربة الدولة وحملات الالحاد المكثفة ان الاجتماع السابع عشر للحزب الشيوعي لجمهورية اوزبكستان المنعقد في اكتوبر ١٩٨٦م انتقد المجتمعون فيه بعض اعضاء الحزب الشيوعي الذين يعملون على نشر الالحاد والشيوعية و يشتركون في طقوس دينية واصدر قرارا بمراقبة ذلك.

وجريدة سوفيت سكايا في عددها الصادر بتاريخ ٢٦ ديسمبر ١٩٨٤م اعترفت بانتشار الروح الاسلامية بين المثقفين، واشارت إلى أن هذا يشكل خطورة اجتماعية وسياسية. وقد اشار اليها ايضا مشرف رشيدوف السكرتير العام للجنة الحزب الشيوعي المركزي لجمهورية اوزبكستان في خطاب له عام ١٩٧٩م ان رجال الدين السريين يتأقلمون بذكاء مع الاوضاع الجديدة ولهم القدرة على لبس اللبوس لكل حالة، وهم يدافعون عن بعضهم بعنف و يبدون اهتماما خاصا بالشباب، ومن الخطأ القول انهم يخوضون حرباً خاسرة.. ونفوذهم يتبدى في الاعداد المتزايدة التي تؤم المساجد وفي الاعياد الاسلامية والمناسبات الاجتماعية ذات الصبغة الاسلامية.

وهكذا نجد ان جهود الشيوعيين لاستئصال الاسلام في تركستان لم تؤد الا إلى حقيقة واحدة هي ان الإسلام صامد وقد تكون الاجهزة الشيوعية

عملت على تشو يه بعض افكاره واحكامه التي استقرت في نفوس المسلمين وتتخذ اشكالاً عدة قد تكون مخالفة لاصلها ولكنها باقية باسم الاسلام. وهذا ما دعا الاجهزة الغربية من الاستشراق والتنصير إلى ان تهتم بالنمو السكاني لمسلمي الاتحاد السوفييتي والي دراسة ظاهرة التواجد الإسلامي القوى وفشل عمليات التذو يب الروسى.

فقد عقد مؤتمر في نيو يورك في أوائل عام ١٩٨١م حول المسلمين في الاتحاد السوفييتي و يكفي قول الدكتور مورای فيشباك الخبير في النواحي السكانية للاتحاد السوفييتي استدلالا على هدف المؤتمر اذ يقول: وما يجعل هذه المشكلات حادة هو تمسك المسلمين باحساس قوى بشخصيتهم المستقلة.

وتتفق معه الكاتبة الفرنسية هيلين كارير دونكوزى بقولها: بانهم يظلون مسلمين بغض النظر عن غموضهم. واستخلص المؤتمرون: بأن المسلمين يتميزون بثقافة اسلامية خاصة قد تكون العقيدة الدينية جزءاً منها وقد تكون عادات اسلامية مثل الختان والزواج ومراسم الجنائز و بعض الانماط الاجتماعية والثقافية. وارتفاع معدل مواليد المسلمين هو احد الامثلة ورفض الزواج من غير المسلمين هو مثال آخر..

وتحاول اجهزة الاعلام الروسية والأورو بية اظهار تمسك المسلمين ببعض احكام الاسلام على انه تمسك بالتقاليد القومية وكأن تعلقهم بها هو ظاهرة قومية وليست دينية ويهدفون بذلك إلى الاقلال من شأن الدين. ولكن الواقع ان المسلمين السوفييت الذين حورب دينهم الحنيف بقسوة وعنف ومنعوا من ممارسة شعائره الدينية، استطاعت اكثر يتهم الاستمرار في ممارسة بعض الاحكام العامة فيه بدعوى انها مميزات وطنية وعادات قومية، لأن السلطات الشيوعية التي حاربت الدين واحكامه روجت الدعاوى القومية والعشائر ية وضخمت الفروق القبلية

وإذا كان الختان يمنع مثلاً على انه شعيرة دينية فإنه يمكن ممارسته على انه عادة قومية.. ومثل هذه الامور لا تؤدى لكونها واجبات دينية فحسب، بل

لكونها ايضاً عادات قومية.

والمسلمون التركستانيون يعرفون حق المعرفة بأن دينهم الإسلامي المميز هو الذي ساعدهم على البقاء أمة متميزة وهم عندما يمارسون بعض الشعائر الاسلامية التي يظن غير المسلم انها ممارسة قومية فهم يؤدونها على أنها التزام ديني وقومى في آن واحد. وذلك حتى الملحدون وهم الاكثر اقتناعاً يختنون اولادهم ولايزال يسمع الى اليوم في طشقند او (دوشنبه) تعابير مثل: لايستطيع غير المسلم ان يكون اوزبكيا او تاجيكيا.

عهد إعادة البناء:

منذ ان تولى الرئيس ميخائيل جورباتشوف زمام السلطة في الإتحاد السوفييتي في يناير عام ١٩٨٥م، والاتحاد السوفيتي يعيش مرحلة جديدة من السياسة سموها غلاسنوست يعني المكاشفة والمصارحة و بيرسترو يكا وتعني اعادة البناء وأصبحت هاتان الكلمتان تميزان السياسة السوفيتية المعاصرة في الداخل والخارج، والمشاهد ان هناك بوادر تحسن وتعديل اقتضتها الظروف لمعالجة المشاكل التي نجمت من تطبيق النظام الشيوعي مما يؤكد فشل النظريات الشيوعية التي وضع اسسها كارل ماركس وانجلز وسفك لينين وستالين دماء الابرياء في تطبيقها على الناس بقوة الحديد والنار، ومع ذلك ذهبت كل الوعود الزائفة التي اطنب الشيوعيون في ترويجها وتخدير الشعوب بها هباءا ولم يجن الانسان منها في تلك الدول التي ابتليت بالشيوعية الا التدهور الاقتصادي والانحلال الاجتماعي والتضخم الاقتصادي وتفاقمت المشكلات والإضطرابات وبات البحث عن الخلاص امراً لازما، وحدث ماحدث وكان يجب ان يحدث قبل زمن.

أما القارىء لاحداث اليقظة الاسلامية بين مسلمي الاتحاد السوفييتي فيلاحظ ان العنف الذي مارسه الشيوعيون في محاربة الإسلام لم يؤد إلا إلى زيادة محبة المسلمين لدينهم ومقاومة الحكم الشيوعي.

وقد اشارت بعض الأنباء التي تسربت إلى أوروبا بحدوث عدد من الاضطرابات بين العمال ورجال الحزب الشيوعي في جمهوريات آسيا الوسطى وشمال القفقاس انتهت بتدخل الجيش الاحمر وفرض الاحكام العرفية خلال شهر مارس ١٩٨٢م. مما يعني ان الحملات التي شنتها السلطات الشيوعية لاخراج المسلمين من دينهم فشلت فشلاً ذريعاً بتأكيد زعمائهم فقد ذكر سكرتير الحزب الشيوعي لجمهورية تاجيكستان في عام ١٩٨٦م، ان جميع الجهود التي بذلها نظام التعليم وجهاز الحزب الشيوعي لمحاربة الدين الإسلامي انتهت بالفشل ووفقاً لاحدث استطلاعات الرأى العام الذي اجرى مؤخراً في تاجيكستان كان رأى ثلث الاشخاص الذين استطلعت اراؤهم متفقاً على ان الدين مفيد والاخطر من ذلك فقد كان اغلبهم من المثقفين مثل موظفي الهيئة الطبية والمدرسين من اساتذة الفيزياء والكيمياء.

وقد شارك الأدباء المشهورون ايضاً في هذه الصحوة الاسلامية فقد كتب الاديب القرغيزى جينكيز عصوف في رواية له بعنوان «ملاخ» صدرت في عام ١٩٨٧م (ان الانحطاط الثقافي الذي يسود آسيا الوسطى هو نتيجة فصل التراث الحضاري عن حياة المسلم المعاصر) و يوضح ذلك بمثال يضربه عن سلخ الانسان وتغيير جلده ثم القائه في العراء.

وفي عهد الرئيس جورباتشوف يتطلع المسلمون الى التدرج في التسامح الديني واتاحة فرص ابراز الشعور القومي مع منح قدر اكبر من الحرية اللامركزية لجمهوريات الاتحاد السوفيتي خصوصاً في الشئون الادارية والثقافية وربطها جميعاً بخطة اقتصادية تستقل في فروعها وتتحد في عمومياتها ثم تنحصر الشئون الخارجية والدفاعية والامنية في السلطة المركزية وتتحرر الجمهوريات في ممارسة شئونها الحياتية مع بقائها تحت رقابة المحاكم السوفيتية العليا.

تعقيب :

كتبت هذه الدراسة اثر زيارة وفد رابطة العالم الإسلامي إلى الاتحاد السوفيتي التي تمت في شهر ابريل عام ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م والتي ذكرنا المشاهدات فيها في هذا الكتاب.

وقد حدثت بعد ذلك تطورات في الاتحاد السوفيتي كانت بمجموعها نصراً للاسلام والمسلمين ودحراً للشيوعية والشيوعيين وهو امر لم يكن يتوقعه أحد من قبل ولكن الله غالب على امره.

«يريدون ليطفئوا نور الله بافواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون»
وقد زرت الإتحاد السوفيتي بعد هذه الزيارة بأربع سنين حيث ابتدأت هذه الزيارة في ١٤١٠هـ.

فوجدت الاوضاع قد تغيرت، والاحوال قد تبدلت وكل ذلك لمصلحة الاسلام والمسلمين ووجدت الاخوة المسلمين قد استغلوا ذلك في العمل السريع الجاد لاظهار اسلامهم، ورفع شعاره عالياً ظاهراً.

فالمساجد القديمة تستعاد وترمم وتعمر من جديد بذكر الله والصلاة والمساجد الجديدة تنتشر في المدن والقرى حتى صارت خليات من خليات النحل التي تعمر المساجد، وتضيف اليها حجرات المدارس الإسلامية. بل حتى المعاهد الدينية الاسلامية تقام الآن فأهل تاجيكستان يبنون الآن معهداً اسلامياً انموذجياً حتى في مظهره ليكون اول معهد اسلامي في تلك الجمهورية يقوم على تعليم الطلاب وتثقيفهم مع اعاشتهم واسكانهم فيه طيلة مدة دراستهم.

وقد شاهدت اشياء مؤثرة من تعليم الاطفال الصغار للدين الاسلامي وحفظهم سوراً بل اجزاء طويلة من القرآن الكريم وهم في أسنان الطفولة ورأيت الشيوخ الطاعنين في السن يتعاونون مع اطفال المسلمين عل حمل اللَّبن الذي تُعَمَّرُ به المساجد ومساعدة البنائين على عملهم.

وسجلت كل ذلك حسبما شاهدته وعرفته في كتابين كتبتها عن مشاهداتي في تلك الرحلة احدهما عنوانه : «الرحلة الروسية» والاخر بعنوان «يوميات في آسيا الوسطى».

هذا إلى جانب الفصل الذي كتبته في تلك الزيارة عن مشاهداتي في مدينة بخارى والحقته بهذا الكتاب..والله اعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.

المحتويات